

السيرة المحمدية

السيد سليمان النوري

ثمان محاضرات في السيرة النبوية ورسالة الإسلام

دار الأمان

للنشر والتوزيع

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

١٤١٥ هـ - ١٩٩٥ م

رقم الإيداع القـانـونـي

٩٦/٣٣٦٥

دار الأمان

للنشر والتوزيع

١١ ش محمد فريد أبو حنيد - مدينة نصر - القاهرة ت ٤٠٢٣٢٩٥

ترجمة حياة المؤلف

السيد سليمان الندوي

للاستاذ مسعود الندوي^(١) رحمه الله تعالى

لقد علم المسلمون في مشارق الارض ومغاربها أن عالم الهند وعالم باكستان الاكبر ، الاستاذ العلامة المحقق ، السيد سليمان الندوي قد استأثرت به رحمة الله وانتقل الى دار الخلود ، في الرابع عشر من شهر ربيع الآخر سنة ١٣٧٣ هـ . وقل من عرف منهم أي مصابب أصيب به المسلمون والعالم الاسلامي بوفاة ، والذين عرفوا ذلك منهم ، ربما لا يستطيعون أن يقدروا الخسارة العظمى التي خسرتها الدعوة الاسلامية في باكستان بارتحاله في هذه الآونة الخطيرة من حياتها التي سيكون لها ما بعدها في تاريخ هذه البلاد الى قرون وأجيال ، وذلك للصراع الشديد الذي لا يزال قائما بين أنصار الدستور الاسلامي وبين أتباع الغرب المفتتين باللادينية الغربية . فقد كان المفصور له بطلا من أبطال هذا الكفاح وطودا من أطوار الحق وسندا يرجع اليه في المشاكل وحجة على الخصوم الجاحدين فانه مهما بلغ من جحود المعاندين وتعنت المكابرين ، لم يكن في مكتهم أن يردوا على السيد - رحمه الله ونصر وجهه يوم القيامة - في شيء من أمور الشريعة ، والقوم لا يتجرأون ، على كرمهم

(١) نقلنا هذه الترجمة عن حياة المؤلف رحمه الله تعالى عن مجلة المسلمون المجلد الخامس ص ٣٨٤ العددان الرابع والخامس ، محرم وصفر ١٣٧٦ / ١٩٥٦ وقد كتب هذه الترجمة الاستاذ مسعود الندوي رحمه الله فكانت ترجمة وافية لانها ترجمة تلميذ وفي لاستاذ عالم . نفعهما الله بواسع رحمته ونجراهما عن المسلمين أحسن الجزاء .
الناشر

للدين وبغضائهم للشريعة أن يحددوا بالشريعة علما ، خوفا من الشعب
المؤ من القوي ، وانما جل مناعهم المكابرة والتحريف . فكان دعاة الحق
والمدافعون عن مبادئ الاسلام يلتجئون الى السيد ويحتمون بعلمه
وشخصيته للرد على الجاحدين المتعالمين الذين يتكلمون في كتاب الله وسنة
نبيه ﷺ من غير ان يكلفوا انفسهم ان يصرفوا ولو سويعات من أوقاتهم في
دراسة اللغة الكريمة التي أنزل بها القرآن العزيز ونطق بها النبي
الكريم ﷺ .

فمن حق قراء « المسلمون » واخواننا في الاقطار الاسلامية ان يعرفوا
نظما من سيرة الفقيه الراحل وأعماله ومساهمته وجهوده المتواصلة المتابعة
للهوض بالامة الهندية المسلمة وترقية مستواها العلمي والادبي والخلقي .
ومن حق استاذنا على تلميذه الحفيظ أن ينوه بمآثره وجلال أعماله وخصائص
حياته التي يعرف منها ما لا يعرفه الا قليل من الناس .

ان الذين نعرفهم من رجال العلم الاسلامي والذين عرفناهم واتصلنا
بهم ودرسنا سيرهم وتراجهم من رجال الهند وباكستان ، تنحصر عظمتهم
ونبوغهم في ناحية دون ناحية أو عدة من نواحي الحياة وشعب العلم ،
ولكننا لا نعرف من بينهم من أخذ من كل شيء بقسط كالاستاذ سليمان .
تخرج السيد سليمان في دار العلوم التابعة لندوة العلماء على اساتذتها
ومنهم العلامة المحقق شبلي النعماني (١٢٧٣ - ١٣٣٢ هـ) . وجعل من
بعد ذلك يساعد الاستاذ النعماني في تحرير مجلة « الندوة » التي كان يرأس
تحريرها والتي كانت أم المجلات الاردية العلمية يومئذ . ثم عين مدرسا
للغة العربية في دار العلوم التي تخرج منها ، فظهر من كفاءته وملكوته
الادبية وتفنته في طرق التدريس ما أنطق الالسنة بالثناء عليه . فظل
كذلك زهاء ست سنين (١٩٠٦ - ١٩١٢) كتب خلالها في مجلة

« الندوة » مقالات تنبأت لكاتبها الشاب بنبوغ مأمول ومستقبل زاهر واتي
في حفل الادب العربي بالعجائب وخلف أثارا في القول المنظوم والمنثور مما
يعجز عن مثله نوابغ أدباء الهند وشعرائها . وما ظنك بهندي غريب عن
مهد العروبة والعواصم العربية ، تجود قريحته بمثل هذا القول المطبوع ،
وهو في عنفوان شبابه :

دين من القهوة الصهباء في الافق
والكاس تطفو به لا الشمس في الشفق
بل إنه برقع قان له شبة
والشمس وجه حبيب بالحجاب يقي
بل انما الشمس للصواغ بوتقة
قد زان عسجدها وانشج في طرق
بل انما الشمس من أعمارنا قتلت
يوما ، فسال دم جار من العنق
فذلك الشفق المحمر من دمه
وقبره ليله المستور بالفسق
« من قصيدة الشمس عند مغيبها »

ثم التحق بصحيفة « الهلال » الاسبوعية الزاهرة لابي الكلام - التي
لم تصدر صحيفة اسبوعية مثلها باللغة الاردية الى الآن - فعارض صاحبها
المبدع في اسلوبه وجعل ينشئ مقالات افتتاحية ، لم يعرف الناس من
كاتبها ، فتارة نسبها الى أبي الكلام ، صاحب الصحيفة
ورئيس تحريرها وأخرى عزوها الى السيد سليمان ، حتى ان المقالة
التاريخية (مشهد أكبر) التي ظهرت في « الهلال » بمناسبة قضية هدم بناء

الجامع في مدينة (كابور) والتي قامت لها البلاد وقعدت ما حاك وشيها ونسج بردها الا براع السيد سليمان الندوي . وبعدما تقلب المترجم في عدة وظائف رسمية بعد الانقطاع عن دار الهلال أسس جمعية دار المصنفين الشهيرة التي كان وصي بها أستاذه شبلي النعماني وعاجلته المنية دون ابراز أمنيته - أمنية تأسيس مجمع علمي - الى عالم الوجود . تأسس هذا المجمع العلمي - دار المصنفين - سنة ١٩١٥ م - ١٣٢٣ هـ في مدينة أعظم كره^(١) مولد الشبلي النعماني ومنبت أرومته فعكف السيد سليمان يتعهد الدار ويعتني بتدريب الشبان وتثقيف أحداث الكتاب وينشر نتاج قرائحهم بعد تهذيبه الى أن تكونت جماعة صالحة من أفاضل الكتاب والمؤلفين الذين وقفوا حياتهم لخدمة الدين والعلوم الاسلامية وما زالت تنمو هذه الجماعة ويكثر عددها وتتسع دائرتها حتى يمكنني الآن أن أقول أن الذين تخرجوا على السيد وتنقفوا على يده في « دار المصنفين » في الخمس وثلاثين سنة الماضية (١٣٣٤ - ١٣٧٠ هـ - ١٩١٦ - ١٩٥٠ م) هم أكثر عددا وأوفر مادة وأخصب نتاجا من المتخرجين في سائر الدوائر الاسلامية مجتمعة في هذه البلاد ، أقول ذلك ، ولا أبالغ ، وإنما ذكرته تحديدا بنعمة الله ، وعلى الفقيد رحمه الله ، وهذه مجلدات مجلة « معارف » الضخمة (لسان حال جمعية دار المصنفين) تكون مكتبة عظيمة بنفسها - وهي من أرقى مجالات الهند وأغزرها مادة بلا نزاع . ومصنفات السيد وزملائه اعضاء دار المصنفين وتلاميذه البارزين من الندويين والذين تخرجوا على أيدي تلاميذه ولا يزالون يستفيدون من دروسهم والحضور في مجالسهم العلمية ، وقد سارت سير الشمس واخترقت حدود البلاد ، وقد ترجم

(١) مدينة صغيرة من مدن مقاطعات الايالات المتحدة U.P. في شمال الهند .

كثير منها باللغات التركية والفارسية والانكليزية واللغات الهندية
الواسعة .

ومن أبرز أعماله العلمية وأرفعها ذكرا إكماله لكتاب (سيرة
النبي ﷺ) الذي كان بدأ بتأليفه أستاذ المحقق العلامة شبلي النعماني
وهذا الكتاب هو دائرة معارف في السيرة النبوية ، نشرت منه سبعة
مجلدات ضخمة لا يقل أحدها عن سبعمائة صفحة من الققطع الكبير وهذه
المعلمة من عيون ما ألّفه علماء الاسلام منذ قرون ومن غرر ما أهداه علماء
الهند الى المكتبة الاسلامية العامة ، وقد اشتمل المجلدان الأولان على
ترجمة حياة النبي ﷺ ، عني بتدوين معظمها المغفور له شبلي النعماني ،
الذي كان يعد هذا الكتاب خاتمة أعمال حياته . وكان جد حريص على
البحث والتنقيب والرد على مطاعن الافرنج . وكذلك كان يتأنق في
الكتابة ، حتى ان بعض قطع المجلد الاول تعد أحسن ما كتب كاتب
باللغة الاردية ، لغة مسلمي الهند وباكستان العامة . والمجلد الثالث
خاص بالمعجزات ، عني بتأليفه وتأليف المجلدات التالية السيد سليمان .
وفي المجلد الثالث مقدمتان علميتان من الوجهتين الفلسفتين : القديمة
والحديثة ، أثبت فيها المؤلف بما لا مجال بعده للشك ، امكان المعجزات
وعدم معارضة العلوم العقلية لها . وقد اهتمى بهما كثير من المنخدعين
بعلوم الافرنج وضلالاتهم . أما المؤلف نفسه ، فهو من بكل ما جاء به
النبي الامي ﷺ ، ايمان السلف الصالح من غير لجوء الى فلسفة أو تكلف
أو برهان . والمجلد الرابع يحتوي بحثا دقيقا في منزلة النبوة والفرق بينهما
وبين منازل الاصلاح والتجديد والزعامة وهذا البحث يسم نحو ٣٠٠
صفحة ، وهو من أحسن ما كتبه الاستاذ سليمان . ثم تكلم الاستاذ في
العقائد ولم يكن يستند في بحوثه الى شيء غير الكتاب والسنة . والذي

أعرفه من علمه وعلم معاصريه ، أنه ما كان يضاهيه أحد في الجمع بين أسرار الكتاب العزيز ومعرفة السنة النبوية والاطلاع على كتب العلماء الأقدمين . وجدير بالذكر أنه قد فاق أستاذه النعماني في الاطلاع على أسرار الشريعة واستكناه وجوه التأويل ومعرفة السنة النبوية . والمجلدات التالية الثلاثة تبحث في العبادات والاخلاق والمعاملات . وكل واحد منها معلمة في موضوعه ، يضيق بنا نطاق المقام عن سرد تفاصيل مواضعها مما يشهد بذلك المحققون المطلعون على أجزاء السيرة النبوية الأولى والثالية ، فهناك يبين الفرق بين الاستاذ وتلميذه ، ولا غرو ، فكم ترك المتقدم للمتأخر .

وله مصنفات علمية نافعة غير هذا الكتاب الضخم ، سارت سير الشمس كمحاضراته في السيرة النبوية المعروفة بـ (خطبات مدراس ^(١)) و (سيرة عائشة) و (أرض القرآن) و (العرب والهند) و (نحيام) وغيرها من آثار قلمه التي تفتخر بها اللغة الاردية . وقد بلغ في المواضيع المختلفة من التحقيق والاجادة ما لم يبلغه أحد من معاصريه في هذه البلاد ، وأضرب لك بمصنفه الشهير في جغرافية القرآن التاريخية المسمى (أرض القرآن) فقد تناول فيه بالبحث والتحقيق جميع البلاد والامم المذكورة في الكتاب العزيز وأحاط بتاريخهم وجغرافية أماكنهم التي كانوا يقطنوها . صنفه منذ أربعين سنة ، والموضوع يكر لم تطمثه أقلام الباحثين ، وقد نقل هذا الكتاب النافع - مثل بعض مؤلفاته الأخرى - الى اللغة الانكليزية ، وكذلك كتابه عن الشاعر الشهير الخيام ، يعد من أحسن ما ألف في هذا الباب على كثرة ما ألف في الموضوع ببلاد الغرب وقد شهد

(١) وهي التي تقدم للنشر باللغة العربية للمرة الثانية بعنوان الرسالة المحمدية ، النشرة الأولى في القاهرة عام ١٣٧٣ . وقد ترجمت الى الانجليزية واللغات الأخرى .

بذلك بعض كبار رجال الهند المطلقين على مصنفات الغرب في هذا الموضوع .

قلت ان « سليمان الندوي » لا تنحصر عظمتة في ناحية دون ناحية فإنه كان أديبا بين الادباء وسياسيا بين السياسيين وعالما بين العلماء وقانونيا - اي عالما بالقانون والدستور - بين علماء القانون والتشريع . وناهيك بمكانته في الاوساط السياسية الاسلامية العالمية . انه الرجل الحبير الذي انتدبته الهند الاسلامية بين آونة وأخرى لمخاطبة العالم الاسلامي وبعثته على رأس وفود مؤلفة من نخيرة رجال البلاد الى الحجاز ، فهو الذي رأس وفد الخلافة في المؤتمر الاسلامي العام المنعقد بمكة المكرمة سنة ١٩٢٦ م - ١٣٤٦ هـ ، وكذلك كان أحد أعضاء الوفد الاسلامي الذي سافر الى لندن وأوروبا ليبلغهم كلمة الهند الاسلامية في مسألة الخلافة ، وذلك سنة ١٩٢٠ الميلادية . اما أعماله وخدماته في المؤتمر الاسلامي بمكة المكرمة فذلك يفوق الوصف والبيان . فقد كان السيد همزة الوصل بين وفود الهند وفود البلدان الاسلامية الاخرى . واختير لنيابة رئاسة المؤتمر من بين رجالات العالم الاسلامي وعيون ساستها ، ولما أراد ملك الأفغان (نادر خان) - المعروف بنزعته الدينية السديدة - منذ عشرين سنة أن يؤسس جامعة علمية في عاصمة بلاده ، فانتدب ثلاثة من كبار رجال التعليم في الهند الاسلامية ليستشيرهم في الأمر ، ووقع اختياره - وهو من أبصر الناس بالرجال كما شهد له بذلك الدكتور محمد اقبال - على الاستاذ سليمان والدكتور محمد اقبال والسيد مسعود حفيد سيد أحمد خان الرئيس الاعلى لجامعة عليكرة وقتئذ .

وثم شيء اذكره وفاء بالموضوع وأداء لامانة الترجمة . وذلك أن استاذنا كان من أول عهده بالبحث والتحقيق محققا في الفقه لا يتقيد بمذهب

- كما صرح بذلك في مقدمته لكتاب (تراجم علمائني حديث هند) -
سلفي النزعة في العقائد ، يؤمن كما آمن السلف الصالح من غير تكييف
ولا تعطيل . وما زال يكتب ويحاضر متشبعا بهذا المنهاج الفكري الى أن
أرعى على الخمسين من عمره . ثم جعل يميل شيئا فشيئا الى التنسك
والتصوف الى أن انخرط في سلك إحدى الطرق الصوفية وباع بالطريقة
قبل ثلاثة عشر عاما . فمن ذلك اليوم بدأت تظهر آثار التدرج نحو الحنفية
والتصوفة في كثير من المسائل . وكذلك تغيرت وجهة نظره في كثير من
المسائل المستحدثة والمشاكل الجديدة المتنوعة . فمن تلاميذه من لا يزال
على طريقته الأولى ، طريقة السلف الصالح التي لا تشوبها كدرة ولا
غبار . ومنهم من استأنس بسلوكه الجديد ومنهاجه الأخير ولم ير بذلك
بأسا بل منهم من ازداد ميلا اليه وحبا له بعد انخراطه في سلك الطريقة
الصوفية . وللناس فيها يعشقون مذاهب .

وبعد ، فقد كان السيد سليمان عملا دائما وجهدا متواصلا وسعيا
متابعا طوال الخمسين سنة الماضية لم يعرف فيها الراحة او الكسل ، ولم
يلق حلاوة الانزواء أو مرارته ، وإنما كان حركة دائمة مشغورا طوال حياته
فتراه مشتغلا ببحث أو تحقيق دائما ، لا يفتر عنه طرفة عين . رأيت كذلك
قبل سبع وعشرين سنة ، وهو يتمتع بصحة جيدة ، ووجدته كذلك قبل
سنة ، وهو شيخ بلغ السبعين ، أنهك المرض قواه الجسدية وجعلته قلة
النوم والانقطاع الى العبادة في الليالي في غاية من الضعف . فكان البحث
العلمي والتحقيق والتأمل الدقيق قد أصبح له سجية . وعلاوة على كل
ذلك فقد كان رجلا ذا مروءة غربية ، كريما يجري الكرم في دمه ، لا
يغضب ولا يسخط ، يصفح عن عدوه ويدعو لمن يتناوله بالسوء . أما
التلاميذ والمخلصون ، فيشملهم بعطفه الأبوي ويسلط على كل فرد منهم
ظلال شفقتة وحنانه ، كأنه قد منح في هذا الشأن لمحة من مسيرة جده

الكريم ﷺ . أقول ذلك عن تجربة شخصية ومعرفة ذاتية . واكتب هذه
الكلمات ، والعين ملؤها الدموع ، أسفا وحسرة .

فوداعا أيها الأستاذ الراحل ! نم ، في جوار الله وكنفه ، نصر الله
وجهك يوم القيامة وأعلى مقامك بين الأبرار الصالحين .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وصلّى الله وسلّم على سيدنا محمد رسول الله إلى الخلق ،
برسالة الخير والحق ، وعلى آله وصحبه والتابعين لهم بحمل أعباء
رسالته إلى يوم الدين .

وبعد فإن الأخوة التي عقدها الإسلام بين أهله من أعظم ينابيع
القوة للحق وأوليائه . والخطوات الأولى لتحقيق هذه الأخوة التعارف ثم
التعاون . وقد كان كابوس الاستعمار - الذي جثم به طغيان الغرب على
صدر الشرق مدة غفلته عن مصائر قوته - قد أقام الحدود والسدود
والقيود ليحول بين المسلمين وبين أن يتعارفوا فيتعاضدوا فيتمكنوا من
تجديد أواصر الأخوة الإسلامية بينهم . فلما أراد الله بالمسلمين خيرا ،
وكان سبيل المسلمين إلى أن يزيلوا ذلك الكابوس عن صدورهم بتجديد
قواهم أطول من أن يصبروا إلى أن يبلغوا نهاياته ، فقد يسر سبحانه
لهم طريقا آخر أقصر ، وهو أن يجعل بأس المستعمرين بينهم ، فيحقق
زوال ذلك الكابوس بإضعاف الطاقة الذين تحكموا في الأرض وسلبوا
أهلها حريتهم وإنسانيتهم . وإن الحربين العالميتين الأولى والثانية قد
شلت كل منهما من قوى الغرب ما مهد الله به السبيل إلى قيام دولتين
إسلاميتين عظيمتين في الشرق الإسلامي ، وهما دولة باكستان ودولة
اندونيسيا ، كما أقام للعروبة في مهدها وفي أوطانها حكومات لم تكن من
قبل . وإذا أحسن المسلمون شكرهم لله على هذه النعمة بحسن
استعمالها ، وإذا قام فيهم العاملون على إرجاع شعوب الإسلام إلى ربها
بعد أن نسيت مكانها منه ، يوشك أن يعود إلى الشرق الإسلامي ما فقدته

من قوته وحيوته وعظمته وطاعته لله بإقامة الحق والتهوض من
مزلق الباطل^١.

ومن أعلام الشرق الإسلامي الذي جعلهم الله في عصرنا من
ورثة الأنبياء في مهمتهم والعمل برسالتهم علامة مسلمي الهند وشيخ
علمائها مولانا السيد سليمان الندوي بارك الله للمسلمين في حياته
ووفيقهم لالتفاف بعلمه . وقد رأى وفد الإخوان المسلمين الذي شهد
مؤتمر الشعوب الإسلامية في كراتشي في شهر شعبان من العام الماضي
أن من وسائل توثيق الأخوة الإسلامية وتحقيق التعارف الإسلامي
والتعاون بين المسلمين على الخير أن تلقح ألباب الشباب في كل أمة
إسلامية بعلوم الأئمة الأعلام في الأمم الشقيقة الأخرى ، لتتخطم بذلك
تلك الحدود والسدود والقيود ، ويتلمذ الشباب الإسلامي كله على
اختلاف أوطانه وأمهه ، لأئمة المسلمين كلهم على اختلاف أوطانهم
وأممهم ، ويدافع من هذه العقيدة التمس وفد الإخوان المسلمين في ذلك
المؤتمر من أستاذنا العلامة السيد سليمان الندوي أن يأذن له بنشر ما
يختاره من مؤلفاته بين الناطقين بالضاد من شباب المسلمين فاستجاب
حفظه الله لهذه الرغبة وقدم له هذا الكتاب النفيس الذي يمتاز على كل
ما نشر بالعربية من الكتب العصرية في السيرة المحمدية . بما تعرض
له من مقارنات وملاحظات وتوجيهات قد نبخسها حقها إذا حاولنا
التعريف بها في هذه المقدمة ، فنترك ذلك للقارئ فإنه سيجد من هذا
الخبر أضعاف ما نستطيع الإشارة إليه هنا لو أردنا ذلك .

وهذه البحوث التي استعرضها السيد سليمان الندوي في هذا
الكتاب ألقاها في ثماني محاضرات على جماهير من شباب الإسلام
والطلبة الجامعيين منهم ومن غيرهم . وكان سبب إلقائها أن جامعة
مدراس كانت قد أباحت لبعض أحرار المسيحية من الأمريكيين وغيرهم
إلقاء محاضرات في البحوث التي وفقوا حياتهم عليها ، فأراد بعض

^١ كان أستاذنا رحمه الله عظيم التفاؤل ، ولكن هذه الدول جميعا لم تكن قد
تحررت من الاستعمار تحررا حقيقيا ومازالت للدول الاستعمارية الكلمة -
حيث لم يكن قادة المسلمين قد أخرجوه من صدورهم .

مسلمى مڈراس أن يساهم المسلمون أيضاً فى مثل هذا من الناحية التى يؤمنون بها ويرجون تعميم خيرها . فدعوا أستاذنا لإلقاء هذه المحاضرات ، وكان لها وقع عظيم فى النفوس . والسيد سليمان الندوي مع سعة علمه ، ومشاركته فى أهم المعارف البشرية ، ومعرفته بلغات متعددة ومنها العربية ، فإنه معدود من أئمة البلاغة باللغة الأوردية التى هى ' من أوسع اللغات الهندية نطاقاً ، وأوفرها ثروة ، وأعذبها بياناً ، وأقربها إلى العربية صوتاً وخطاً وهى تسامى أرقى اللغات العالمية ' كما يقول الأستاذ الفاضل السيد محمد ناظم الندوي رئيس الجامعة العباسية ومترجم هذه المحاضرات النفيسة بالعربية ونحن بتقديمنا هذا الكتاب من مؤلفات كبير علماء مسلمى الهند إلى قراء العربية من مسلمى مصر وغيرهم ، نحاول أن نساهم فى تحقيق أخوة الإسلام التى أرادها الله للمسلمين ، وذلك بأن يتذوق شبابنا حلاوة الحكمة من لسان هذا العلامة الحكيم ، وأن ينتقل قرائنا بروحه إلى المجتمع المبارك الذى ألقى فيه السيد سليمان الندوي هذه المحاضرات ، فيتصور أنه كان من شهود إلقائها ، وأنه يستمع إلى ما جاء منها من حقائق كائنه صائر من صوت هذا الإمام الجليل ، ليكون لنا كما هو لإخواننا مسلمى القارة الهندية ، ونكون نحن معهم لأن الله ربط بيننا وبينهم أصرة الأخوة بالرسالة المحمدية ، رسالة الإنسانية العليا . ومن الله نستمد العون .

محب الدين الخطيب

دار الفتح
بجزيرة الروضة بالقاهرة
١٢ ربيع الأول ١٣٧٢ هـ

المحاضرة الأولى

في أن سيرة الأنبياء عليهم السلام هي الأسوة بحسنة للبشر

هذا العالم - وإذا سمينا « المتحف الأعظم » لم نعد الحق ، ولم نرتكب الشطط - يحتوي على أنواع من المخلوقات : ففيه ما شئت من جماد بديع الألوان ، غريب الهيئات . وما يقع عليه نظرك من نبات بين الأخضر ناضر ، وأصفر قاقع ، وأحمر قان إلى غير ذلك من شتى الألوان . وفيه ما يخطر أو لا يخطر على بالك من حيوان لو حاول أحدنا أن يحصي أنواعه لأعياء ذلك . ومن أنواعه نوع عجيب يفوق سائر الأنواع في هيئته ، ويفضل عليها بعمله ونشاطه ، وهو الإنسان .

هذا إذا نظرنا إلى العالم بعين من لا يتبصر بحكمة ولا يتدبر بعلم . أما الحكيم الذي ينعم النظر في الأشياء ، والعالم الذي يحسن التأمل في ملكوت الله ، فيبدوا لهما من الفوارق بين المخلوقات ما يتميز به كل نوع عن غيره ، ويكتشفان في كل شيء الخصوصية التي يمتاز بها ولا توجد في الأشياء الأخرى لأن الباري العظيم لما صور هذه المخلوقات اختص كلا منها بخصائص ، وأودع فيها من القوى ما امتاز به بعضها عن بعض . ومن هنا كانت هذه المخلوقات على غير أطراد في الطبائع والمواهب ، فتراها تتدرج وترتقي - من أدنى إلى أعلى - على مدارج في الشعور والادراك والارادة . وإن أول الجهاد وهو الهبأة - أو الذرة كما يسمونها اليوم - لا تجد فيها أثرا للحياة : من الشعور ، والادراك . ومن الجهاد ما تلمح فيه أمارة خفيفة من أمارات الحياة . أما النبات فإن أمارات الحياة بارزة في ثمائه وأنخضراره ، بيد أنه في درجة الصفر من حيث الشعور

والادراك . بينما نجد في الحيوان - مع الاحساس والشعور - ارادة قوية تجعله على الحركة : في القعود ، والنهوض ، والمشي . وللانسان إحساس تام ، وادراك كامل ، وإرادة بالغة ، وعزيمة ماضية . وإلى هذه القوى الانسانية - من شعور تام وإدراك كامل وإرادة قوية وعزيمة صارمة - يرجع تكليف الانسان ، ومن جراء ذلك قد حمل أقال الفرائض واعباء الواجبات . وكلما كان نوع من أنواع المخلوقات أقل نصيبا من هذه القوى الموهوبة له من الله ، كان أخف عبئا في المسئوليات ، وأقل واجبات في مناط التكليف . فالجهد ليس عليه واجب قط ، والنبات قد نال نصيبا من صفات الحياة فأصابه حظ من الواجبات ، أما الحيوان فأكثر حظا وأوفر نصيبا من الجهد والنبات في القوى الحيوية ، فتقلت عليه أعباءه من واجبات الحياة وتكاليفها . ولما كان نصيب الانسان من العقل والمدارك ، ومن الذكاء والفطنة ، أوفى من سائر المخلوقات وأوفر ، فقد ازدادت تكاليفه وواجباته بنسبة ذلك وتفاوتت الواجبات والتكاليف بين أفراد بني الانسان بحسب تفاوتهم في مناط هذه الواجبات والتكاليف ، أعني العقل والمدارك : فالمجنون والمعتوه والأحمق والصبي لا يطالبون بما يطالب به العاقل الفطن والعالم المثقف ولا يستطيع أولئك أن يقوموا بما يستطيع أن يقوم به هؤلاء وكل ذلك يرجع إلى تفاوت القوى الباعثة على العمل : بين شعور ناقص أو احساس كامل ، وخود الطبيعة أو توقد القريحة . بل منهم من لا يكلف بواجب قط ، ومنهم من يكلف ببعض الواجبات دون بعضها الآخر ، ومنهم من يضطلع بالعبء الأعظم من الواجبات والتكاليف .

ثم إذا تأملنا المخلوقات وأنعمنا النظر فيها يبدو لنا أنه مهما يكن عند مخلوق من شعور ناقص أو احساس ضعيف أو ادراك ضئيل ، فإن القدرة الالهية قد تتولى تربيته وترعى نشأته وتختصه بعنايتها ، حتى إذا امتازت

صفاته وارتقت مميزاته فوّضت اليه الفطرة من أمر نفسه ما تحتمله قواه وتستحقه مواهبه . ليس من مواهب الله لبعض أصناف الحجر أن تتحول في جبالها ومعادنها إلى ياقوت وزمرد ، وصار لها هذا البريق الذي تتلأأ به أحجارها بينما باتت الأحجار الأخرى المجاورة للياقوت والزمرد محرومة هذا الجمال الذي يأخذ بالعيون والصفات التي تحير الألباب . ومن ذا الذي يغذو الحيتان في أعماق البحار ، والحيوانات في الأجام والصحاري القاحلة ؟ ومن ذا الذي يشفي الحيوان إذا مرض ، ويقيه عوادي الحر والقر في شهور القيظ وليالي الشتاء ؟

من جراء ذلك نرى هذا الاختلاف البادي في صور أفراد نوع واحد من الحيوان ، وهو يرجع الى عوامل مختلفة : من برودة الجو ، وحرارة البيئة ، وطبيعة المناخ . فالكلب الأوربي يختلف عن الكلب الأفريقي بقدر ما بين بلاديهما من اختلاف في الجو والبيئة ، فتختلف بسبب ذلك حاجتهما ، وتتباين لوائز حياتهما . وقد هيأت الفطرة الإلهية لكل منهما أسباب العيش ولوائز الحياة التي تلائم طبيعته وتقضي بها حاجاته . فلكلب الأوربي ما ليس لأخيه الكلب الأفريقي من القسوة والأثيث الصافي . وهكذا ترى الفرق جليا بين الحيوانات الشرقية والحيوانات الغربية في فرائها وشعورها وأوبارها وبرائنها ومخالبها وأظفارها ، بل ترى الفرق أوضح وأجل في سحنها ووجوهها وهيئات جلودها . ومرد ذلك إلى حكمة خالقها الحكيم المدبر ، العليم بكل مخلوق وما يحتاج اليه في غذائه وبقائه ولوائز حياته .

لقد تبين مما تقدم ان الخالق القيم جل جلاله تكفل بحاجات مخلوقاته المسلوقة الاحساس والشعور ، وأن المخلوقات التي رزقت الشعور والاحساس قد وكلت اليها الفطرة الإلهية أمر السعي لتحقيق حاجاتها

على قدر ما هي حاصلة عليه من الاستعداد الفطري لذلك ؛ فالإنسان مكلف بالسعي في أسباب رزقه ومتاع حياته ، وهو يلقي من التعب والعناء ما يلقي في التجارة والزراعة والصناعة وغير ذلك من وسائل الكسب . وليس لجسم الإنسان من الفرو الصافي والجلد المتين ما يدفع عنه عواذي البرد القارس والحر اللافتح ، لذلك هو مضطر إلى أن يعد بنفسه ما يقي جسمه حرارة القيظ ولوايح السموم ، وبرودة الشتاء وسوانع الزمهرير ، فيصنع مختلف الثياب المناسبة لكل جو ، ويعالج ما يصاب به من أمراض بما هداه إليه ادراكه من عقاير وأدوية ووسائل .

ومن كان من المخلوقات أقل نصيباً من الادراك ، وأضعف حيلة في الحصول على متع الحياة وأسباب العيش ، تداركته الفطرة الالهية فمُنحته في نفسه وجسمه من أسباب الوقاية وأسلحة الجوارح ما يدفع عن نفسه عادية الكون ومخلوقاته ويسرت له به سبل العيش ؛ فمن الحيوانات ما وهبه الخلاق العظيم غالب قاطعة وبرائن مرهقة ، ومنها المسلح في فمه بأسنان مفترسة ، ومنها ذوات القرون ، وذوات الأجنحة ، والسوايح في اليم ، والمدافعة عن كيانها بالحمة السامة ، إلى غير ذلك من الأسلحة والجوارح التي عوض الله بها لبعض خلقه عما فقدته من نعمة العقل ونور البصيرة ومذاهب الرأي . أما الإنسان المجرد من مثل خرطوم الفيل ، وقرن الثور ، وسم الأفعى ، وحمّة العقرب وسائر أسلحة الدواب والهوام ، فكان لذلك أعزل ضعيفاً ، إلا أنه قد أوتي من العقل الكامل ، والشعور الشامل ، والحس المرهف ، والفهم الثاقب ، والبصيرة النافذة ، ما لم يؤت أحد من خلق الله مثله . وهذه المواهب التي امتاز الإنسان بها على سائر المخلوقات تغنيه عما فقدته من القوى الجسمية التي امتازت عليه بها الحيوانات القوية ، فاستطاع أن يسخر الفيل العظيم

الهيكل ذا الخرطوم الطويل ، وأن يستذل الأسد الضاري ذا البرائن الحديدية وأن يقبض على الأفعى النائرة ، ويصيد الطيور المحلقة في جو السماء ، بل صار لا يعيه حوت في لجج البحار الزاخرة ، ولا وحش غابة كثيفة من الوحوش المفترسة الكاسرة . لأنه قد اخترع بمواهبه العقلية أسلحة فاق بها على أسلحة سائر المخلوقات مجتمعة بلا استثناء .

سادتي : لا بد لكم أن تعترفوا - على اختلاف أديانكم ، وتباعد أوطانكم وتنوع نزعاتكم وأفكاركم - بأن الإنسان قد انتهالت عليه الواجبات وتعددت المسؤليات بسبب ما امتاز به من عقل راجح ورأي حصيف وفكر ثاقب وفقه لطيف . وهذه الواجبات والمسؤوليات تسمى بـ « الكلفة » وهي موجهة إليه من ناحية قواه الظاهرة والباطنة ، وكان الإنسان قد خاطب الفطرة الإلهية بلسان مواهبه وقواه أن تفرض عليه عملاً ، فكان يسببها مكلفاً بهذه الواجبات التي عملاً وسعه وتتناسب مع طاقته ، قال الله عز وجل (لا يكلف الله نفساً إلا وسعها) (البقرة ٢٨٦) . وعبر سبحانه عن هذا التكليف بالأمانة في قوله (إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا) (الأحزاب ٧٢) . ولا يتصف بالظلم والجهل إلا المكلف بالعدل والعلم ، والظلم والجهل من نعوت الإنسان لا ينعت بهما غيره ، لأنه لم يكلف بالعدل والعلم إلا هو . فهاتان الصفتان من صفات الإنسان : الأولى ضد العدل ، والأخرى ضد العلم . وذلك لا يوجد إلا في الإنسان ، فالظلم تعدّي الإنسان حدوده واستعماله قوته الظاهرة العاملة في غير محلها . والجهل نقص يتطرق إلى الإنسان من جهة قواه العلمية . والظلم بقباله العادل والجهول بضاده العالم . والعدل والعلم يتصف الإنسان بهما بالقوة لا بالفعل ، فيحتاج

الى العدل لتكميل قوته العملية ، وإلى العلم والمعرفة لتكميل قوته العلمية . والقرآن الحكيم قد يسمي العدل بالعمل الصالح ، والعلم بالآيمان . قال الله عز وجل : (والعصر ، إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ، إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ) فمن لم يعمل صالحا فقد ظلم نفسه ، ومن لم يؤمن بالله فقد جهل . ولا ينجو من الخسران إلا من آمن وعمل صالحا . وقد أشهد الله الزمان على خسران الانسان . ومن الظاهر البين أن المراد بالزمان الحوادث التي حدثت فيه منذ بدء العالم ، وقد صدق كارليل في وصفه التاريخ بأنه « سجل لأعمال العظماء وسيرهم » ، وتاريخ العالم أصدق شاهد على أن كل أمة لم تؤمن بالله ولم تعمل صالحا بأنها قد خسرت وهلكت ، وكذلك الأفراد الذين لم يؤمنوا بالله ولم يعملوا صالحا أنهم قد خسروا وهلكوا . والصحف السماوية والأسفار القديمة ملأى بأن الظلم والجهل ما وجدا في بيثة إلا جراً عليها الخراب والدمار ، والعدل والعمل الصالح ما وجدا في أمة إلا نتج عنها الحياة والعمران . وتقص عليك هذه الكتب وغيرها أنباء الذين آمنوا وعملوا الصالحات كيف افلحوا وعمروا الدنيا ، وأخبار الذين طغوا وبغوا كيف بادوا وهلكوا وذهبوا أحاديث تروى ، وتفرقوا أيدي سبا ، فلم يبق لهم إلا أثر بعد عين . وتثني هذه الكتب على الذين قاموا أحسن قيام بالواجبات المكلفين بها من قبل فطرتهم فأدوا ما عليهم منها خير أداء ، كما تنم الذين أمملوا فرائضهم ونبلذوها وراء ظهورهم . وحتى الألياذة والشاهنامة ومهابراته ورامائن وغيتا ، كل هذه الأسفار ، تقص علينا أخبار الأمم الذين خلوا من قبل ، وتحدثنا بما وقع من القتال بين الظالمين والعادلين ، وبين الكافرين والمؤمنين ، وفي ذلك عبرة لأولي الأبصار ممن يعتبرون بتجارب الأمم فينتهون عن الظلم والشر ، ويرتدعون عن الكفر والشرك ، ويقيمون الحق ويتواصون بالخير ويعملون صالحا .

أليست سور القرآن الحكيم وأسفار التوراة والانجيل ملأى بالقصص مسجلة بأن كل أمة آمنت وعملت صالحا وعدلت في الحكم وجاءت بالحسنة قد أفلحت ونجت وسعدت ، وكل أمة ظلمت وكفرت بأنعم الله وركبت هواها وعدت طيرها وتعذت الحدود الفطرية قد هلكت وانقرضت دولتها وتقوض صرح مجدها . ان في بعض آيات كتاب الله قصة مؤمن عادل صالح ، وفي البعض الآخر منها قصة لظالم طاغ : كل ذلك ليرتدع الطاغية عن طغيانه ، ويكف الفاسق عن الفسق ، وينتهي الظالم عن الظلم والبغي ، فيعودوا جميعا الى الرشيد ويكونوا عادلين مؤمنين صالحين .

لأجل ذلك بعث الله الأنبياء والرسل - قبل محمد ﷺ - الى كل بلد ، بل الى كل قرية ، ليكونوا بسيرتهم الصالحة المستقيمة أسوة لأمتهم ، فتتبع الشعوب التي بعثوا اليها السنن التي بسنونها لأفرادهم وجماعاتهم فيستقيموا ويفلحوا جميعا ، أو تهتدي بهدي الأنبياء والرسل طوائف من قومهم على الأقل فيواصلوا الدعوة ويسيروا في طريق الحق . وقد بعث الله الى الانسانية خاتم رسله محمدا ﷺ بشيرا للناس كافة ونذيرا ، وداعيا الى الله باذنه ورحمة للعالمين ، لتكون لهم فيه أسوة ، ويكون لهم من حياته الشريفة قدوة ، ثم يكون مثالا أعلى للذين يأتون بعده الى أن تقوم الساعة . وقد جاء في القرآن الكريم على لسان نبيه ﷺ (فقد لبثت فيكم عمرا من قبله ، أفلا تعقلون) (يونس ١٦) ، وذلك أن الرسول ﷺ ولد فيهم ، وترعرع بينهم ، ونشأ أمام أعينهم ، وعاش بين ظهرانيهم برهة من الدهر قبل بعثته ، فعرفوا أخلاقه كل المعرفة ، وجرّبوا عاداته وأعماله ، فهو لم يكن فيهم غريبا ولا خائلا ولا مجهول الأحوال . والوحي الإلهي في هذه الآية يقدم حياة الرسول وسيرته الطاهرة قبل البعثة

دليلاً على نبوته ﷺ وأن رسالته هي من عند الله العظيم ليؤ من به العرب ويصدقوه فيما يخبر به أو يدعو اليه ، فانهم قد علموا مصيحه وممسه ، واختبروا اخلاقه وعاداته من صباه ونعومة اظافره الى أن شب واكتهل وأعلن نبوته وخرج الى الناس بدعوتهم برسالة الاسلام .

لقد مضى في سالف الأيام كثير من العظماء دعوا الناس الى ان يقتدوا بأخلاقهم وأعمالهم ، منهم ملوك جبابرة عاشوا في قصورهم الشاذة بين نعمائهم وجلسائهم وملأوا القلوب مهابة وجلالة ، ومنهم قادة جيوش عاشوا بين ضباطهم وجنودهم يرهبون الناس ويخيفونهم بشدة بأسهم وضخامة أجسامهم ورواء هندامهم ، ومنهم حكماء وفلاسفة كانوا إذا نطقوا أبانوا ، وإذا خطبوا ابدعوا ونشروا من دُرر الحكمة ما شاءت بلاغتهم وطلاقة ألسنتهم ، فملكوا القلوب وبهروا النفوس . وتسرى بجانب هؤلاء طائفة الشعراء ممن إذا أنشدوا أطربوا ، وإذا رتلست أناشيدهم غلبوا السامعين على أهوائهم ولعبوا بالقلوب كيف شاؤوا . وقد خلا كثير من الفاتحين الذين دوخوا البلاد واستولوا على الممالك ، كما مر في مواكب التاريخ كثير من الثرين والأغنياء الذين كانت أقدامهم تطأ البسط الناعمة والزراعي الوفيرة ويمشون على الحرير الفاخر والاستبرق الزاهر ، اكتنزوا القناطير المقتطرة من الذهب والفضة ، واسترعوا أنظار بني آدم بما كانوا فيه من ترف وعظمة وسعة . وقد كان هنيئاً لقرطاجني والإسكندر المقدوني وقيصر الروم ودارا الفارسي ونابليون الفرنسي يملأ كل منهم عيون بني آدم بعظمته وأحداث حياته ويختلف أعماله ، وكذلك نجد سقراط وأفلاطون وديوجنس وغيرهم من حكماء اليونان وغير اليونان مثل سبنسر وأضرابه تجتذب سيرتهم النفوس وتروق القلوب ، وإن اختلفت مظاهر عظمتهم عن مظاهر عظمة الآخرين ممن ذكرت أسماهم قبلهم .

فهل ترى في حياة هؤلاء وأولئك ما يضمن فلاح بني آدم ؟ ومن منهم
تؤدي سيرته ودعوته الى صلاح الانسانية وسعادتها ؟

إن في هؤلاء وأولئك لقادة فتحوا البلاد ودونخوا الممالك واقتحموا
أقصى الأرض وادناها ، وذلّلوا ما اعترض سبيلهم من صعاب ، وسخروا
الملوك بظلي سيوفهم . ولكن من منهم ترك لمن أتى بعده أسوة ياتسي بها في
تعميم الخير ، ومن منهم إذا اهتدى الناس بهديه ينجون من المهالك
ويسلكون سبيل السعادة والهناء ؟ ومن من هؤلاء استعملوا سيوفهم
البواتر في قطع حياثل العقائد الفاسدة ، وتخليص العقول من الأوهام
الواهية والأفكار الباطلة ؟ ومن منهم وقف حياته على حل معضلات بني
آدم ، وكان حريصا على عقد أواصر الاخاء بينهم على الحق والتواصي في
الخير ؟ وهل يوجد في حياة من ذكرنا من هؤلاء العظماء ما يستعين به بنو
الانسان على تخفيف ما يعانونه من الغمرات في حياتهم الاجتماعية ؟ أم في
أخلاقهم وأعمالهم ما يسر للانسانية الشفاء من أمراضها الخلقية وأوصابها
النفسية ؟ أم في دعوتهم ما يجلو صدى القلوب ويرينها ، أو يرتق فتقا في
الحياة الاجتماعية ؟

لا شك أن الشعراء نالوا إعجاب الناس باناشيدهم الرنانة ، وملكوا
النفوس وتصرفوا فيها بشعرهم البليغ وقصائدهم الغر . ولكن هل نفخوا
الانسانية وهم يبيعون في أودية الخيال ؟ كلا ، ولذلك لم يكن لهم في
جمهورية افلاطون نصيب ولا منصب . والشعراء - من هوميروس الى
امريء القيس فمن بعده من شعراء الأمم - لم يكن منهم إلا اثاره كامن
العواطف وتنبيه النائم من الأفكار ، أو إحداث لذة أو ألم في النفوس .
ولا ينتظر منهم أن يحلوا معضلات الحياة الانسانية ، وعويصات
مشاكلها . وسبب ذلك أنهم في سيرتهم وأعمالهم لا يقدمون للناس المثل

التي تحتذى ، والأسوة التي يقتدى بهم فيها . ولقد وصفهم القرآن الكريم الحكيم أصدق وصف عندما ذكر سيرتهم بقوله (والشعراء يتبعهم الغاؤون ، ألم تر أنهم في كل واد يهيمون ، وأنهم يقولون ما لا يفعلون ، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات) الشعراء ٢٢٤ - ٢٢٧ . وبهذا سجل القرآن الحكيم على الشعراء أنهم لا يؤثرون بشعرهم اللطيف الحلو على المجتمع البشري ، لأنهم يهيمون في أودية الأفكار والعواطف بلا إيمان ولا عمل صالح ، ولو اجتمعت لهم هاتان الخصلتان - الإيمان والعمل الصالح - لكان لشعرهم اثر بارز في المجتمع البشري وعلى كل فأنهم ليسوا من الاصلاح في شيء ، ولا الاصلاح من شأنهم ، ولذلك لا يقدرون على القيام بمهمة اصلاح العالم ، وقيادة الناس الى الرشاد الكامل والفلاح الشامل ، ويشهد على صدق هذه الحقيقة تاريخ الامم في غابرها وحاضرها .

وكذلك نرى الفلاسفة والحكماء يهروا عقول الناس بفلسفتهم ، وحاولوا تغيير تيار الحياة البشرية فعرضوا على الناس من طريف الافكار ومستحدث النظريات ما حير العقول وأدهش النفوس لكنهم لم يقدموا للناس من سيرتهم أسوة يؤتسى بها ، ولا أناروا ظلمات الحياة بقبس من اعمالهم تنضج به مشاكل الإنسانية فتتمكن من حل معضلاتها . وهذا أرسطو قد وضع في فلسفة الأخلاق قوانين أسس بنيانها ووطد أركانها ، ولا تزال الجامعات وأساتذتها عاكفين على دراستها : يلقون المحاضرات على طلبتهم في فلسفته ، ونسمعهم يشنون على ثقوب فكره وبعد نظره وحصافة رأيه ورجاحة عقله ، ولكننا - والحق يقال - لم نجد رجلا اهتدى بدراسة فلسفة أرسطو أو وصل بها الى السعادة المنشودة .

وكذلك نرى في الكليات أفاضل من العلماء وفحول الاساتذة

والمدرسين يعجب الطلبة فصيح كلامهم وبراعة بياضهم وبلغ حوارهم وعذب حديثهم ، وهم يؤثرون فيهم بذلاقة السنتهم ، واتساق أفكارهم ، وترتيب معانيهم . لكنهم لا تعدو محاضراتهم جدران كلياتهم وقاعات محاضراتهم ، وإذا خرجوا منها أصبحوا كعامة الناس لا يمتازون عليهم بعمل تتخله الانسانية مثالا يحتذى ، ولا يخلق يختلفون به عن غيرهم هديا وسمتا .

لقد رأينا على مسرح العالم كثيرا من الملوك الجبابرة الذين جكموا العالم واستولوا على الممالك ، واستعبدوا الأمم . وكم من أرض عمروها ، ومدينة دمرها ، وكم وضعوا شعوبا ورفعوا آخرين ، وكم سلبوا ومنحوا ، وضروا ونفعوا فكانوا في سيرتهم كما قال الله عز وجل على لسان ملكة سبا (إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة) « النمل ٣٤ » . نعم إن السيوف البواتر في أيدي بعض الملوك قد قلقت الرعب في قلوب المجرمين فكفوا عن اقتراف الجرائم علانية وفي وضوح النهار مستترين وراء مكان من الريب أو قابعين في بيوتهم . لكن سيوف الملوك عجزت عن أن تستل الرذائل من قلوب أهلها ، وأن تحسم مادة الشر في نفوسهم ، وأن تطهر صدورهم من فساد السرائر ، ذلك الفساد الذي يحمل أهله على ارتكاب المعاصي واقتراف السيئات . وأقصى ما يترتب على رهبة المجرمين والمرجفين من سيف الملوك المسلط عليهم أن يسود الأمن والسلام سبل البلاد وأسواق المدن وشوارعها وحاراتها ، أما إصلاح القلوب وتهذيب النفوس فما يخرج عن سلطان السيف وتعجز عنه أرادة الطغاة . بل الحق - والحق أحق أن يقال - أن رأس كل شر إنما نجم من قصور بعض الطغاة . وإن كل فساد نبت نابتة في فناء حصونهم ، بل في قصورهم نبتت عيون الفواحش والجرائم ، ومن

حسوتهم انفجرت ينابيع الظلم والعدوان ، وعلى أيديهم تفاقم كل شر ، ومن أخلاقهم سرت العدوى إلى أخلاق الناس . ولفساد قلوبهم وسوء أعمالهم اتسع الخرق على الراقع حتى أعيا الأطباء داء المجتمع البشري . وهل خلف لنا الاسكندر المقدوني وقيصر روما الأعظم مثالا من أعمالهما يصلح المجتمع إذا اقتدى به وسار على أثرهما فيه ؟

وهل نالت حظا من البقاء والدوام أية سنة سنّها عظماء المفكرين للمجتمع البشري من أمثال سولون وغيره من واضعي الشرائع التي يعتبرونها عادلة قيمة ، مع أنهم أبدعوا فيها ما شاءت لهم أفكارهم الثابتة وأنظارهم البعيدة وقرائحهم المتوقدة . ولو سأل سائل عن تلك الشرائع القيمة والقوانين العادلة كم استمرت ؟ لما استطاع أحد من أتباعهم وأنصارهم إلا أن يعترف بأن بقاءها كان قصير الأمد وأن نقادها أكثروا من نقدها ، بل شك حتى أتباعهم وأنصارهم في نصيح أولئك المفكرين ونقاء سرائرهم وصفاء قلوبهم وفي إخلاصهم للإنسانية وللإنس جميعا ، لأنهم لم يجدوا فيها الحياد الصادق والنصفة المحضة والعدل الصريح وبراءة الذمة من المحاباة ومن جراء ذلك نشأ بعدهم قوم آخرون نبذ حكماتهم تلك الشرائع ومحوها كما يحو المصححون أخطاء الحروف في الكتابة ، ثم شرع هؤلاء الآخرون في سن قوانين غيرها ثلاثم مصالحهم وتوافق مطامعهم ، فجاءت القوانين الجديدة كأختها التي سبقتها غير مراعى فيها حقوق بني آدم كلهم ومصالح الأمم بلا استثناء . وفي أيامنا هذه نرى مجالس التشريع في البلاد المتقدمة لا تفتأ تنسخ قوانين كان معمولاً بها وتسب بدلا منها قوانين أخرى جديدة ، حتى صارت لكل يوم شريعة تشرع في مكان شريعة تنسخ ، وقانون يسب بدلا من قانون يلغى . كل هذا طمعا في بقاء دولة وتثبيت أركانها واستيلاء رجالها على مناصبها ورغبة

منهم في زخرف الدنيا وزينها ونعيمها ، لا تحفزهم الى ذلك مصالح
الناس ولا منافع الامة كلها .

سادتي ؛ لقد حدثكم عن الطبقة العليا من بني آدم ، ممن يقن فيهم
أنهم معقد الرجاء في إصلاح الحياة الاجتماعية وتوجيهها نحو الارشاد .
وقد علمتم من أحوالهم وسيرهم كيف خابت فيهم الآمال وانخفق
الرجاء . والحق أن كل خير ترون له أثرا في بقعة من بقاع الأرض ، وكل
نور يومض في أية أمة حتى لو كان ضئيلا ، وكل إثارة من صلاح ، أو كرم
خلق ، أو صفاء سريرة وطهارة قلب ، فإن مما لا ريب فيه أن مرده في
الأصل الى رسالات الله ، أي إلى هداية النبيين عليهم السلام . فإذا
وقعت انظاركم في بقعة من أرض الله على مظهر من مظاهر العدل يسود
الناس ، أو رحمة في قلوب طائفة يتبادلونها بينهم ، أو وجدتم فئة تتعامل
بالتواصي ويساعد أسرارهم ذوي فاقتهم وأقربائهم المظلومين منهم وأهل
العافية فيهم يغيبون المتهوفين ويطعمون اليتام ويحولون الأيامي ،
فاعلموا جازمين غير مرتابين بأن هذه الفضائل من آثار تعاليم تلك الطائفة
الطاهرة التي تسمى « الأنبياء » صلاة الله وسلامه عليهم . وذلك لأن
أقطار الأرض كلها - على سعتها - قد بلغت دعوة الأنبياء وطرقت مسامع
أهلها سنن هدايتهم وأحكام تشريعهم وحكمة رسالتهم ، وما من أمة إلا
وقد أرسل الله فيها رسوله مندرين ومبشرين (وإن من أمة إلا خلا فيها
نذير) « فاطر ٢٤ » ، (ولِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ) « الرعد ٧ » . ولولا الأنبياء
لتهارج الناس كالبهائم ، ولتهارشوا كالسباع الضواري . فحيثما رأيتم
شيئا من الصلاح ، وقليلًا من الخير أو كثيرا منه ، فهو من تعاليمهم .
وكل دعوة للحق في مكان ما من الأرض فانما هي صدى لرسالات الله .
حتى الهمج في مجاهل إفريقية ، فضلا عن الأمم الغربية المتمدة ، كل

أولئك استقوا من منهل النبوات الصافي واستضاءوا بأنوار الله التي بعث بها أنبياءه ، ولا يزالون يستنبطون بهم في كل ما يسمى حقا وكل ما تدل عليه عناوين الخير .

إن الصفوة المختارة من أهل الطبقة العليا في البشر هم الذين يحكمون القلوب وينقاد لسيادتهم النفوس . وأين هؤلاء من الملوك الذين يحكمون الجسوم ويملكون الأبدان ويستولون على البلاد ؟ أولئك تجري أوامره وتنفذ أحكامهم حيث تخفق القلوب ، وإذا كانوا لا يملكون الأسلحة التي يملكها الملوك وأمراء الأجناد ، فإنهم يطهرون الأنفس من آثامها ويستأصلون الجرائم قبل وقوعها ، حين يجتثون من القلوب جذور الشرور . وإذا لم يكن لهم ما للشعراء من أناشيد يتغنى الناس بها ، فإن الأمم لا تزال تستحلي كلامهم العذب ، وتستعذب حديثهم الحلو . لا ريب أنه لم يكن الرسل رؤساء المجالس التشريعية بالمعنى الحديث ، لكن سننهم وتشريعاتهم لا تزال - على تطاول الأيام ومضي القرون - نافذة بين الطوائف ، يقدسها عليـة الناس وسفلتهم ، وأحكامهم منقوشة على صفحات القلوب تدعـن لها السوق والملوك ، ويستسلم لها الفقراء ويخضع لها الأغنياء .

إن يد الأيام قد عبثت - كما يشهد التاريخ بالراجا (أشوكا) ملك (باتلي باتر) ولم تبق يد البلى من أوامره وأحكامه إلا صخورا منقوشة وحجارة منحوتة . أما (بوذا) فإنه لا يزال يحكم القلوب ، وسننه وقوانينه لا يزال كثير من الناس يدينون لها ويطأطئون الرؤوس لحرمتها . وإن أوامر ملوك (أجين) و (هستابور) في دلهي وقنوج أمست أثرا بعد عين ، بل درست آثارهم وعفت أعلامهم وأصبحت ديارهم كأطلال نخوة ، أما

(دهرم شاستر) وهو كتاب العقائد الذي جاء به (ينسو) فلا زال باقيا نافذا أمره .

والملك (حمورابي) من ملوك بابل كان أول من سن القوانين ، ولكن أين أوامره وأحكامه ؟ لقد نسجت عليها العنكبوت منذ زمان طويل ، ولم تدع يد البلى من قوانينه وأحكامه شيئا . أما تعاليم نبي الله ابراهيم عليه السلام فما برحت غضة طرية .

وآين فرعون ودعواه (أنا ربكم الأعلى) ؟ لقد أصبحت أضحكة ! أما نبي الله موسى عليه السلام فانه يسود نوازع القلوب ، ويملك أهواء النفوس ، ويدين له كثير من الناس ، وتسلم لآياته وبياناته طوائف غير قليلة .

وقوانين سولون زال العمل بها وشيكا ، بينها التوراة المنزلة من السماء لا تنفك أحكامها وقوانينها قسطاس العدل وميزان النصفة .

والقانون الروماني الذي عدّ عيسى عليه السلام جانيا مجرما بمقتضى أحكامه ، واعتبره قد اجترح السوء وأتى ذنبا ، قد خلت القرون تسفيه برياحها فأصبح هشيا مضمحلا . أما عيسى عليه السلام فان تعليمه لا يزال نورا تجل به ظلمات القلوب ، وهدى تطهر به نفوس المذنبين ، وتنزكى به أرواح المجرمين .

وآين أبو جهل وكبرياؤه ، وآين كسرى الفرس ودولته وجبروته ، وآين قيصر الروم وحكومته وطفئانه ؟ كل أولئك قد طوى الدهر صحائفهم ، وطمست الأقدار دولهم ، وتهدم مجدهم ، وذهبوا ادراج الرياح . أما محمد رسول الله ﷺ فان حكمه ما زال وسيبقى باقيا على الدهر ، وأوامره نافذة وستة متبعة في كل زمان ومكان .

سادتي وأصدقائي : أظنكم قد استمتعتم لما ألقىت عليكم من الأدلة العقلية والبراهين التاريخية ، وإخاها قد تركت فيكم اثرا أورت في قلوبكم يقينا بأنه لم تكن طائفة من الناس أصلحت من فساد الأخلاق وقومت من عوجها ، وهذبت النفوس وهدتها من ضلال البشر مثل الذي قام به الانبياء عليهم السلام ، فهم الذين أصلحوا الحياة الاجتماعية ، وعلموا الناس الاقتصاد في المعيشة ، والاعتدال في كل شيء . وهم الذين أقاموا العدل في الدنيا ، وحكموا بالقسط بين الناس ، وزكوا القلوب ، وأخذوا بيد الانسانية الى الحق والخير وأنقلوها من حمة الرذائل . وإن الله سبحانه قد بعثهم ليخرجوا الناس من الظلمات الى النور : نور الايمان ، ونور الخلق الكريم ، ونور العمل الصالح . وتركوا بعدهم سنة للناس يتبعها السوق ويعمل بها الملوك ، وينتفع بها صغار الناس وكبارهم ، ويتمتع بخيراتها الاغنياء واليؤساء على السواء . وإن مثل الأسوة بهم كممثل عين نرة فياضة تروي البلاد وتسقي العباد ، يشرب منها كل عطشان بقدر حاجته ، ويرتوي بمائها العذب الزلال كل ظمآن فينتقع غلته (وتلك حُجَّتُنَا آتِيَانَهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ ، نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ . وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمَن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ ، وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ .
وزكريا ويحيى وعيسى وإلياس كل من الصالحين واسماعيل واليسع ويونس ولوطاً ، وكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ . وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ ، وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ . ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِه مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ، وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ . أولئك الذين آتيناهم الكتاب والحكم والنبوة ، فإن يكفر بها هؤلاء فقد وكلنا بها قوما ليسوا بها

بكافرين . أولئك الذين هدى الله فيهداهم اقتده) (الأنعام ٨٣ -
٤٩٠ .

ترون في هذه الآيات ذكر طائفة خاصة ، وسمي فيها بعض الذين
بعثهم الله لهداية الناس ، وفوض اليهم أمر اصلاح المجتمع : فهم
الشفاء لمرضى القلوب ، وبهم البرء لسقام النفوس ، وهم هداة
الغاوين ، الأخذون على أيدي الطغاة ، والمرشدون لأهل البغي .
والناهون عن المنكرات . وهم الطائفة المقدسة التي عم هديها وجاد غيبتها
جميع أنحاء المعمورة ، فاستضاء الناس كلهم بنور هؤلاء الرسل في مختلف
الأزمنة وشتى العصور . وإن الذي نراه في الأمم من الخير والصلاح وكرم
الخلق وحسن العمل وطهارة السيرة وعلو النفس وزكاء الروح ونزاهة
القلب ، إنما هو قطرة من بحر تعاليم الأنبياء عليهم السلام ، ولحة من
جمال شرائعهم ، وأثارة من بركات سيرتهم . وإن الانسانية الفلقة الثالثة
لا تزال تفتقد آثارهم ، وتحرص على اتباع سنتهم ، ليذهب بذلك
روعها ، ويطمئن قلبها ، فتقر الحياة الاجتماعية وتجد بعض راحتها . ولو
أن الناس اتبعوا سنن الانبياء واستقاموا على الطريق الذي دلهم عليه
لساد الوثام بين الأمم ، وعم السلام في العالمين .

لقد كان الانبياء جميعا على خلق عظيم ، وقد أوتوا من حميد الخصال
ومعالي الأخلاق ما لم يؤت أحد غيرهم مثله . غير أن منهم من تجلى فيه
خلق من الأخلاق فكان فيه أبرز من غيره وأظهر ، فنبي الله نوح كان
متحمسا في تبليغ الدين ، وإبراهيم كان شديد العناية بأمر التوحيد وورثه
في ذلك إسحاق ، وحبيب الايشار الى اسماعيل ، وجاهد موسى جهادا
عظيما وآزره في الحق أخوه هارون ، وظهرت الانابة والاعتراف بالخطأ في
يونس ، وكان لوط مجاهدا ، وغلب على يعقوب التسليم والرضا بأمر

الله ، وكان داود يرثي للحق وخذلانه ، وامتلأ قلب سليمان بالحكمة ،
وكان زكريا متعبدا ، وتحلى في بحى العفاف وطهارة النفس ، أما عيسى
فكان مظهر الزهد في الدنيا والرغبة عن زهرتها ، وكان أيوب صبورا على
الآلام . وهذه الخصال العالية والاخلاق الفاضلة هي التي يتشرف بها
العالم ، وتسعى الأمم للتخلي بها ، وحيثما وجدتم من هذه الخصال
الحميدة والفضائل النبيلة أثرا فكونوا على يقين بأنها من نفثات أولئك
الأنبياء ومن آثار تعليمهم .

إن تقدم المدنية الصالحة ، وتوفير عوامل الهناء والرغد للناس ،
وبلوع الإنسانية مقام الشرف ، قد ساهمت فيه جميع الطوائف التي
اشتراك في عمارة العالم : فعلماء الهيئة اكتشفوا للناس نظام سير
الكواكب ، والحكماء دلوا على خواص الاعمال وتأثيرها في الاخلاق ،
ووصف الاطباء النطاسيون خواص العقاقير وتأثير الأدوية في الأدواء ،
وتفنن المهندسون في تشييد المباني ومرافقها وإقامة القصور ومعالمها
وعقدوا على الأنهار القناطر والجسور واتسع أهل الصناعات في تنويعها
واتقانها وتيسير الاعمال للعمال ، فكان من مجموع هذه الجهود عمارة
الأرض ، ولكل فريق من أصحاب هذه الجهود يد في اكتمال المدنية وتقدم
الحضارة ، ونحن نذكر لهم ذلك بالثناء والشكر ، غير اننا لا نستطيع ان
نسى ان أنبياء الله وحمة رسالاته هم الذين غمرونا بالمتن العظمى لأنهم
عملوا لاصلاح فساد القلوب ، واستئصال كوامن الشرور ، وتطهير
النفوس وتركيتها من الأهواء الفاسدة والاطماع السافلة والميول المهلكة ،
فنهجوا بذلك منهج السعادة للحياة الاجتماعية ، وبينوا للناس ما تعلق به
نفوسهم وما تسفل به ، وما تكون به شريفة أو منحطة ، فكملت الثقافة
الانسانية برسالاتهم ، وبلغت الحضارة بذلك مبلغ الكمال ، وتيسر

للمجتمع البشري أن يكون صالحا اذا شاء ، وقد أصبح من المتعارف عند الناس أن الاخلاق الفاضلة والسيرة الطاهرة هي شرف الانسانية ومجدها ، ومكارم الاخلاق ومحاسن الموائد أصل الانسانية وجوهرها .

ويتعاليم الانبياء توثقت العلاقة بين الخلق ومخالقه ، وحسنت الرابطة بين العبد ومولاه ، فتذكر الانسان عهده الأزلي الذي أخذه على نفسه لربه . ولولا الانبياء وتعاليمهم وتجليتهم أسرار النفوس وكشفهم عن غرائز الفطرة الانسانية وما يسعد به المرء أو يشقى ، لم تبلغ الانسانية ما بلغت . ولذلك كانت الانسانية مثقلة بمنن الرسل سلام الله عليهم ، فان لهم علينا من الأيادي البيضاء ما لا كفاء له . ومن عرف هذا عرف معه ما يجب لأنبياء الله جميعا من الشكر العظيم على كل فرد من أفراد البشر مهما كانت الطائفة التي تنسب اليها ، وهذا الشكر هو الذي نعبر عنه نحن المسلمين بالصلاة عليهم والتسليم (لا تُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ) ونجهر بذلك ونعلنه كلما سمي الانبياء عليهم الصلاة والسلام .

أيها السادة : إن هؤلاء الانبياء بعثوا في أعصار خاصة ، فبلغوا رسالات الله ، ثم مضوا ، ولا بقاء لشيء في هذه الدنيا الفانية ، وإن سيرهم مهما تكن طاهرة مقدسة فانه لم يتح لها البقاء والدوام ، لأن يد الأيام قد عبثت بها كما تعبث بكل جديد فتحيله قديما ، ثم تجعله رمادا تذروه الرياح . ومن المعلوم ان الذي يبقى لمن يأتي بعدهم من بني آدم هو المكتوب فيه سيرهم وهديمهم ، وهو الذي يصف حياتهم ويمثل أخلاقهم . والكتابة هي التي تحصى الاعمال والاخلاق وتعصمها من أيدي البلى ، ولولاها لم نصل اليها علوم القرون الخالية وحكمتها ، وفنون الامم الماضية وأفكارها ، وشئون الاقوام السالفة وأخبارها وما التاريخ إلا سير الرجال وشئون الحياة الانسانية مما حفظته الكتابة وصانته من يد الضياع .

وان لحياة الانسان نواحي شتى ، ومن المحتمل أن يعتبر الانسان - في ناحية من نواحي حياته - بكل حادثة حدثت فيها مضي ، لكن حياة الانسان الخلقية والروحانية لا تكمل كماها ولا تبلغ مرادها ولا تزكو زكاءها إلا بسنن الانبياء وهدىهم واقتفاء آثارهم والتخلق بأخلاقهم ، ولن يذهب ظمأ الانسانية فتروي غلتها إلا بمنهل من سلسيل هؤلاء الرسل ، ولا يرجى خير العالم وصلاحه الا اذا عمل أهله الأعمال التي هدى اليها الانبياء ودعوا اليها وحضوا عليها . لاجل ذلك كان أهم القرائض على أبناء الانسانية حفظ سيرهم ، وإحصاء اخلاقهم ، لتبلغ مبلغ الكمال وتزكو زكاءها .

إن نظرية مهما تبلغ من الصحة ودقة الفكر ، وإن تعلما مهما يكن رائعاً ويقع من الناس موقع الاعجاب ، وإن هداية مهما تجمع من صنوف الخير ، كل أولئك لا يقني غناء ولا يثمر ثمرة ولا يبقى على الدهر الا اذا كان له من يمثله بعمله ويدعو اليه بأخلاقه وفضائله ، ويعرفه الى الناس بالقدوة والاسوة ، فيقتدي الناس بدعائه من طريق العمل بعد العلم ، معجبين بسجايا هؤلاء الدعاة معظمين لأخلاقهم مكرمين طهارة قلوبهم وزكاء نفوسهم وسجاجة أخلاقهم ورجاحة عقولهم وحصافة آرائهم وسداد أفكارهم . وأقص عليكم قصة : إن الباشرة (كروكوديا) التي ركبناها في عودتنا من مصر والحجاز في أوائل شهر رجب سنة ١٣٤٢ (شباط ١٩٢٤) اجتمعنا فيها عرضاً بالدكتور طاغور الشاعر الذائع الصيت ، وكان قافلاً من سياحته في أمريكا ، فسأله بعض رفقته : وما بال نحلة (برهمو سماج) أخفقت في مساعيها ولم تنجح ، مع أنها انصفت الأديان ، وجمعت الحسنات ، وسالت جميع الملل ، ومن مبادئها وأصولها أن الديانات كلها على حق ، وأن جميع المصلحين من الأنبياء

والرسل والهداة هم خيار الناس وصلحائهم ، ثم انها ليس فيها ما يخالف العقل أو يعارض المدنية الحاضرة أو يناوئ الفلسفة الحديثة ، وصاحب هذه النحلة قد راعى فيها الظروف الراهنة والشئون المألوفة الآن ، ومع ذلك كله لم تنل من الفوز شيئاً ولم يتح لها من النجاح قليل ولا كثير ؟ ! » وقد أحسن الشاعر في جوابه على هذا السؤال كل الاحسان إذ قال : « إن النحلة لم يكن لها داعية يدعو الناس اليها بسيرته الكاملة وهديه العالي ، ولم يكن لها لسان يدعو مؤيدا بعمل يصدقه فتسوى اليه أفئدة الناس وتطمح اليه ابصارهم ويكون لهم من الدعاة أسوة باتسون بها وقدوة يقتدون بها . وكلام طاغور هذا يدل على أن الدين لا ينجح ويعلو وينتشر إلا بسيرة النبي الذي بعث به وبما عرفه الناس عنه في شئون حياته وفي أخلاقه وأعماله . وبالجمللة ان الجنس الانساني يحتاج أشد الحاجة - في بلوغه الكمال وسلوكه سبيل الرشاد - الى هداة ودعاة طهرت حياتهم وزكت نفوسهم وصفت قلوبهم من رصمات الذنوب وشبهات الآثام ، وتكون سيرهم كاملة في كل ناحية من نواحي الحياة الانسانية ، ولم يجتمع ذلك إلا في أنبياء الله صلوات الله عليهم وسلامه .

* * *

المحاضرة الثانية

في أن سيرة محمد صلى الله عليه وسلم هي العامة لجميع الأمم وهي المخالدة

سادتي . هذا اليوم هو اليوم الثاني لحفلتنا هذه . وليكن ما سلف في اليوم الأول على ذكر منكم . وخلاصة ما ذكرت أمس ان ظلمات الايام المقبلة لا تنجلي إلا بتور من مضي من طوائف المصلحين الذين أحسنوا الى الإنسانية أي احسان ، ولهم جميعا علينا الشكر الجميل ، ونخص منهم الانبياء ، فانهم أسدوا الى البشر من الجميل ما لم تسده طائفة من المصلحين ، فيجب علينا أن نضاعف الشكر لهم ونعترف بجميلهم واحسانهم ، إذ أن كل واحد منهم قدم لأمته من سيرته الطاهرة وخلقه العظيم وهديه العالي ما كانت به الاسوة الكاملة التي لا تتأتى من غيره : فمنهم من صبر على الرزايا والنوائب والآلام أعظم صبر وأكملة ، فكان أسوة للصابرين في الضراء والشدة . ومن سيرة بعضهم خلق الاشار ، فكان إشاره مثالا لأمته . ومنهم من اختار مرضاة الله مقدما نفسه قربانا واضحة ، فكان المثل الأعلى لأمته في إيثار مرضاة الله حتى على بقاء مهجته وحفظ حياته .

لقد ظهر للناس في سيرة الذين حلوا رسالات الله عند تبليغهم عقيدة التوحيد الالهي ما كان موضع الإعجاب من العزيمة والحمية والتسليم لأمر الله والعفة عن المنهيات والزهد في زهرة الحياة الدنيا ، وما كان ولا يزال مثالا أعلى في هذه الفضائل العظمى ، ومنارا للسائرين في ظلمات الحياة ، وكم من ظلمة في الحياة قد ضل بها من ضل ثم أتى على البشر زمان كان فيه بأشد الحاجة الى الهادي الكامل يضيء له الطريق كله بقوله وعمله ،

ويجلى الدجى - دجى العقائد والاعمال والأخلاق - بنور تعاليمه وضوء سيرته وجمال خلقه وكمال نفسه ، فتكون حياته نبراسا بأيدي الناس ، فمن اقتبس منه في يمينه سار في ظلمات الحياة آمنا مطمئنا لا يخاف الزلة ولا يخشى العثرة حتى يبلغ غايته وإن ذلك الهادي الأعظم هو آخر الهداة وخاتم النبيين الذي لم يرسل بعده رسول ولن يرسل (يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا ، وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا)
« الاحزاب : ٤٥ - ٤٦ » .

ان محمدا ﷺ شهد في هذا العالم تعليم الله وهدايتيه . وبشر الصالحين بالنجاح والفلاح ، فهو مبشر . وقد نادى الغافلين وأسمع الصم وحذر المذنبين عاقبة ذنوبهم وأنذر المشركين على الهلاك وأيقظ النائمين ، فهو منذر . وقد دعا الى الله من ضل عن سبيله ، فهو داع . وان هو إلا نور يستضاء به الى يوم القيامة ، ونبراس يستنار بأشعته في شعاب الحياة الملتوية فتكشف به الظلمات المتراكمة ، فهو السراج المنير الى الابد . نعم ، ان جميع الانبياء كانوا شهداء ودعاة ومبشرين ومنذرين ، بيد ان هذه الصفات لم تكن سواسية في جميع الرسل ، بل كان بعضها في بعضهم أظهر من أخواتها ، فكان يعقوب واسحاق وإسماعيل عليهم السلام قد غلبت عليهم صفة الشهادة وكانوا شهداء الحق . وغلبت على إبراهيم وعيسى صفة التبشير فكانا مبشرين . ومن الانبياء من غلب عليه وصف الانذار لمن خالف الحق وجحده فكانوا منذرين كنوح وموسى وهود وشعيب . ومنهم من غلب عليه صفة الدعوة الى الحق وامتاز بها أكثر مما امتاز بسائر النعوت الاخرى كيوسف ويونس عليهم الصلاة والسلام جميعا . وأما من كان جامعا لهذه الصفات كلها واتصف بها جميعا فكان مبشرا ونذيرا وداعيا الى الله بإذنه وسراجا منيرا

وكانت حياته ملأى بهذه النعوت والشئون وسيرته ممتازة بهذه الخصال والخلال ، فهو النبي الجامع محمد ﷺ لأنه بعث ليختتم الله به النبيين والنبوات ، فأعطي الرسالة الاخيرة ليبلغها الى البشر كافة ، فجاء بالشرعة الكاملة التي لا يحتاج البشر معها الى غيرها ، ولم تنزل من السماء الى الارض شرعة على قلب بشر بعد هذه الشرعة . لقد حظيت التعاليم المحمدية بالخلود واختصت بالبقاء والدوام الى يوم القيامة فكانت نفس محمد ﷺ جامعة لجميع الاخلاق العالية والعادات السنية ، وقد بعث لينعم مكارم الأخلاق .

اخواني ، أنا لا أقول ما أقول جزافا وادعاء مني لأجل عقيدة لي خاصة اعتقدها ، وإنما هي حقيقة يشهد لها التاريخ وتؤيدها البراهين والدلائل وإن السيرة التي يحق لصاحبها أن يتخذ الناس من حياته أسوة حسنة ومثلا أعلى ، يشترط لها قبل كل شيء أن تكون سيرة « تاريخية » ، أما السيرة القائمة على أساطير وأحاديث خرافة لا تدعمها الروايات الموثوق بصحتها ، فإن من طبيعة الانسان أن لا يتأثر بما يحكى له من سيرة لشخصية مفترضة لا يعرف لها التاريخ أصلا صحيحا ، وإنما اختلق لها المناقب أناس احسنوا الظن بها فرفعوا مكانها ، وقد يجذعون بهذه المناقب بعض الناس أمدا قصيرا حين يعرضونها عليهم في حلة قشبية من الالفاظ وثوب قشيب من العبارات ، ثم لا تلبث الحقيقة أن تظهر من وراء غلاثل الاوهام فيعرض الناس عنها اعراضا لأنها قامت على غير أساس من التاريخ . إذن فلا بد لكل سيرة من سير الكمال الانساني يدعى الناس الى الاقتداء بها واتخاذها أسوة أن يدعمها التاريخ ويشهد لها المحققون ، ولهذا ترى النفوس البشرية لا تتأثر بالاساطير والاهام كتأثرها بحوادث التاريخ والروايات الثابتة عن الثقات الاثبات . وذلك لأن سيرة الرجل

العظيم الكامل لا تعرض على الناس ليشغلوا بها أوقات فراغهم ويرتجوا بها عن أنفسهم في حالة الملل أو الضجر ، بل تعرض عليهم ليدعوا الى الاقتداء بها واتخاذها نبراسا لحياتهم يسرون على ضوئها في ظلمات الحياة لاقتحام العقبات ، وكم من عقبة تعترض الانسان في حياته فيحتاج الى من يسير أمامه ليأخذ بيده في اجتيازها . فان لم تكن الشخصية تاريخية كيف يدعى الناس الى الاقتداء بها وهي في الواقع مفترضة والمناقب التي تذكر عنها من الاساطير والافهام ١٩

نحن معشر المسلمين نؤمن برسالات الله كلها وبجميع الرسل ونعظمهم بلا استثناء ، مع علمنا بانهم متفاضلون (تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض) (البقرة ٢٥٣) . وان الدوام والبقاء لم يتح الا لسيرة آخر المرسلين وخاتم النبيين محمد ﷺ ، أما غيره من الانبياء فلم تحتكم النبوة بأحد منهم ، ولم تكن سيرتهم خالدة ، بل ولا محفوظة ، وقد أرسلوا الى أمهم خاصة ، وإلى زمن خاص بأجل مسمى ، فكانت حياتهم أسوة للذين أرسلوا اليهم في عهدهم ، ثم نسيت تلك السيرة واهت بكرة الليالي ومرور الأيام ، وقد جاء في رواية اسلامية ان الله أرسل من الانبياء عشرين الفا ومائة الف .

انه ما من بلاد ولا أمة قبل مبعث محمد ﷺ الا جاء فيهم نبي ، وإذا كان عدد الانبياء على ما في تلك الرواية الاسلامية عشرين الفا ومائة الف فكيف نبياء منهم نعرف اسمهم ؟ والذين نعرف أسماءهم هل نعرف من سيرتهم كثيرا أو قليلا ؟

ان من أقدم الامم عهدا هنالك الهند كما يدعون ، وهم ليسوا بمسلمين ، وفي تاريخهم مئات من العظماء والناهين ، فهل يؤيد التاريخ سيرة أحد منهم ؟ ان التاريخ لا يستطيع ذلك ، وكثير منهم لا يعرف

الناس من شئون حياتهم وحقائق أحوالهم إلا أساءهم ، وهم لا يحفظون في كتب التاريخ مكانة ، وإنما تعد سيرتهم من علم الاساطير وخرافات الوثنية . ومن أحظاهم تاريخاً وأحسنهم سمعة رجال «فهاربتها» و«راماينا» وأبطالها ، ومع ذلك فإن سيرة أولئك الرجال لا تعد من التاريخ ، بل لا يعرف التاريخ زمانهم ، فضلاً عن أن تتعين في الزمان قرونهم أو تعرف من قرونهم سنوات حياتهم .

لقد درس بعض علماء أوربا تاريخ الهند القديم درساً متوالياً ، وقاسوا له أقيسة ، وذهبوا في ذلك شوطاً بعيداً ، فصاروا يعينون عهد عظماء الهنالك وأبطالهم تعييناً يرى علماء الهنالك وفضلاؤهم أنه مجازفة ورجم بالغيب ، وأكثر المحققين من علماء أوربا لا يعدون ذلك من التاريخ ، بل لا يعترفون بأن هؤلاء قد وجدوا في العالم يوماً ما أو كان لما حيك حولهم من أساطير شبه وجود . وإن زردشت صاحب المجوسية لا يزال معظماً عند كثير من أتباعه ، لكن التاريخ لم يكشف الحجاب عن وجوده الحقيقي بعد ، فهو لا يزال سرا غامضاً من أسرار التاريخ حتى شك بعض المؤرخين من الأمريكين والاوربيين في نفس وجوده . أما المستشرقون الذين يعترفون بوجوده التاريخي فإنهم يثبتون بعض شئون حياته بظنون متباينة وأوهام متباعدة اثباتاً لا يروي غلة ولا يشفي علة ، فكيف يستطيع أحد أن يطمئن إلى اتخاذ حياة زردشت أسوة لنفسه في الحياة ما دام الشك وتضارب الآراء يحومان حول زمانه وبلده ونسبه وأسرته وشريعته ودعوته وكتابه ولغته وعلم وفاته ومكان موته ، والروايات عن ذلك أوهام وأقيسة وظنون لا تغني من الحق شيئاً . ومع ذلك فإن المجوس ليس لهم سبيل إلى معرفة هذه الأمور المرتاب فيها إلا ما يزعمه بعض المستشرقين والباحثين من أهل أمريكا وأوربا ، وإن علم المجوس

الأصلي بينهم وحياته وسيرته لا يعدوما في الشاهنامة للفردوسي ، ومن ذا الذي يعذرهم فيما يعتدرون من أن كتبهم الدينية قد ذهبت بها حروبهم مع اليونانيين وأن أعداءهم أبادوها . ونحن ليس من غرضنا إلا أن نثبت أنها غير موجودة ولا معلومة ، ولا يبعثنا كيفية انعدامها وزوالها ، وهذا يدل على أن حياة زردشت لم تنل حظ الدوام والبقاء حتى أنكر أمثال Kern و Dermelites شخصية زردشت ووجوده التاريخي .

ودين (بوذا) أقدم الأديان وأوسعها نطاقا وأكثرها انتشارا في سالف الأيام ، وكان له سلطان على الهند والصين وآسيا الوسطى وأفغانستان وتركستان ولا يزال إلى الآن في سيام والصين واليابان وتبت ، وإنما تقلص ظله وعفى أثره في الهند على أيدي البراهمة ، وزال عن آسيا الوسطى بغلبة الإسلام ، لكنه ما برح موجودا في آسيا القصوى تحت ظل دولة قوية ذات مدنية وثقافة ناصرتين ، وهي اليابان التي لم تخضع بعد لأجنبي ، ولم يفتح بلادها فاتح^(١) .

ولسائل أن يسأل : هل يقيم التاريخ وزنا لوجود بوذا ؟ وهل يقدر مؤرخ على أن يعرض للناس صورة حقيقية لتاريخه ؟ وهل يستطيع كاتب أن يصف ظروفه وأحواله التي كان عليها في حياته وصفا كاملا لا يغادر شيئا من تحديد زمن ميلاده ووطنه وأصول دينه كما دعا هو إليه ومبادئ دعوته وأهدافها ؟ الذي تعلمه أن ذلك كله محجوب عن علم الناس بظلمات كثيفة متراكمة ، وكل ما أمكن للباحثين أنهم حاولوا تعيين زمان وجوده بحدوث راجوات بلاد (مكده) ولم يكن لهم سبيل سوى ذلك ، وتسنى لمؤرخ أن يقارن زمن هؤلاء الراجوات بملوك اليونان الذين كانت بينهم وبين راجوات مكده روابط .

(١) الغيت هذه المحاصرة لما كانت اليابان في أوج سيادتها قبل الحرب العالمية الثانية .

وأما دين الصين فلم نعلم عنه الا قليلا بطريق الحدس ، ولم يصل العلم الى شيء يقيني عنه . (كونفوشيوس) صاحب النحلة المعروفة في الصين تعلم عنه أقل مما نعلم عن بوذا ، مع أن المتتبعين لطريقته الدينية يبلغ عددهم مئات الملايين .

والامم السامية بعث فيها مئات من الرسل ، لكن التاريخ لم يحفظ لنا عنهم الا أسماء بعضهم ، ولا نعلم عن هؤلاء الرسل - من نوح وإبراهيم وهود وصالح وإسماعيل وإسحاق ويعقوب وزكريا ويحيى عليهم السلام - إلا بعض سيرهم وقليلا من صفحات حياتهم ، والذي نعلمه من ذلك لا يكاد يروي غلة أو يشفي علة . وحياة العظماء لها نواح وأطراف ، وتتخللها شعاب وعقبات ، في أطوار وأدوار . وما دام النبي غاب عن علمنا من ذلك أكثر بكثير من الذي عرفناه ، فكيف يتسنى لمن شاء أن يتخذ من سيرتهم أسوة كاملة لحياته في جميع أطوارها وهو لم يبلغه من سيرهم الا قليل ؟

إن أسفار اليهود التي تضمنت سير هؤلاء الانبياء قد خالج المحققين من العلماء ضروب من الشك في كل سفر من هذه الأسفار . على أننا اذا ضربنا صفحا عن هذه الشكوك نرى سير هؤلاء النبيين في تلك الأسفار ناقصة . مثال ذلك احوال موسى المذكورة في أسفار التوراة ، إن مؤلفي دائرة المعارف البريطانية أنفسهم توصلوا الى تحقيق أن هذه الأسفار دونت وجمعت بعد موسى عليه السلام بقرون كثيرة ، زد على ذلك أن التوراة الموجودة فيها لكل حادثة روايتان مختلفتان وحكايتان متباينتان كما حقق ذلك بعض علماء الالمان ، وربما دفع بعض هذه الروايات بعضا فتعارضت أولاها بأخرها . ونحن نواجه الوصف المتعارض في سير الرجال والحوادث جميعا ، ومن أراد أن يزداد علما بهذا الموضوع فليراجع مادة (بايبل) في الطبعة الاخيرة من دائرة المعارف البريطانية . وإذا كان

الامر كذلك فبأي منزلة من التاريخ نزل حوادث العالم من آدم الى موسى عليها السلام ، وكيف نقدر قدر التاريخ الصحيح الثابت في هذه الامور ؟

وأحوال عيسى عليه السلام وسيرته مكتوبة في الاناجيل ، والاناجيل - كما تعلمون - كثيرة ، غير ان اكثرية المسيحيين اقتضرت على أربعة أناجيل . أما (انجيل الطفولة) و (انجيل برنابا) وغيرهما فلا يعتبرونها . ومع ذلك فإن الاناجيل الاربعة التي اقتصروا عليها لم يلق أحد من الذين جمعوها سيدنا عيسى عليه السلام ، وإذا تساءلنا : عن روى هذه الاناجيل ؟ نجد التاريخ يجهل ذلك كل الجهل . ويزداد المرء شكاً اذا توصل الى حقيقة أخرى وهي أن الرجال الاربعة المنسوبة اليهم هذه الاناجيل الاربعة لا يمكن القطع يقينا بأنهم هم الذين جمعوها في الواقع . فإذا كان الاشخاص المنسوبة اليهم هذه الاناجيل لا يطمئن التاريخ الى صدورها عنهم فكيف يطمئن الى صحتها ؟

وزاد الطين بلة أننا لا نعلم يقينا اللغة التي كتبت بها هذه الاناجيل في الاصل ، وفي أي زمان كتبت . فقد اختلف مفسرو الاناجيل اختلافا شديداً في تعيين زمان جمعها وتدوينها ، فمن قائل انها كتبت سنة ٦٠ للميلاد ، ومن قائل انها جمعت بعد ذلك التاريخ بكثير . وذهب بعض نقدة العلماء الامريكيين مذهباً بعيداً مستغرباً في أمر المسيح ولادته ووفاته ودين التثليث فأنكر ذلك الناقد الامريكي وجود المسيح عليه السلام قائلاً ان هذا كله من الاساطير ، وان ما ذكره عنه انما هو بقية من بقايا وثنية الروم واليونان . اذ أن تلك الامم كانت تدين بمثل هذه الافكار والعقائد في آلهتهم وأبطالهم القدماء . وقد استمر الجدال اشهرها حول وجود عيسى عليه السلام في مجلة (روبن كوررت) التي تطبع في شيكاغو ، ودار

البحث عما اذا كان للمسيح وجود تاريخي أم هو مما ابتدعته أوهام القدماء من الأمم السالفة واختلقته اختلاقاً . أليس كل هذا مما يؤمن بالامر فيما يتعلق بعرض سيرة المسيح عليه السلام وموقف التاريخ من ذلك ؟ ونعود فنقول : كيف يمكن اتخاذ الأسوة الكاملة التي تطمح لها القلوب ان لم تكن جميع نواحي الحياة في الشخصية المقتدى بها معلومة ، وليس فيها ما يجهله الناس وما هو مكتوم عنهم وراء حجب التاريخ . ان المقتدى به والذي يتخذ الناس من حياته أسوة لا بد ان تكون حياته كلها واضحة صافية كالمرآة وليلها كنهارها لتبين للناس المثل العليا التي يخذونها في حياتهم بجميع أطوارها ومناحيها .

إذا نظرنا الى حياة أصحاب النحل ودعاة الملل وهداة البشر من الانبياء والرسل نظر الناقد البصير ، وتأملنا هديهم وسيرهم ، لم نجد فيمن تقدم ذكرهم من يمكن ان يتخذ من حياته مثل أعلى للحياة الانسانية الا محمداً ﷺ وهديه وسيرته ، فهو الذي أرسله الله ليكون فيه أسوة لبني آدم في جميع نواحي حياتهم وأطوارها وأحوالها . وقد سبق لنا القول بأنه ليس في مئات الألوف من المصلحين والنبیین من يشهد لهم التاريخ الا ثلاثة او اربعة ، ومع ذلك فان التاريخ لا يعرف من تفاصيل أحوالهم وشؤون حياتهم ودخائل سيرتهم إلا نزرًا يسيراً وغير كامل ، فكيف يتسنى للإنسان ان يتخذ من ذلك أسوة لحياته ذات النواحي المختلفة ؟

أليس من المستغرب ان بوذا الذي يبلغ عدد المتبعين اليه ربع سكان المعمورة ولا يحفظ التاريخ من سيرته إلا عدة أقاصيص وحكايات لو أننا نقدناها بمقاييس التاريخ لتتخذ لانفسنا قدوة من حياته وسيرته لخرجنا من ذلك خاسرين . إن احدى تلك الاقاصيص تبيننا بأنه ولد في زمان غير معلوم في واد من اودية (نيبال) في بيت راجه ، فكان ذكياً وذا طبيعة

متوبة وله نفس متدهورة وقلب حساس . فلما بلغ أشده وتزوج وصار أباً ، اتفق أن رأى جماعة من الفقراء والبؤساء فآثر فيه منظرهم المؤلم وأثار في نفسه كامن الرحمة والشفقة ، فخرج من وطنه هائماً على وجهه حتى بلغ (بنارس) ثم (كيا) ولا بايلي بشر) وهي (بتسه) ثم (راجسكير) وهي (بهار) وناء فيما بين ذلك من جبال وغابات ومدن وقرى ، ولم يزل هائماً على وجهه متجولاً بين هذه البقاع النائية حتى بلغ في تجواله الى (كيا) فتجلت له الحقيقة المحجوبة وهو تحت شجرة من أشجار بييل فرأى نور الحق ساطعاً ، وادعى انه أدرك سر الحقيقة ، فخرج يدعو الناس الى دينه بين (بنارس) و (بهار) ثم مضى لسبيله . هذه جملة ما نعلم من سيرة بوذا وحياته .

وزردشت يعد واحداً من الذين أسسوا بنيان الدين وبدأوا بالدعوة اليه ، وقد أسلفنا أن حياته مجهولة كذلك ، ولا يتبع أثرها الا أهل القياس والاستنتاج من علماء التاريخ . وانا لا أقول شيئاً من عند نفسي في سيرة زردشت ، بل أعرض عليكم نبذة مما كتب عنه في دائرة المعارف البريطانية للقرن العشرين ، وهي تعد من أوثق المصادر في التاريخ :

« إن زردشت الذي عرفناه من أبيات شعرية في (كاثا) غير زردشت الذي نراه في (وستا) الجديدة ، فالموصوف في المصدر الأول مبين للمذكور في المصدر الثاني ومضاد له . وعلى كل فان الاسطورة التي تشتمل على الحياة المستغربة (وقد نقل الكاتب شئوننا في سيرته من كاثا) لا تدلنا على حياة زردشت دلالة واضحة ، ولا تهدينا السبيل الى معرفته معرفة تاريخية ، بسبب ما نجد من غموض لا ندرك معناه .

وأخذ الكاتب يسرد المصنفات التي وضعت في هذا العصر عن حياة زردشت وقال : إن مولده لم يعين بعد ، والشهادات على ذلك يناقض

بعضها بعضا . والمهد الذي كان فيه زردشت مجهول كذلك ،
فالقو رخون من اليونان اختلفوا فيه اختلافا شديدا ، كما اختلف علماء
عصرنا في تعيين عهده ، وانتهى كاتب ترجمته في دائرة المعارف البريطانية
الى القول باننا لا نعلم زمن زردشت البتة ونجهله جهلا تاما .

وخلاصة ما نعلمه عن حياة زردشت أنه ولد في مقاطعة أفريجان ،
ونشر دعوته في بلخ وأطرافها ، وأن الملك «هشتاسب» دخل في دينه ، ثم
ظهرت على يده معجزات ، وقد تزوج وولد له أولاد ثم توفي . فهل يظن
أحد ان هذه المعلومات عن حياة رجل صاحب دعوة تكفي لان يتخذ من
حياته أسوة ، وأن يقتدى به في جميع مراحل الحياة فيكون للناس سراجاً
يستضيئون بنوره في تصرفاتهم وسلوكهم ؟

ومن أكثر الانبياء ذكرا وأوضحهم حياة موسى عليه السلام . ترى ماذا
تقول اسفار التوراة الخمسة عن حياته ؟ ذلك ما نستعرضه بلا أي نقد لما
فيه من روايات ضعيفة ، وغير متعرضين الآن للذكر صحتها أو سقمها ،
بل نوردنا مفترضين صحتها ؛

لا نجد في هذه الاسفار الخمسة من التوراة عن حياة موسى إلا انه بعد
ولادته تربى في قصر فرعون ، ولما بلغ مبلغ الرجال نصر قومه بني اسرائيل
على ظلم فرعون مرة أو مرتين ، ثم هرب من مصر الى (مدين) من بلاد
العرب وتزوج فيها وأقام هناك برهة من الزمن ، ثم رجع منها الى مصر ،
وبينا هو في طريقه اليها أوحى اليه من ربه ، وبعث الى قومه نبيا وداعيا ،
ثم لقي فرعون وأراه آيات بينات ، واستأذنه في الخروج ببني اسرائيل من
مصر فلم يأذن له بذلك ، فخرج بهم على حين غفلة من فرعون ، ووجد
في البحر طريقا بأذن الله ، وتبعه فرعون فأدركه الغرق . أما موسى فقصده
بقومه الى بلاد العرب ، ودخل بهم أرض الشام ، وجاهد من كانوا على

الشرك من أهلها وما زال يقاتل ويجاهد الى أن هزم وبلغ من العمر عتيا
وأرعشه الكبير ، فجاءه الموت وهو على ربهوة . وقد اختتم سفر التثنية بهذه
الفقرات (٣٤ : ٥ - ١٠) :

« إن عبد الله موسى مات باذن الله في أرض موآب ، ودفنه الله في الجواء
في أرض موآب مقابل بيت فغور ، ولم يعرف انسان قبره الى هذا
اليوم . . وكان موسى ابن عشرين ومائة سنة حين جاءه الموت . . . ولم
يقم بعد نبي في إسرائيل مثل موسى » .

هذه الفقرات نقلناها من سفر التثنية وهو السفر الخامس من التوراة
الموحى الى موسى عليه السلام . ولا يخفى على ناظر هذا السفر أن
الكلمات التي نقلناها لم ينطق بها موسى عليه السلام ، وهذا يدل على أن
هذا السفر كله ، أو جزءه الأخير على الأقل ، ليس لموسى ، وإن الدنيا
تجهل كاتب هذه السيرة لموسى .

ومما يلتفت نظر القارئ قول القائل في هذا السفر « ولم يعرف انسان
قبره » (أي قبر موسى عليه السلام) الى اليوم » ، وقوله « لم يقم بعد نبي في
إسرائيل مثل موسى » . إن هاتين الفقرتين تدلان على أن هذا الجزء
الأخير من سيرة موسى عليه السلام قد أضيف إلى كتاب حياته بعد أيام
طويلة ذهبت فيها يد الدهر بآثار هذا المزار العظيم والمشهد الكبير حتى
عمي محله عن الأجيال التالية ونسوه ، بل أضيف هذا الجزء من سيرة
موسى الى سفر التثنية بعد زمان طويل كان يرجى فيه أن يقوم في إسرائيل
نبي يسد فراغ موسى ، فتوّه كاتب السفر بأنه لم يقم بعد مثله .

إن موسى عليه السلام عمّر طويلا ، وقد نسا الله في أجله حتى عاش
عشرين ومائة سنة ، فما الذي نعرفه عن حياته الطويلة ، وبأي الأعمال
شغل فراغ حياته المباركة ، وما هي النواحي التي تعلمها واضحة مفصلة

من سيرته الحافلة بكثير مما كان ينبغي أن يعلم لتحسن به الأسوة ؟ إننا لا نعلم إلا مولده وشبابه وهجرته وزواجه وبعثته ثم قتاله المشركين الى أن لقيناه مرة أخرى وهو يرتعش من الكبر وقد أدركه الهرم وبلغ من العمر عشرين ومائة سنة . وهل يغنيا ذكر ما يتعلق بحياته الخاصة مما يمر بكل إنسان في حياته وبيئته العادية ؟ إن الأمور التي كان يحتاج البشر الى معرفتها من حياة موسى الاجتماعية هي الأخلاق والعادات والهدى ، وكل ذلك لا نجده في سيرته . أما ذكر أسماء الرجال وأنسابهم وأماكنهم وبلادهم وعددهم فمما لا يهمنا علمه في مقام القدوة والأسوة والهداية ، مع أنه هو الذي نراه مفصلاً في التوراة . وكذلك نرى فيها شيئاً كثيراً من القوانين والمبادئ والأصول ، لكن هذه الأمور والتي سبقتها مهما تكن أهميتها عند علماء الجغرافيا والأنساب والحقوق فإنها لا تعيننا نحن من جهة الأسوة والقدوة في الحياة ولا تسد الخلل الواقع في سيرة موسى عليه السلام من هذه الناحية التي لا يكمل بيانها إلا بذكر أخلاقه وشؤون حياته وأحواله في معاشرته ، وهو ما لا بد منه ليتخذ البشر مثالا يعمل به .

ومن أقرب الأنبياء عهدا بالاسلام عيسى عليه السلام الذي يزيد عدد المنتسبين اليه بحسب إحصاءات الاوربيين على عدد المنتسبين الى الديانات الاخرى ، وإن المرء ليستغرب حين يعلم ان شؤون حياته وأحوال معيشته أخفى من غيره وأغمض ، وقد أسدل الزمان عليها حجابا أكثف مما نراه في حياة العظماء الآخرين من الرسل الذي يعدون من أصحاب الأديان المشهورة . وإن أوربا المسيحية قد حملها حافز البحث والكشف على أن تستثير بطون الصحارى وقلل الجبال وأطراف الصخور والاطلال الدارسة ومظان الآثار ومجالات الحوادث التي مرت عليها الأحقاب الطويلة ، فكتب المستشرقون التاريخ القديم لبابل وأشور والعرب والشام ومصر وأفريقية والهند وتركستان وأخذوا يلائمون بين الحوادث القديمة المجهولة الزمن ويعرضونها على الناس واضحة نفية

منسقة مرتبطا بعضها ببعض ، وطفقوا يعثرون على الصفحات المفقودة من كتاب التاريخ القديم للبشر ، إلا أنهم قد أعياهم البحث والفحص فلم يجدوا الصفحات المفقودة عن حياة نبيهم . وقد استفرغ العلامة ريتان جهده ولقي من العناء والنصب مبلغا عظيما ليقف على حياة عيسى كاملة تامة ، ومع ذلك فإن شئون عيسى عليه السلام وأحواله لا تزال سرا مكنونا في ضمير الزمن لم يبيح به لسانه بعد .

إن عيسى عليه السلام عاش في هذه الدنيا ثلاثا وثلاثين سنة كما يروي الانجيل ، والأنجيل الموجودة في الأيدي - على ما في رواياتها من ضعف وليس - مقصورة على ذكر أحواله لمدة ثلاث سنوات من أواخر حياته وحسب ، فنحن لا نعلم عن حياته علم اليقين إلا أنه ولد ، وجيء به إلى مصر ، وأراه الله آية أو آيتين في صباه ، ثم غاب عن الناس وظهر لهم وهو في الثلاثين من عمره ، فنراه قائما يعظ الملاحين وصيادي السمك على الشواطئ وفي بعض الربوات ، فصاحبه جماعة من حواربيه وقد جادل اليهود وناظرهم في بعض الأحيان ، إلى أن حمل اليهود الحكام الروميين على القبض عليه ورفع أمره إلى محكمة يرأسها قاض من الروم فقضى عليه بالصلب ، وبعد ثلاثة أيام وجد قبره خاليا من جسده عليه السلام .

أين قضى عيسى عليه السلام الثلاثين أو الخمس والعشرين سنة على الأقل من حياته ؟ وفيما قضاها ؟ وبأي الأعمال شغل هذا الفراغ الواسع من عمره ؟ إن الدنيا لا تعلم عن ذلك شيئا ولن تعلم . والسنوات الثلاث الأخيرة ماذا نجد فيها ؟ آيات ومعجزات معدودات ، وبعض العظات ، ثم قيل إنه صلب فانطوت صحيفة حياته .

من الشروط المحتمة التي لا بد منها لكل من يرجى أن تكون سيرته وهدايته أسوة للبشر : الكمال ، والتسام ، والجمع . والمراد بالكمال والتسام والجمع أن الطوائف الانسانية المتفرقة والطبقات البشرية المختلفة تحتاج إلى أمثلة كثيرة ومتنوعة تتخذها منهاجا لحياتها الاجتماعية . وكذلك الأفراد

في المجتمع البشري هم في حاجة الى مثل عليا يقتدون بها في مناحي حياتهم البينية لتوثق الروابط بين الافراد ، وتحسن العلاقات بين شتى الطوائف في داخل الاسرة وخارجها . لذلك ينبغي ان تكون تلك المثل كلها واضحة في حياة الانسان العظيم الذي يتخذ مثالا في الحياة . واذا صحت هذه النظرة - وهي صحيحة - لم نجد في سالف الايام قدوة واضحة الحياة غير محمد خاتم النبيين عليه وعليهم السلام . والدين هو طاعة المخلوق للمخالق ، وبالدين يتعلم المرء ما فرضه الخالق على خلقه من فرائض وما اوجبه من واجبات ، فيؤمن بها ويحققها بالعمل . واذا اردنا ان نعبر عن الدين بعبارة أخرى قلنا هو القيام بحقوق الله وحقوق خلقه ، إذن فيجب على كل متبع لدين ان يتصرف هذه الحقوق والفسرائض والواجبات من سيرة نبيه والأحوال التي كان عليها صاحب ملته ثم يقتدي بها ويفرغ حياته في قالبها . واذا نظرنا الى سير الانبياء هذه النظرة وحاولنا معرفة حقوق الله وحقوق خلقه كاملة تامة من سيرتهم ، لم نجد ذلك الا في سيرة محمد ﷺ المبعوث الى الناس كافة .

والديانات اذا تأملناها يدولنا أنها على نوعين : نوع لا نجد فيه ذكر الله تعالى البتة ، ومن هذا النوع دين بوذا ودين الصين ، فليس فيها ذكر لله تعالى ولا لصفاته ، وليس فيها فرائض وواجبات على الانسان ، ومن باب أولى ليس فيها ذكر للحب في الله وتوحيده والاخلاص له ، فالذي يبحث فيها عن هذه الأمور لا يخرج من بحثه بشيء .

ونوع آخر ورد فيه ذكر الله عز وجل ، وسلموا فيه بوجوده على وجه ما ، وآمنوا به إيماناً بالجملة ، لكنك لا ترى في سير أنبيائه أو في تعاليم دعائه ما يعرف منه الانسان كيف يعتقد بربه ، وكيف يؤمن به ، وبأي الأوصاف يصفه ، وكيف كان هؤلاء يعتقدون بالله وإلى أي حد تأثروا بتلك العقائد في أعمالهم وأخلاقهم ، وفي أي صورة من صور الأعمال تجلست عقائدهم وبرزت للوجود . كل هذا لا نرى له أثراً في سير هؤلاء .

اقرأ التوراة واستقص النظر في قصورها وفقراتها وتدبر ذلك ما استطعت فانك لن تجد فيها إلا توحيد الله وشرائط القربان وشيئا من الاحكام ، اما اذا اردت ان تعرف من الاسفار الخمسة التي تتألف منها التوراة شيئا عما كان في قلب موسى عليه السلام من الحب لله والشوق للقاءه ، وكيف كان يطبع الله ويعبده . وكيف كان توكله على الله ويقينه به ، وكم أثرت الصفات الالهية على قلبه ، فانك لا تجد فيها شيئا من ذلك . ولو كانت الشريعة الموسوية واحكامها عامة للبشر دائمة بدوام الدهر لكان واجبا على أتباع موسى عليه السلام أن يقيدها بالحفظ والكتابة وأن يصونوها من عبث الدهر بها ، لكن الله عز وجل لما لم يرد أن تكون شريعته عامة خالدة لم يتع لها هذه العناية في الحفظ والتخليد .

والانجيل مرآة صافية تجلت فيها حياة عيسى عليه السلام ، لكننا نجد فيه أن الله (تعالى عما يقول الظالمون علوا كبيرا) هو ابوعيسى عليه السلام . اما كيف كانت رابطة الابوة بين هذا الولد المقدس ووالده ، فان الولد يخبرنا بأن اياه كان يحبه حبا جما ، لكننا لم نعلم الى أي حد بلغ حب الولد لوالده وكيف كانت طاعة الابن لآبيه ، وهل كان يركع له ويسجد في النهار او في الليل ، وهل سأل شيئا غير خبز يومه ، وهل دعا اياه بدعوة في ليلة من الليالي قبل الليلة التي اعتقل في نهارها ؟ إننا لا نعلم هذا ولا ذلك .

ولو أن سيرة سيدنا عيسى عليه السلام المذكورة في الانجيل تحتوي على بيان العلاقة بين المخلوق وخالقه وتهدي المرء الى ذلك هداية تامة لما احتاج أول ملوك المسيحية أن يعقد مجلسا لهذه ثلاثمائة حبر من أعيان الكنيسة بعد ثلاثة قرون ونصف قرن من المسيح ، ليبتوا الحكم في أمر المسيحية . ومع ذلك بقي أمر سيدنا عيسى عليه السلام سرا من أسرار الزمان ، وسيبقى سرا في ضمير الزمان لا يعرب عنه لسان البحث . هذا فيما يتعلق بحقوق الله ، أما حقوق الخلق فلا تراها مفصلة

أحكامها ، بحكمة أصولها وأركانها ، في سيرة أحد من الأنبياء
وتعاليمهم ، غير محمد ﷺ .

أما بوذا فإنه منذ هجر أهله وعياله الى الصحاري والغابات لم يرجع
قط الى خليلته التي كانت حبيبة الى قلبه ، ولم ير ولده الوحيد مرة
اخرى ، وترك خلانه وأحبائه ، فخفف عن كاهله أعباء الحكم ،
وارتضى الموت آخر وسيلة له الى النجاة فكان الاجل المحتوم العناية
القصوى للحياة البشرية عنده . فمن ذا الذي يرضى بأن يتخذ من حياة
بوذا أسوة في هذه الدنيا التي لا بقاء لها ولا عمران الا بالحياة الاجتماعية
والروابط العمرانية والاواصر الانسانية ، ولا بد فيها من راع يرمى
رعيته ، وصديق يألف صديقه ، ووالد يشفق على ولده ، وأم تحن على
فلذة كبدها . وهل في حياة بوذا شيء من ذلك يكون به أسوة للجميع :
من الرهبان الذين انقطعوا للآخرة ، الى الأبناء ذوي العيال وأصحاب
الضياع والمزارع والمصانع والاموال ؟ كلا ثم كلا ، لم تكن سيرة بوذا قط
أسوة للهناء العائلي ، ولا لأهل الصناعات والتاجر ، ولو اتخذ اتباع بوذا
قدوة لهم من حياة بوذا لما قامت لهم هذه الدول في الصين واليابان وسيام
وتبت ويورما ، ولما صمرت للتجارة في بلادهم سوق ، ولا دب الحياة في
صناعاتهم ومصانعهم . ولو اختار أهل تلك البلاد سيرة متبوعهم سيرة
لهم وساروا عليها لا فقرت الأرض العامرة وتحولت الى صحاري قاحلة ،
ولا أصبحت المدن خرابا أو أرضا جرداء .

وأما موسى عليه السلام فلا نعلم عن حياته - حسب الاسفار الخمسة
من الثوراة - الا قتاله وقيادته في الحرب ويسالته فيها . أما النواحي
الأخرى من حياته كالحقوق في أمور الدنيا والفرائض والواجبات فلا
نتبينها بوضوح وجلاء ، لذلك يتعذر على المرء أن يتخذ منها أسوة في
أعماله ، ومن يحاول أن يقف على ما ينبغي أن تكون عليه العلاقة بين
الزوج وزوجه ، والولد ووالده ، وشروط الصداقة بين الصديقين

وأساليب الهدنة بين القرى بين المتقاتلين وكيف ينفق المرء أمواله وفيه ينفقها ، وكيف يغامل اليتامى والفقراء والمساكين ، فإن من يحاول معرفة ذلك من سيرة موسى عليه السلام فسيرى أن صحيفة حياته قد خلت من ذكر هذه الأمور ، مع أن موسى كان له زوج وأخوة وأقارب ، ولا ريب أن موسى كان يعاشرهم أحسن معاشرة فكان خير زوج لاهله وأفضل أخ لأخوته وأوفى صديق لأصدقائه ، والاسوة به في ذلك كله مرغوب فيها محمود أثرها ، لكن كتبهم التي استعرضت سيرته خالية من ذلك . والتاريخ لم يطرق سمعه شيء عن هذه الانباء من حياة موسى ليتسنى للناس أن يتخذوا منها أسوة في الحياة .

وكان لعيسى عليه السلام أم ، والانجيل يخبرنا بأنه كان له أخ وأخت بل إنه كان له والد أيضا كما يكون لعامة الابناء آباء وأمهات ، لكن قصة حياته لا تدلنا على كيفية معاملته لذويه وكيف كان يعاشرهم ، مع أن الدنيا معمورة بالأخوة والخلان وذوي القربى ، وستبقى حافلة بهم ، وقد اعتنت الديانات بحقوق هؤلاء وأولئك وفرضت كثيرا من فرائضها المتعلقة بحقوق الأسرة والعائلة ، وحثت على القيام بتلك الفرائض .

إن عيسى عليه السلام عاش عيشة المغلوبين المحكومين ، فلا غرو إذا لم نجد في حياته مثالا من واجبات الحاكم الغالب . ولم يكن له عليه السلام زوجة ، لذلك لا نرى في حياته مثالا لما ينبغي أن يتبادل الزوج والزوجة من واجبات وحقوق ، خصوصا وأن الذي بين الزوجين من الصلة أوثق وأشد من الذي بين الأولاد وآبائهم كما جاء في سفر التكوين من التوراة^(١) أن هذه الدنيا معظم سكانها يعيش عيشة الزواج والمناكة فليس له في حياة عيسى عليه السلام مثال . وإن العالم الذي يحتاج سكانه في حياتهم إلى أسوة تامة ليعلموا كيف تكون الرابطة بين الزوج وزوجه ،

(١) لعل المؤلف يشير إلى ما جاء في سفر التكوين (١ : ٢٧ و ٨ : ١٥ - ١٩) .

وبين الصديق وأصدقائه ، والأب وبنه والمقاتل وأعدائه ، والمهتدة وبين المتحارين وكيف تنعقد لا يستطيع أن يجد له أسوة في حياة من لا يجد لهذه الامور ذكرا في سيرته . ولو أن الناس في أيامنا هذه آثروا التأسى بحياة عيسى عليه السلام وأرادوا أن يعيشوا كما عاش لخربت الدنيا واستحال عمرانها خرابا يبابا ولأصبحت القرى مقابر تتردد في انحاءها اصوات البوم . أما الحضارة وتقدمها فسرعان ما يعتريها الزوال ويمحي اسمها ، وأوروبا المسيحية لن تبقى بعد ذلك يوما واحدا .

ان الحياة المثالية لن تكون أسوة للناس ما لم تكن أعمال صاحبها - الذي يؤسس دينا ويدعو الناس اليه - مثالا وأ نموذجاً لمن يدعو اليه ، ولا يتطرق الشك الى الناس بأن ما يدعو اليه هو مما يعمل به . ومن السهل أن يدعو الداعي الى فلسفة تحظى بإعجاب الناس ، وإلى فكرة يستحسنونها أو نظرية جديدة في الحياة تروق لهم . وكل ذلك مما يقدر عليه كثير من الناس متى شاءوا وأمين شاءوا . أما الذي لا يستطيع دائما فهو عمل الدعاة بما يدعون اليه وليست الافكار الصحيحة والنظريات الشائقة والاقوال الحسنة هي التي تجعل الانسان انسانا كاملا وتجعل من حياته أسوة للناس ومثلا أعلى في الحياة بل أعمال الداعي وأخلاقه هي التي تجعله كذلك . ولو لا ذلك لما كان هناك فرق بين الخير والشر ، ولما تميز المصلح عن غيره ، ولا امتلأت الدنيا بالثرثارين والمتفيهقين الذين يقولون ما لا يفعلون .

وهنا ينبغي لنا توجيه السؤال الى العالم اجمع : من ذا الذي تعد حياته أسوة للبشر ، وفيها المثل الاعلى للبشر ، من بين مئات الالوف من الرسل والانبياء وعظماء المصلحين ممن شرعوا للانسانية دياناتها وسنوا السنن للناس ؟

« تحب الرب إلهك من كل قلبك ومن كل نفسك ومن كل فكرك .
أحب أعداءك . من لطمك على خدك الايمن فحول له الآخر ايضا . من سخرك ميلا فاذهب معه ميلين . من أراد أن يخاصمك ويأخذ ثوبك

فاترك له الرداء أيضا . اذهب وبع املاكك واعط الفقراء . واعف عن
أخيك سبعين مرة . يمسر أن يدخل غني الى ملكوت السموات .
ان هذا وامثاله لا شك أنه من الموعظة الحسنة المحببة الى النفوس ،
لكنها لا تعد سيرة ما لم يقترن بها العمل . نعم انها قول لين وحديث
للزيد ، ولكن الذي لا يغلب عدوه كيف يتسنى له العفو ، ومن لا يملك
أو من لا يكون له مال كيف يتصدق على الفقراء والمساكين واليتامى ، وكيف
يقضي لهم حاجاتهم ؟ ومن لا زوج له ولا ولد ولا أهل كيف تكون حياته
أسوة للأزواج وذوي البنين والمتأهلين وهم الناس السذج تعمّر الدنيا
بهم ؟ ومن لم يتفق له أن يصفح عن أحد في حياته كيف يقتدي به من كان
شديد الغضب سريع البادرة ؟

الحسنات قسمان : قسم سلبي وآخر ايجابي . وأنت اذا اعتزلت الدنيا
في غار يسفح جبل تعبد فيه ربك ولم تبرحه طول حياتك ، تصرف فيه
أوقاتك بالتبتل الى الله ، فان احسن ما يقال في مدحك انك اتقيت الشر
ولم تقترب سيئة تلم عليها . وذلك من الحسنات ، الا انها حسنات
سلبية . ولكن ماذا فعلت من الناحية الايجابية من خير : هل حملت كلاً ،
أو نصرت مظلوماً ، أو كسبت معدماً ، أو اطعمت جائعاً ، أو كسوت
عارياً ، أو ساعدت فقيراً ، أو خذت عن ضعيف ، أو هديت ضالاً ؟ ان
الأخلاق الحسنة ومكارمها من العفو والسماحة والقرى ويذل المال والصدع
بالحق والحمية في قمع الباطل والجهاد في أداء الواجب لا تعد مكارم اخلاق
لأجل ترك الدنيا والتبتل في عزلة عن المجتمع ، وليست الحسنات من
الامور السلبية فحسب ، بل معظم الحسنات ترجع الى العمل الايجابي
الذي يقوم به المرء ، ولا يكفي فيها ترك المعاصي واجتناب السوء . وهذا
كله يدل على أن حياة العظيم لا تكون فيها الاسوة للناس ما لم تصدر عن
صاحبها الأعمال الايجابية المحمودة والأخلاق النافعة الكريمة مما يوافق
الحياة المثالية Idial- Life ، وأي عمل يعمل المتأسّي ان لم ير لمن يأتي به

أعمالا إيجابية تتم بها الحياة الصالحة في شتى أطوارها . ان الانسان ينشد مثالا يقتدي به في كل عمل يقدم عليه في غناه وفقره وفي سلمه وحرره ، ويتحرى السبيل الذي يسلكه اذا تزوج أو بقي عزبا ، ويريد النموذجا عاليا يأتى به اذا عبد ربه أو عاشر الناس ، ويحاول أن يلهم بالقوانين التي ينبغي العمل بها بالنسبة الى الراعي والرعية والحكام والمحكومين . جميع هذه الامور ينبغي للمرء أن يتخذ لنفسه القدوة فيها ، لأن الامم قد التوت عليها هذه المسألة فأهمها التماس الطريق الموصل الى حل هذه العضلات وتذليل هذه المصاعب ومعظم الشعوب تشعر بالحاجة الشديدة الى المثل العليا في ذلك لتخفف عن الانسانية آلامها وتأسو جراحها ، وهي متلهفة على مثال لذلك من الاعمال ، لا على مثال عليه من الاقوال .

ولست بمبالغ اذا قلت : ان التاريخ اصدق شاهد على أنه ليس في الدنيا أحد يصح أن تكون للانسانية أسوة من سيرته وحياته غير سيرة محمد ﷺ وحياته .

وليكن على ذكر منكم ما تحدثت به اليكم من قبل ، وهو ان حياة العظيم التي يجدر بالناس أن يتخذوا منها قدوة لهم في الحياة . ينبغي أن تتوفر فيها أربع خصال :

١ - أن تكون « تاريخية » ، أي ان التاريخ الصحيح المصحح يصدقها ويشهد لها .

٢ - أن تكون « جامعة » أي محيطة بأطوار الحياة ومناحيها وجميع شئونها .

٣ - أن تكون « كاملة » أي ان تكون متسلسلة لا تنقص شيئا من حلقات الحياة .

٤ - أن تكون « عملية » أي ان تكون الدعوة الى المبادئ والفضائل والواجبات بعمل الداعي وأخلاقه ، وأن يكون كل ما دعا اليه بلسانه قد حققه بسيرته وعمل به في حياته الشخصية والعائلية والاجتماعية ،

فأصبحت أعماله مثلاً علياً للناس يأتسون بها . وأنا لا أقول إن الأنبياء
صفرت صحائف حياتهم من هذه الميزة مدة وجودهم في الحياة الدنيا ، بل
أقول أن سيرتهم التي توجد الآن بين أيدي الناس لا تنص على هذه
الأمور ، ويخيل إلي أن الحكمة الإلهية في ذلك ترجع إلى أن أولئك الأنبياء
أنما بعثوا لأزمانهم وشعوبهم ، فكان الموفقون للخير من شعوبهم في
أزمانهم يرون سيرتهم فيأتسون بها ، ولم يكن هنالك حاجة إلى أن تبقى
سيرتهم معلومة للأجيال التالية بعدهم لأن النبوات ستختتم برسالة
محمد ﷺ الكاملة إلى الناس كافة في كل زمان ومكان ، فمست الحاجة إلى
أن تكون سيرته ﷺ معلومة على حقيقتها في كل زمان ومكان إلى يوم
القيامة ، ليتيسر الناس بها لجميع أمم الأرض . وهذا من اصدق البراهين
على كون محمد ﷺ خاتم النبيين ولا نبي بعده (ما كان محمد أباً أحد من
رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين) الأحزاب : ٤٠ .

المحاضرة الثالثة

السيرة النبوية من الناحية التاريخية

أيها السادة : قلنا فيما سبق إن الحياة المثالية جدير بها أن تكون مشتملة على خصال أربع . وستنظر الآن الى سيرة محمد صلى الله عليه وسلم من هذه النواحي ، وأولها أن تكون سيرة « تاريخية » .

لقد شهدت الدنيا أصدق شهادة ، ثم ازداد ذلك ثبوتا على الأيام ، بأن الاسلام لم يقتصر على حفظ سيرته صلى الله عليه وسلم ، بل توسع في ذلك الى ما يتعلق بها من كل النواحي ، وصان هذه الامانة القدسية فلم تلمسها يد الضياع ، ولم تعيث بها عوامل الدهر ، الى درجة أن العالم كله يقف من ذلك موقف العجب والاستغراب . والذين وقفوا حياتهم منذ العصر النبوي على حفظ اقوال النبي صلى الله عليه وسلم ورواية أحاديثه وكل ما يتعلق بحياته أدوها الى من ضبطوها بعدهم وكتبوها وصاروا يسمون « رواة الحديث » أو « المحدثين » و« أصحاب السير » ، وهم طبقات متسلسلة من « الصحابة » و« التابعين » و« تابعي التابعين » حتى وافي القرن الرابع . فلما كملت هذه الذخيرة التاريخية جمعا وكتابة وتدوينا جعل العلماء يكتبون سير هؤلاء الرواة من الصحابة والتابعين ومن بعدهم من العلماء الذين رووا شيئا مما يتعلق بحياة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكتبوا أسماءهم وكنائهم وأنسابهم ومنشأهم وأخلاقهم

وعاداتهم ، وبالجمله أحصوا شئون حياتهم كلها حتى أصبح ما كتبوا في هذا الباب علما مستقلا سمي فيما بعد علم أسماء الرجال (١) .

وقد بلغ عدد الصحابة رضي الله عنهم في آخر حياة النبي صلى الله عليه وسلم - عندما حج حجة الوداع - مائة ألف ، ومن هؤلاء عشرة آلاف صحابي مذكورة اسماءهم وأحوالهم في كتب التاريخ التي أفردت لتدوين أحوالهم خاصة . وإن التاريخ لم يهتم بتدوين أحوالهم ولم يحفظ لنا شئونهم إلا لأن كل واحد منهم حفظ شيئا من أقوال النبي صلى الله عليه وسلم وأفعاله وتصرفاته وهديه وسيرته .

لقد توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم سنة ١١ من الهجرة النبوية ، وبقي فريق من كبار الصحابة بعده الى سنة ٤٠ ، وبقي بعد ذلك من الصحابة الذين كانوا أحداثا في حياة النبي صلى الله عليه وسلم عدد غير قليل . فلما انقرض ذلك الجيل لم يبق من الصحابة أحد ، وانطفأ كل

(١) إن العالم الألماني المعروف الدكتور سيرنكر كان في سنة ١٨٥٤ وما بعدها موظفا في ديوان من دواوين المعارف في ايةالة البينغال وأمين السر للجمعية الاسيوية فيها . وقد عني بكتاب المغازي للواقدي ، ونشر بعناية فان كرامر وتصحيحه سنة ١٩٥٦ ، وبعنايته طبع كتاب الاصابة في أحوال الصحابة للمحافظ ابن حجر الميمني . وقد ادعى أنه أول أوربي كتب في سيرة محمد ﷺ معتمدا على المصادر العربية الأولى ولم يعتمد في تأليفه إلا عليها . ومع أنه - في الحقيقة - لم يكتب كتابه دفاعا عن صاحب الرسالة ﷺ بل كان متحاملا عليه ومخالفا له ، إلا أنه قال في مقدمته بالإنجليزية على كتاب الاصابة المطبوع في كالكوناست سنة ١٨٥٣ - ١٨٦٤ : « لم تكن فيما مضى أمة من الأمم السالفة ، كما أنه لا يوجد الآن أمة من الأمم المعاصرة ، أتت في علم أسماء الرجال بمثل ما جاء به المسلمون في هذا العلم العظيم الخطر الذي يتناول أحوال خمسمائة ألف رجل وشئونهم » .

سراج أوقد بنور النبوة . واليكم أسماء آخر من مات من الصحابة ،
والبلاد التي ماتوا فيها ، وسنوات وفاتهم :

آخر الصحابة موتا	المدن التي توفوا فيها	سنة الوفاة
١ - أبو أمامة	الشام	٨٦ هـ
٢ - عبد الله بن الحارث بن جزء	مصر	٨٦ هـ
٣ - عبد الله بن أبي أوفى	الكوفة	٨٧ هـ
٤ - السائب بن يزيد	المدينة	٩١ هـ
٥ - أنس بن مالك	البصرة	٩٣ هـ

وأنس بن مالك هذا الذي كان آخر من بقي من الصحابة كان الخادم
الخاص لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، استمر في خدمته عشر سنوات
متوالية .

أما التابعون الذين هم تلاميذ الصحابة فيبدأ تاريخ طبقتهم من السنة
الاولى للهجرة ، ومنهم من ولد في عهد النبي صلى الله عليه وسلم لكنه لم
يتشرف برؤيته ، أو كان في العهد النبوي صغير السن فلم يحظ بالصحبة
ولم يقدر له أن ينال قبسا من مشكاة النبوة ، كعبد الرحمن بن الحارث
المولود سنة ٣ هـ ، وقيس بن أبي حازم المولود سنة ٤ هـ ، وسعيد بن المسيب
المولود سنة ١٤ هـ . وهؤلاء التابعون الذين ينزلون المنزلة الثانية بعد
الصحابة في نشر الاسلام وتبليغ دعوته وقد حملوا الرسالة المحمدية الى
الانحاء النائية والبلاد المترامية الاطراف ، ولم يكن لهم هم في الدنيا الا
حفظ الدين ونشر أحكامه ، وتبليغ الاسلام وتعميم سنته وآدابه ،

والتعريف بسيرة الرسول صلى الله عليه وسلم وهدية . وقد ذكر ابن سعد في الطبقات ١٣٩ من التابعين أهل الطبقة الأولى الذين كانوا في المدينة وأدركوا كبار الصحابة وسمعوا منهم أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم ورووها عنهم . وذكر ١٢٩ من الطبقة الثانية لقوا عامة الصحابة ورووا عنهم . أما الطبقة الثالثة من التابعين فهم الذين حظي الواحد منهم برؤية صحابي واحد أو عدة من الصحابة ، وعدد هؤلاء ٨٧ ، فمجموع عدد التابعين ٣٥٥ في مدينة واحدة وهي مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم ، فقيسوا على ذلك عدد الذين أخذوا عن الصحابة في بقية المدن الإسلامية التي انتشر الصحابة فيها من مكة إلى الطائف والبصرة والكوفة ودمشق واليمن ومصر وغيرها . هؤلاء - كما علمتم - لم يكن لهم إلا نشر رسالة الإسلام وتبليغ أقوال النبي صلى الله عليه وسلم وهدية وسيرته . وانظروا إلى اهتمام المؤرخين باستيعابهم واستقصاء أحوالهم في احصاء الأحاديث المروية عن الصحابة . واليكم أسماء بعض الصحابة الذين امتازوا بكثرة ما يحفظونه من الحديث النبوي وعدد ما روي عنهم منه :

اسماء الرواة من الصحابة	عدد مروياتهم	سنة وفاتهم
١ - أبو هريرة	٥٣٧٤	٥٩ هـ
٢ - عبد الله بن عباس	٢٦٦٠	٦٨ هـ
٣ - عائشة الصديقة	٢٢١٠	٥٨ هـ

اسماء الرواة من الصحابة	عدد مروياتهم	سنة وفاتهم
٤ - عبد الله بن عمر	١٣٦٠	٧٣ هـ
٥ - جابر بن عبد الله	١٥٦٠	٧٨ هـ
٦ - أنس بن مالك	١٢٨٦	٩٣ هـ
٧ - أبو سعيد الخدري	١١٧٠	٧٤ هـ

وعلى هؤلاء يعتمد في نقل السنة النبوية . وإلى هؤلاء يرجع الفضل في حفظ الرسالة المحمدية . وإن رواياتهم هي التي تدل على النبوة الواضحة والمحجة البيضاء ، فإذا نظرنا إلى أعوام وفاتهم بدا لنا أن الله عز وجل قد نسا في آجالهم وأطال حياتهم وأخر موتهم ، حتى تسنى لكثير من الناس أن يتلقوا عنهم ما حفظوا من أمانات الحديث النبوي ، ويعروا أقوالهم ، وينشروا رواياتهم . ولم يكن العلم يومئذ إلا معرفة هذه الأمور . وبه كانوا ينالون شرف الدين وعزة الدنيا . فكان الآلاف من الصحابة يبلغون إلى الجليل الذي بعدهم ما رأوه بأعينهم وسمعوه بأذانهم من أحوال النبي صلى الله عليه وسلم وأقواله وتشريعه ، لأنه صلى الله عليه وسلم هو الذي أمرهم بذلك فقال : « بلغوا عني » و « ليبلغ الشاهد الغائب » ، فكانوا يعلمون أولادهم وإخوانهم وأصحابهم وأقرباءهم من الدين والعلم كل ما كانوا يعلمونه ، فكان ذلك شغلهم وهمهم أثناء الليل وأطراف النهار وفي الغدو والأصال ، فتعلم النشء الاسلامي الأول حقائق رسالة الاسلام وتفاصيل حياة الرسول منذ ترعرعوا في بيئاتهم التي كانت ساحات للعلم ومدارس يتقلبون في حجرها ، وما لبثوا أن قاموا

مقام الصحابة وسدوا مسدودهم في حفظ هذه الاحاديث ووعى هذه الرويات ، فكان هؤلاء التابعون يحفظونها كلمة كلمة ، ويعيدون روايتها بالفاظها دون أن يخرموا منها كلمة . وكما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحرص الصحابة على أن يبلغوا عنه ويفقهوا تشريعه وينشروا دعوته وأحكامه ، كان ينهى الناس عن أن يتقولوا عليه ما لم يقل ، أو ينسبوا اليه ما لم يفعل ، وكان ينذر من يتعمد الكذب عليه بأنه سيتبوأ نار جهنم ، لذلك كان كبار الصحابة ترتعد فرائصهم وتنتقع وجوههم عند رواية أحاديث الرسول خوفاً من أن يكذبوا عليه أو ينحلوه ما لم يقل . وكان عبد الله بن مسعود إذا قال « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم » استقلته الرعدة وقال « هكذا » أو « نحو ذا » أو « قريب من ذا » .

ومن المعلوم أن ذاكرة العرب كانت قوية ، وكانوا يحفظون آلافاً من الشعر ، وينشدونها عن ظهر قلب بلا زيادة ولا نقص . ومن طبيعة البشر أنهم إذا أكثروا استعمال قوة من قواهم تزداد هذه القوة قوة وحيوية . وقد مرّن الصحابة والتابعون على حفظ الاحاديث حتى بلغوا في ذلك شأواً بعيداً ، وكانوا إذا سمعوا حديثاً وعوه وحفظوه كما يحفظ الصبيان سورة الفاتحة في هذه الايام . والمحدثون كانوا يحفظون ألفاً من أحاديث الرسول بل مئات الآلاف ويكتبون بعد ذلك ما كانوا يسمعون ويحفظون ، لكنهم لا يبلغون منزلة الاجلال والاكرام بين العلماء وعند الناس الا بما يحفظونه من الرويات عن ظهر قلب ، ولذلك كانوا يخفون كراريسهم وصحائفهم عن الناس ويكتمونها لئلا يظن الناس بهم أنهم يعتمدون في علمهم على هذه الصحائف ولا يحفظون محتوياتها في صدورهم .

سادتي . ان بعض المستشرقين ودعاة المسيحية - وفي مقدمتهم السير

وليم ميور وغولد زيهره أرادوا أن يشككوا الناس في رواية الحديث عما زعموه من أن تدوين السنة بدأ بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم بتسعين سنة ، وقد ذكرت لكم فيما سلف كيف كان الصحابة والتابعون يعتنون بالأحاديث ويحفظونها ويحفظون في روايتها حتى لا يبقى مجال للشك في صحتها وصدقها .

والذي دعا الصحابة الى أن لا يقيدوا الأحاديث بالكتابة ثلاثة امور :

اولها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهاهم في بداية الامر عن أن يكتبوا عنه غير القرآن لكيلا يلتبس القرآن بغيره ، فلما حفظ القرآن وصار معروفا لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه أذن للصحابة بأن يكتبوا ما يسمعون منه ، ومع ذلك بقي الصحابة يحفظون في ذلك احتياطا شديدا وكان معظمهم يتحرجون من كتابة الحديث . وثانيها أن الصحابة كانوا يخشون أن يعتمد الناس في الحديث على الكتابة فيقتصرون في حفظها وتدبرها مرتكتين على أنها مكتوبة عندهم ويمكنهم الرجوع اليها عند الحاجة . وقد وقع الذي ظنوه ، فانه كلما ازداد الاهتمام بالكتابة والتدوين قلت العناية بالحفظ . وكذلك كان الصحابة يخشون أن يدعي كل من تكون الأحاديث المكتوبة في متناول يده بأنه عالم ، وقد وقع ما كانوا يحذرون . وثالثها أن العرب كانوا يعدون الاعتماد على الكتابة اعترافا بنقص مواهبهم وضعف حفظهم وفي ذلك غرض من شرفهم ، فكانوا يعتمدون على حفظهم ، واذا كتبوا شيئا مما يحفظون كتبوا أمره .

كان المحدثون يرون ان الحفظ في الصدور أصون من التدوين في السطور لأن ما يتناقله الناسخون بالكتابة معرض للتحريف ، واما ما يتلقاه الحافظون الضابطون عن الحافظين الضابطين فانه لا يتطرق اليه

الخطأ ولا يصيبه أي تحريف .

وانني لاكشف القنصاع لأول مرة في ناديمكم هذا بأن من زعم أن الاحاديث النبوية لم تدوّن الى مائة سنة أو تسعين سنة قد أخطأ ، والتاريخ يعارضه . والسبب في هذا الخطأ أن أول كتاب في الحديث النبوي كتاب الموطأ لمالك بن أنس ، وأول كتاب في السيرة كتاب المغازي لابن اسحاق ، وهذان الامامان الجليلان كانا متعاصرين وتوفي الأول سنة ١٧٩هـ والثاني سنة ١٥١هـ ، فاعتبرا والعقود الأولى من القرن الثاني بداية تدوين الاخبار والسير ، والأمر ليس كذلك ، فان بواكير التدوين ابتدأت قبل ذلك بكثير ، وقد كان أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز المتوفي سنة ١٠١هـ عالماً جليلاً ولي إمارة المدينة ثم استخلف سنة ٩٩هـ وقد عهد الى القاضي أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم - الذي كان إماماً في الحديث والخير - أن يبدأ في تدوين سنن النبي صلى الله عليه وسلم واخباره ، لانه خاف على العلم ان يرفع شيئاً فشيئاً خاف درس العلم وعفائه ، وقد ذكر هذا في تعليقات البخاري والموطأ لمالك والمسند للدارمي . فقام بذلك ابو بكر بن حزم ، وكتبت الاحاديث والاخبار والسنن في القراطيس ، وأرسلت الى دار الخلافة بدمشق ونسخت في الصحف والكتب وبعث بها الى البلاد الاسلامية وكبريات المدن يومئذ^(١) . فأبو بكر هذا الذي علمتم مكانته من العلم والفضل وكان قاضياً بالمدينة المنورة ، هو الذي اختاره عمر بن عبد العزيز لهذا العمل الجليل ، لعلمه وفضله ولأن حالته عمرة كانت من كبريات تلاميذ أم المؤمنين عائشة ، وكان ما روته حالته عمرة عن أم المؤمنين عائشة محفوظاً عنده ، فأوعز اليه عمر بن عبد العزيز بتدوين مرويات خالقه وقد اختصها بالذكر في كتابه اليه .

(١) مختصر جامع بيان العلم للناظر بن عبد البرص ١٣٨ طبع مصر .

كتابة الحديث في العهد النبوي

وإني لا أعدو الحق إذا قلت : ان كتابة الحديث والسنن والاختبار
والسيرة قد بدىء بها في عهد النبي ﷺ ، فقد جاء في باب كتابة العلم من
صحيح البخاري أن رسول الله ﷺ أمر فكتبت خطبته التي خطبها يوم فتح
مكة إجابة لسؤال صحابي من اليمن يدعى أبا شاه . وقد أرسل رسول
الله ﷺ رسائله إلى الملوك التي يدعوهم فيها إلى الإسلام وكلها كانت
مكتوبة . والكتاب الذي أرسله إلى المقدس ملك مصر قد وجد ملصقا
بدقة كتاب في أحد الأديرة المسيحية في مصر ، ويغلب على الظن أنه هو
أصل الكتاب المرسل من النبي ﷺ ونخطه عربي قديم وعبارته وترتيب
كلماته التي تم في الخاتم هي عين ما يروى في الأحاديث ، وهذا من
أصدق الأدلة على صدق الأحاديث المروية وصحتها . ويقول أبوهريرة :
ما من أحد أحفظ مني لحديث رسول الله ﷺ ولا أكثر مني رواية له ، غير
عبد الله بن عمرو بن العاص لأنه كان يكتب كل ما يسمع من النبي ﷺ
ولم أكن أكتب (صحيح البخاري : باب كتابة العلم) . وفي سنن أبي
داود ومسنند الإمام أحمد أن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : كنت أكتب
كل شيء أسمعه من رسول الله ﷺ أريد حفظه ، فنهتني قریش عن ذلك
وقالوا : تكتب ورسول الله ﷺ يقول في الغضب والرضا ! فأمسكت ،
حتى ذكرت ذلك لرسول الله ﷺ فقال : « اكتب » فوالذي نفسي بيده ما
خرج منه إلا حق . وأوما بأصبعه إلى فيه حين قال ذلك (١) . وسعى عبد

(١) مسند أحمد ٢ : ١٦٢ و ١٩٢ و سنن أبي داود ٢ : ٢٢ و جامع بيان

الله بن عمرو بن العاص صحيفته هذه (الصادقة) وكان يقول : لقد حبيب الحياة إليّ أمران : أحدهما هذه « الصادقة » . . ثم قال : وأما الصادقة فهي صحيفة ما كتبت فيها إلا ما سمعت أذناي من رسول الله ﷺ ويقول مجاهد : رأيت عند عبد الله بن عمرو كتابا ، فسألته : ما هذا ! فقال : هذه « الصادقة » فيها ما سمعته من رسول الله ﷺ ليس في ذلك بيني وبين رسول الله ﷺ أحد^(١) .

وفي صحيح البخاري أن النبي ﷺ أمر بعد هجرته الى المدينة أن يحصى له كم عدد الذين يلفظون بالاسلام فأحصوا فكان عددهم خمسمائة والفا . وأمر ﷺ فكتبت أحكام الزكاة وما تجب فيه ومقادير ذلك فكتبت مشروحة مفصلة في صفتين ، وبعث بصورة ذلك الى أمراء البلاد وولاتها ، وبقيت محفوظة في بيت أبي بكر الصديق وأبي بكر بن عمرو ابن حزم^(٢) . وكان عند عمال الزكاة رسائل فيها أحكام الزكاة . وكان عند عليّ صحيفة في قراب سيفه كتبت فيها أحاديث تتعلق بالأحكام ورآها الناس لما سألوه عن ذلك (صحيح البخاري ٢ : ١٠٨٤ و ١٠٢٠) . وفي هدنة الحديبية التي كانت بين المسلمين ومشركي قريش أمر رسول الله ﷺ عليا فكتب كتاب الهدنة في نسختين أعطى المشركين نسخة منها وبقيت النسخة الأخرى عند النبي ﷺ (ابن سعد في المغازي ص ٧١) . ولما ولي رسول الله ﷺ عمرو بن حزم اليمن وبعثه اليها اعطاه أحكاما مكتوبة في الفرائض والصدقات والسديات (كنز العمال ٣ : ١٨٦) . وتلقى عبد الله بن حكيم كتابا من رسول الله ﷺ فيه أحكام

(١) طبقات ابن سعد ٢/٢ - ١٢٥ .

(٢) الدار قطنى في كتب الزكاة ٢٠٩ .

الحيوانات الميتة (المعجم الصغير للطبراني ص ٢١٧) . ولما أراد وائل بن حجر أن يرجع الى بلاده حضرموت ناوله رسول الله ﷺ كتابا فيه أحكام الصلاة والصوم والربا والخمر وغير ذلك (الطبراني في الصغير ص ٢٤٢) . ولما وجه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب السؤال الى أصحاب رسول الله ﷺ إن كان عند أحد منهم سنة عن النبي ﷺ في نصيب المرأة من دية زوجها قام الضحاک بن سفيان فقال : نعم عندنا كتاب من رسول الله ﷺ يبين فيه ذلك (الدارقطني ٢ : ٤٨٥) .

وكتب عمر بن عبد العزيز في خلافته الى المدينة يسأل عن كتاب رسول الله ﷺ في أحكام الصدقات فوجدت نسخته عند آل عمرو بن حزم (الدارقطني ٤٥١) .

وكان مروان قد خطب في الناس فذكر مكة وحرماتها ، فقال رافع بن خديج بصوت يسمعه الناس : والمدينة حرم حرما رسول الله ﷺ ، وهو مكتوب عندنا في أديم خولاني إن شئت نقرئكه فعلنا . فناداه مروان : أجل قد بلغنا ذلك (مسند الامام أحمد بن حنبل : ١٤١) . وأرسل الضحاک بن قيس كتابا الى النعمان بن بشير يسأله فيه عن السورة التي كان رسول الله ﷺ يقرأها في صلاة الجمعة غير سورة الجمعة فكتب اليه يقول كان يقرأ « هل أتاك » (صحيح مسلم) . وكتب عمر بن الخطاب الى عتبة بن فرقد كتابا ذكر فيه أن رسول الله ﷺ نهى عن لبس الحرير (صحيح مسلم) . وقد ثبت عندي بالدلائل الواضحة أن كبار الصحابة رضي الله عنهم أرادوا أن يدونوا السنن والأحكام ، بل قد فعل ذلك بعضهم ، وقد جمع أبو بكر في خلافته الأحكام والسنن في كتاب ثم بدا له أن يحويه (تذكرة الحفاظ للذهبي) ، وعزم عمر بن الخطاب أيام خلافته على جمع السنن ثم بدا له ألا يفعل ، وقد ذكرنا آنفا أن عبد الله بن عمرو بن

العاص جمع باذن رسول الله ﷺ ما كان يسمعه منه في صحيفة وكان الناس يقصدونه لبروها فيطلبهم عليها (سنن الترمذي ٥٨٦) وأتى عبد الله بن عباس بسجل فيه فتاوي علي بن أبي طالب (مقدمة صحيح مسلم) وكان لمرويات عبد الله بن عباس كراريس عدة ، وجاء قوم من أهل الطائف بكراسة منها لبروها عنه (العلل للترمذي ص ٦٩١) . وكان سعيد بن جبير يكتب روايات عبد الله بن عباس (الدارمي ٦٩) وبقيت صحيفة عبد الله بن عمرو (الصادقة) موجودة عند حفيده عمرو بن شعيب (سنن الترمذي ٦١ و ١١٣) وكانوا يضعفون عمرو بن شعيب لأنه يروي من الصحيفة وكان ينبغي له ان يروي من حفظه . وجمع وهب التابعي روايات جابر بن عبد الله وكانت عند اسماعيل بن عبد الكريم وضعفه لاجل ذلك (تهذيب التهذيب لابن حجر ١ : ٣١٦) . وروى سليمان بن سمرة بن جندب أنه كان عند أبيه صحيفة فيها أحاديث . وكذلك روى ابنه حبيب بن سليمان (تهذيب التهذيب ٤ : ١٩٨) وجمع همام بن منبه روايات أبي هريرة ، وهو أكثر الصحابة رواية وأوعاهاهم حفظا لأحاديث الرسول ﷺ ، فصارت تعرف صحيفته بين المحدثين بصحيفة همام ، وقد أوردها الامام أحمد بن حنبل في الجزء الثاني من مسنده (ص ٣١٢ - ٣١٨ الطبعة الاولى) . وكذلك بشير بن نهيك كتب مروياته عن أبي هريرة في كتاب وقراه عليه (كتاب العلل للترمذي ص ٦٩١ . والدارمي ص ٦٨) وذكر ابن حجر في كتابه فتح الباري أن أبي هريرة جاء برجل الى بيته وأراه أوراقا وقال : هذه رواياتي . وقال الذي روى ذلك انها لم تكن مكتوبة بيده (فتح الباري ١ : ١٨٤ - ١٨٥) وكان أنس بن مالك . وهو معروف بكثرة الرواية . يقول لأولاده :

(١) والسنن الكبرى للبيهقي ١٠ : ٢٨١

يا بني اكتبوا العلم وقيدوه بالكتابة (الدارمي ص ٦٨) . وكان تلميذه
 ابيان يكتب رواياته بين يديه (الدارمي ص ٦٨) . وروي عن سلمى
 قالت : رأيت عبد الله بن عباس يستملي ابا رافع خادم رسول الله ﷺ ما
 كان ﷺ يفعل أو يقول (طبقات ابن سعد ٢/٢ : ١٢٣) . والواقدي
 وهو من متقدمي المصنفين في السيرة النبوية يقول : رأيت عند عبد الله بن
 عباس الكتاب الذي أرسله رسول الله ﷺ الى المنذر بن ساوى سيد عمان
 مع كتب أخرى (زاد المعاد ٢ : ٥٧) . وفي تاريخ الطبري أن عروة بن
 الزبير كتب جميع ما كان في غزوة بدر مفصلا الى عبد الملك الخليفة الأموي
 (الطبري ١٢٨٥) .

وكان عبد الله بن مسعود - وهو الذي كان يكثر الدخول على رسول
 الله ﷺ ليلا ونهارا حتى خيل الى الناس أنه من أهل البيت - يشكو الناس
 أنهم يكتبون منه عن رسول الله ﷺ ، لأنه كان لا يستحل أن يكتب غير
 القرآن حرصا منه على القرآن أن يلتبس به غيره (الدارمي ص ٦٧) .
 ويقول سعيد بن جبير التابعي كنت أكتب على الأقتاب ما أسمع في الليل
 من عبد الله بن عمر وعبد الله بن عباس ، فإذا أصبحت كتبه واضحا
 (الدارمي ص ٦٩) . وكان أصحاب البراء بن عازب يكتبون عنده
 رواياته (الدارمي ص ٦٩) . وكان نافع - وقد صحب ابن عمر ثلاثين
 سنة - يملئ على الناس (الدارمي ص ٦٩) . وعبد الرحمن بن عبد الله بن
 مسعود أخرج كتابا وقال : وايم الله هذا ما كتبه يد ابن مسعود (جامع
 بيان العلم لابن عبد البر ص ١٧) . وقال سعيد بن جبير : كنا نختلف
 في بعض الأمور فنكتب ذلك ثم نأتي عبد الله بن عمر فنعرضه عليه
 ونخفي عنه ما كتبنا ولو علم به لكانت الفصيل بيننا وبينه . أي انه لا يأذن
 لهم بحضور مجلسه (جامع بيان العلم ٣٣) ويقول الأسود التابعي :

وقعت أنا وعلقة على صحيفة جثا بها الى ابن عمر فمحاها (جامع بيان العلم ٣٣) . وأن زيد بن ثابت - وهو من كتبة الوحي - كان لا يرى كتابة شيء إلا القرآن ، فاحتال مروان على أن أجلسه بين يديه وأجلس كاتباً من وراء الستر يكتب ما يقول . وفعل مثل ذلك معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه فاستملاء حديثاً ، ولكن زيد بن ثابت فطن لذلك ، فالحج بمحوه حتى محي (مسند أحمد ٥ : ١٨٢) .

سادتي . لعلكم سئمت سماع الاسماء ، وضجرتكم بهذه الاخبار ، ومثلتم ما اقتبسته لكم من هذه النصوص ، فمعذرة وعفوا . ولكتنا قد بلغنا الى حيث يتبين لنا الطريق واضحاً ، وتبدلنا الحقيقة جلية .

لقد حاولت أن أثبت لكم هذه الحقيقة الراحنة ، وهي أنه اذا كان لا يوثق إلا بما كتب ودون ، فأصحاب النبي ﷺ كتبوا بأيديهم في عهده ﷺ ، وجمعوا من أحاديثه في حياته ، وتركوا ذلك لمن بعدهم والذين جاءوا بعدهم أدخلوا في كتبهم . ولا أعدوا الحقيقة اذا قلت : ان التابعين رضي الله عنهم جمعوا جميع الروايات في عهد الصحابة ، وكتبوا في حياتهم ما وصل الى علمهم من الاخبار والشئون وبحثوا عن ذلك بحثاً طويلاً ، ويذلوا فيه جهودهم وسافروا له ، وطرقت أبواب العلماء والمحدثين ، حتى لقد كانوا يظفون لاجل الحديث الواحد مسافة طويلة وشقة بعيدة . ومن أشهرهم محمد بن شهاب الزهري ، وهشام بن عروة بن الزبير ، وقيس بن أبي حازم ، وعطاء بن أبي رباح ، وسعيد بن جبير ، وأبو الزناد وغيرهم . إن علماء التابعين - وكانوا يعدون بالآلاف - جابوا البلاد ، وجالوا خلال الديار وطروا الصحاري والمقار وشدوا الرحال الى أصحاب النبي ﷺ ، وكذلك فعل تلاميذهم ، ليروا أحاديث رسول الله ﷺ ، فجمعوا لنا هذه الذخيرة العلمية ، وربما سافروا وقطعوا مئات

الاميال للحديث واحد . وان محمد بن شهاب الزهري - وهو الامام في الحديث والسيرة - كتب كل ما سمع مما يتعلق برسول الله ﷺ حتى قال عنه أبو الزناد : كنا نكتب الحلال والحرام وكان الزهري يكتب كل شيء (جامع بيان العلم ص ٣٧) . ويقول طاوس بن كيسان : كنت انا والزهري رفيقين في طلب العلم ، فقلت : لا أكتب إلا السنن ، فكتبت ما يتعلق برسول الله ﷺ ، وقال الزهري : أكتب هذا وكل ما يتعلق بأصحاب النبي ﷺ فإنه من السنة . فقلت : ليس ذلك من السنة ، ولم أكتب ذلك وكتبه الزهري ففاز وخسرت (طبقات ابن سعد ٢/٢ : ١٣٥) . وهذا قطرة من بحر . وان المؤمنين من التابعين كانوا يكتبون الاحاديث والاختيار ، والزهري واحد منهم ، وان ما كتبه الزهري وحده بلغ فيما رواه معمر أن الدفاتر من علم الزهري حلت على الدواب بعد قتل الوليد وكانت في خزانته .

ولد الزهري سنة ٥٠ للهجرة وتوفي سنة ١٢٤ ، وهو قرشي نسبا ، وقد بذل جهده في جمع الروايات عن سير النبي ﷺ وهدية واحاديثه حتى لقي في طلب العلم عناء ونصبا ، كما يدل عليه قول المؤرخين : انه كان يطوف على بيوت الانصار في المدينة ، ويغشى كل بيت منها ، ويسأل عن احاديث النبي ﷺ وهدية وسيرته كل من يلقاه من نساء ورجال وشيوخ وشباب ، حتى كان يسأل العواتق في خدورهن عن احوال النبي ﷺ واقواله ويكتبه (تهذيب التهذيب . في ترجمة الزهري) . وكان لا يزال بعض الصحابة احياء في حياة الزهري . ثم تلقى عن الزهري كثير من تلاميذه العلماء ويبلغ عددهم المئات ، ولم يكن لهم شغل إلا جمع الاحاديث واقوال الصحابة وتعليم الامة الاسلامية الدين ونشر السنة ، وقد انقطعوا كلهم لهذا العمل وفرغوا أنفسهم له .

ومن أعظم الخطأ في تاريخ تدوين الحديث دعوى بعض الناس أنه بدأ بعد المائة ، وذلك تبعاً لخطأهم في تحديد زمن التابعين . فإنه لما بلغهم أن التدوين بدأ في عهد التابعين ، وهم يعلمون أن بعض الصحابة امتد بهم العمر إلى أواخر المائة الأولى للهجرة ، ظنوا أن عهد التابعين يبدأ بعد انقضاء زمن الصحابة ، فذهبوا إلى أن التدوين بدأ بعد المائة ، وهذا كله خطأ . والحق أن عنوان « التابعين » يطلق على الذين لم يدركوا النبي ﷺ أو ولدوا في أواخر عهده فلم يروه وإنما رأوا أصحابه وأخذوا عنهم ، وعلى أقل تقدير يعد تابعياً من ولد بعد وفاة النبي ﷺ (ربيع الأول سنة ١١) ، وأعمال التابعين التي تنسب إليهم يبدأ عهدها من سنة ١١ هـ ، وليس من المحتتم أن لا ينسب إلى التابعين إلا ما صدر عنهم بعد وفاة آخر الصحابة بقاء على قيد الحياة ، فأخر الصحابة بقاء على قيد الحياة امتد زمنه إلى أواخر المائة الأولى للهجرة ، وأعمال التابعين - ومنها البدء بتدوين الحديث - ينبغي أن تنسب إلى زمنهم الذي يبدأ من بعد سنة ١١ التي انتقل فيها النبي ﷺ إلى الرفيق الأعلى .

والحق أن جمع الأحاديث والأحكام والأخبار وتدوينها عند المسلمين له ثلاثة أطوار : الطور الأول هو الذي جمع فيه الرجال ما عندهم من العلم . والطور الثاني هو الذي قام فيه أهل كل مصر من الأمصار الإسلامية بتدوين ما عند علماء ذلك المصير من العلم في كتب خاصة بأهل مصرهم . والطور الثالث هو الذي جمعت فيه علوم الدين الإسلامي كلها من جميع الأمصار ، ودونت في الدواوين الكبرى والمصنفات الجليلة وهي التي صارت إلينا ، ولا تزال بين أيدينا .

والطور الأول استمر إلى سنة ١٠٠ هـ وامتد الطور الثاني إلى سنة ١٥٠ هـ ، وبدأ الطور الثالث من سنة ١٥٠ هـ إلى القرن الثالث للهجرة

أو بعده بقليل . وإن الطور الأول هو الذي كان فيه الصحابة وكبار التابعين . والطور الثاني هو الذي كان فيه صفار التابعين وتابعو التابعين . والطور الثالث هو عهد المحدثين وأئمة السنة كالامام محمد بن اسماعيل البخاري ، والامام مسلم صاحب الجامع الصحيح ، والامام الترمذي ، والامام أحمد بن حنبل وغيرهم من المحدثين وما جمع في الطور الأول دوّن في كتب الطور الثاني ، وما دوّن في الطور الثاني جمع ونظم في كتب الطور الثالث . ونرى أمامنا أكثر ما جمع في الطورين الثاني والثالث مدونا في كتب كثيرة تشتمل على آلاف من الاوراق هي في الواقع من أئمة الذخائر العلمية في العالم ، بل لا يوجد في جميع ذخائر الدنيا العلمية أوثق منها سنداً وأصح تاريخاً ورواية . ولقد صدق الاستاذ العلامة الكبير الشيخ شبلي النعماني حين قال : « لما أرادت الامم الاخرى من غير المسلمين أن تجمع في أطوار نهضتها أقوال رجالها ورواياتهم كان قد فات عليهم زمن طويل ، وانقضى بينها وبينهم عهد بعيد ، فحاولوا كتابة شئون أمة قد خلت ، ولم يميزوا بين غث ذلك الماضي وسميته ، وصحيحه وسقيمه ، بل لم يعلموا أحوال رواة تلك الاخبار ولا اسماءهم ولا تواريخ ولادتهم ، فاكتفوا بأن اصطفوا من أخبار هؤلاء الرواة المجهولين ورواياتهم ما يوافق هواهم وبلائهم يبتهم وينطبق على مقاييسهم . ثم لم يمض غير زمن يسير حتى صارت تلك الخرافات معدودة كالحقائق التاريخية المدونة في الكتب وعلى هذا المنهج السقيم صنف أكثر الكتب الاوربية مما يتعلق بالأمم الخوالي وشئونها ، والأقوام القديمة وأخبارها ، والاديان السالفة ومذاهبها ورجالها . أما المسلمون فقد جعلوا لرواية الاخبار والسير قواعد محكمة يرجعون اليها وأصولاً متقنة يتمسكون بها وأعلاها أن لا تروى واقعة من الوقائع الا عن الذي شهدها ، وكلما بعد العهد على هذه الواقعة فمن الواجب تسمية من نقل

ذلك الخبر عن الذي نقله عمن شهد ، وهكذا بالتسلسل من وقت الاستشهاد بالواقعة والتحدث عنها الى زمن وقوعها ، والتثبت من أمانة هؤلاء الرواة وفقههم وعدالتهم وحسن تحملهم للخبر الذي يروونه ، وإذا كانوا على خلاف ذلك وجب تبينه أيضا . وهذه المهمة من أشق الأمور ، ومع ذلك فإن مئات من المحدثين تفرغوا لها ووقفوا أعمارهم على تحري ذلك واستقصائه وتدوينه ، وطافوا لاجله البلاد ، ورحلوا بين الاقطار ، باحثين دارسين لاحوال الرواة وكانوا يلقون المعاصرين لهم من الرواة لينقدوا أحوالهم ، وإذا اطمئنتوا الى سيرة فريق منهم سألوه عما يعرفونه من أحوال الطبقة التي كانت قبلهم ، وقد اجتمع من هذا المجهود العلمي العظيم علم مستقل من العلوم الاسلامية اطلق عليه فيما بعد عنوان (اسماء الرجال) فتيسر لمن أتى بعدهم أن يقفوا على اقدار مئات الالوف من الحفاظ والعلماء والرواة وغيرهم .

هذا فيما يتعلق بالرواية وحملتها ، وهناك علم نقد الحديث من جهة الدراية والفهم ، وإن له اصولا محكمة وقواعد متقنة اتخذوها لنقد الرويات وتمييز صحيحها من سقيمها وغثها من السمين والراجع من المرجوح ، وقد تحرر علماء السنة في هذا الامر الحق وحده وتمسكوا فيه بالمحجة البيضاء وكل ما يؤدي اليه الصلح ، فكان عملهم هذا من مفاخر الاسلام . وانت تعلم أن ممن تحمل الرواية رجالا من السولة والحكام والامراء الذين يخشى جانبهم ويحذر الناس بطشهم وجبروتهم ، فكان المحدثون يلتزمون فيهم قول الحق وينزلونهم في المنازل التي يستحقونها ، ولا يباليون ما ربما يصيبهم من مكروه بسبب هذه المصارحة بما يرضي الله ويصون أمانات الاسلام . وكان وكيع محدثا كبيرا ، وكان أبوه عاملا للدولة على بيت المال ، فكان اذا روى عن أبيه شيئا عضضه برواية راو

آخر ، فاذا انفرد أبوه برواية خبر توقف وكيع عن الاخذ بذلك حتى
 تعضده رواية أخرى . فهل رأيت مثل هذا الاحتياط ومثل هذه المبالغة في
 الثبوت عند أهل ملة أخرى غير ملة الاسلام ؟ ويقول الامام معاذ بن معاذ
 رأيت المسعودي في سنة ١٥٤^(١) يطالع كتاب . يعني أنه قد تغير
 حفظه^(٢) ، وما يشير العجب والاستغراب ان الامام معاذ بن معاذ تقلم إليه
 رجل باللف دينار على أن لا يكتب في كتابه شيئا عن رجل سماه فلا يوثقه
 ولا يخرجه بل يسكت عنه ، فرفض الامام ذلك المال بشدة وقال اني لا
 أكنم الحق^(٣) فهل يعرف أحد في تاريخ البشر مشالا للاحتياط في العلم
 والامانة للحق والاستقامة على منهج الصدق أعلى من هذا المثال ؟ على أن
 جميع مرويات السنة لا تزال محفوظة كما هي الى زماننا هذا ، وان قواعد
 النقد الموضوعية ، وأحوال الرواة المخصصة ، قد يسرت لكل من شاء حتى
 في زماننا هذا وفي كل زمان أن يميز بها بين الصحيح والسقيم والغث
 والسمين والراجح والمرجوح والقوي والضعيف .

سادتي . لقد شغلت شطرا من وقتكم الثمين بإيراد هذه الامور
 العلمية التي قلما يستطيعها السامعون ، لكنني فيما أظن قد استعرضت لكم
 انحاء مختلفة من السيرة النبوية ومثلت أمامكم جوانبها التاريخية المتنوعة .
 وأريد أن ألفت أنظاركم الى المصادر التي أخذت عنها سيرة النبي ﷺ
 وهدية ، وكيف دونت تلك المصادر وجمعت . وان أهم ما في سيرته ﷺ
 وأوثقها وأكثرها صحة هو ما اقتبس من القرآن الحكيم الذي لا يأتيه

(١) هو عبد الرحمن بن عبد الله بن عتبة بن عبد الملك بن مسعود . توفي سنة

١٦٥ هـ .

(٢) تهذيب التهذيب ٦ : ٢١١

(٣) تهذيب التهذيب

الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من عزيز حميد ، وهو الذي لم يشك في صحته العدو اللدود فضلا عن الحبيب الدود . والقرآن يقص علينا جميع مناحي السيرة النبوية وطرفا من حياته ﷺ قبل النبوة ، فيذكر لنا يتمه وفقره وتحنثه ، كما يذكر لنا شئونه بعد النبوة من هبوط الوحي الالهي عليه وتبليغه اياه والعروج به وعداوة الاعداء وهجرته وغزواته ، وفي القرآن الكريم ذكر اخلاقه ﷺ ، كل ذلك تراه مذكورا في القرآن بيان واضح واسلوب متين رائق ، ومن ذلك تعلمون انه لم تطرق اذن التاريخ سيرة رجل باحسن ولا اصبح ولا اوثق من سيرة محمد ﷺ .

والمصدر الثاني من مصادر السيرة النبوية كتب الحديث ، وهي كتب حفظت لنا من اقوال النبي ﷺ وافعاله واحواله ما يبلغ مائة ألف حديث ، وقد امتاز الصحيح منها عن الضعيف والموضوع ، والقوي منها عن غير القوي . ومن الكتب المصنفة في الحديث الكتب الستة الصحاح التي محص العلماء كل ما ورد فيها وذكرها وشواهد ومتابعاته حتى لم يتركوا في النفوس منزع ظفر لمحقق منصف بل ولا لمدقق جائر . ويتلو الكتب الستة كتب المسانيد ، واعظمها مستند الامام احمد بن حنبل في ستة مجلدات كبار كل مجلد منها يحتوي على نحو خمسمائة صفحة من القطع الكبير بحروف دقيقة . وقد تضمن هذا المستند مرويات كل صحابي مجموعة ومذكورة على حدة ، وفي هذه المجموعات جميع تعاليم الرسول ﷺ واحواله وسيرته غير مرتبة على المواضيع -

والمصدر الثالث كتب المغازي ، ومعظم ما فيها ذكر الغزوات النبوية ، وقد تتضمن امورا اخرى . ومن المصنفات القديمة في المغازي مغازي عروة بن الزبير المتوفي سنة ٩٤ هـ ، ومغازي الزهري المتوفي سنة ١٢٤ هـ ، ومغازي موسى بن عقبة المتوفي سنة ١٤١ هـ ، ومغازي ابن

اسحاق المتوفى سنة ١٥٠ هـ ، ومغازي زياد البكائي المتوفى سنة ١٨٢ هـ ،
ومغازي الواقدي المتوفى سنة ٢٠٧ هـ وغيرهم .

والمصدر الرابع كتب التاريخ الاسلامي العام التي تبتدىء بالسيرة
النبوية ومن أوثقها وأصحها وأطولها وأضخمها طبقات ابن سعد ،
وتاريخ الرسل والملوك للإمام أبي جعفر الطبري ، والتاريخ الصغير
والتاريخ الكبير لمحمد بن اسماعيل البخاري ، وتاريخ ابن حبان ،
وتاريخ ابن أبي خيثمة البغدادي المتوفى سنة ٢٩٩ هـ وغيرهم .

والمصدر الخامس الكتب التي ألقت في المعجزات ، وتسمى بكتب
الدلائل ومنها دلائل النبوة لأبي اسحاق الحربي المتوفى سنة ٢٥٥ هـ
ودلائل النبوة لابن قتبية المتوفى سنة ٢٧٦ هـ ، ودلائل النبوة للإمام
البيهقي المتوفى سنة ٤٣٠ هـ ، ودلائل النبوة لأبي نعيم الاصفهاني المتوفى
سنة ٤٣٠ هـ ، ودلائل النبوة للمستغفري المتوفى سنة ٤٣٢ هـ ، ودلائل أبي
القاسم اسماعيل الاصفهاني المتوفى سنة ٥٣٥ هـ ، وأضخمها وأبسطها
كتاب الخصائص الكبرى للجلال السيوطي المتوفى سنة ٩١١ هـ .

والمصدر السادس كتب الشرائع ، وهي مقصورة على ذكر اخلاق
النبي ﷺ وعاداته وفضائله ، وما كان يعمل في يومه من الصباح الى
المساء ، وفي ليله من المساء الى الصباح . وأشهر هذه الكتب وأولها
(كتاب الشرائع) للحافظ الترمذي . وقد كتب كبار العلماء زيادات عليه
أهمها وأضخمها وأطولها (كتاب الشفا في حقوق المصطفى) للقاضي
عياض ، وقد شرحه الشهاب الخفاجي وسماه نسيم الرياض ، وصنف في
هذا الموضوع علماء آخرون ، منها كتاب (شرائع النبي ﷺ) لأبي
العباس المستغفري المتوفى سنة ٤٣٢ هـ ، و (النور الساطع) لابن المقرئ

الغرناطي المتوفي سنة ٥٥٢ هـ ، و (سفر السعادة) لمجسد الدين
القيروزي المتوفي سنة ٨١٢ هـ .

يضاف الى ما ذكرناه الكتب التي صنفها بعض العلماء المتقدمين في
أحوال مكة المعظمة والمدينة المنورة وذكروا فيها ما في هذين البلدين
الطيبين من بقاع وأماكن وأودية وجبال وخطط ، وذكروا من تولى إماراتها
بأدئين بكل ماله علاقة بالنبي ﷺ . وأقدم كتاب في هذا الموضوع (أخبار
مكة) للآزرقي المتوفي سنة ٢٢٣ هـ ، و (أخبار المدينة) لعمر بن شبة
المتوفي سنة ٢٦٨ هـ ثم أخبار مكة للفاكهي وأخبار المدينة لابن زباله .

سادتي : لقد عرضت عليكم أسماء الكتب في السيرة النبوية وذكرت
لكم ما صنف في هذا الباب من قديم الزمان ، ومنه يعلم القارئ مكانة
السيرة المحمدية من التاريخ ، وأن هؤلاء المحدثين والخلفاء الاسلاميين
لم يقتصروا على حفظ الروايات عن ظهر قلب وتقييدها بالكتابة
وحسب ، بل اتخذ الولاة والخلفاء معاهد لكبار العلماء والأئمة يتولون
التدريس فيها ، وأقاموا المباني في المساجد ليشتغل فيها المعلمون
والمدرسون من كبار العلماء بتعليم المغازي ، وكان عاصم بن عمر المتوفي
سنة ١٢١ هـ - وهو حفيد قتادة الصحابي - يدرس في المسجد الجامع
بدمشق بأمر الخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه .

والذي ألفه الناس في سيرة النبي ﷺ من عهد الرسالة إلى يومنا هذا في
مختلف الأوطان الاسلامية والأجنبية في معظم لغات العالم يعد بالألوف ،
واعتبر ذلك بما صنف باللغة الأوردية الحديثة وحدها في موضوع السيرة
النبوية ، مع أن الأوردية لم تنصر لغة تأليف إلا منذ قرنين على الأكثر ،
وفي تقديره أن ما صنف بها وحدها في السيرة النبوية يبلغ ألفا إن لم يزد
عليه .

ودع عنك المسلمين وما صنفوا في سيرة نبيهم ﷺ فانهم يحبونه حبا عظيما ويقدمون ذلك بين يدي الله فرطاً وذخراً لهم يوم القيامة . وتعال ننظر الى من ألف في سيرته ممن لا يؤمنون بنبوته ، ولا يوقنون برسالته ، فاننا نجد في الهند نفسها على اختلاف مللها : من الهنادك والسيخ والبرهمو سماج كثيرا من علماءهم قد ألفوا في سيرته ﷺ ، أما الأوربيون الذين لا يدينون بالاسلام ولا يؤمنون بالرسالة المحمدية فقد صنف منهم في سيرة النبي ﷺ حتى المبشرون من دعاة النصرانية والمستشرقون ، عناية منهم بالتاريخ وإرواء لظمأهم العلمي ، ويعد ما ألفوه في ذلك بالثبات . وكنت قرأت في مجلة المقتبس التي كانت تصدر في دمشق قبل نحو أربعين سنة إحصاء لما صنف في السيرة النبوية بمختلف اللغات الاوربية فبلغ نحو ثلاثمائة كتاب وألف كتاب ، ولو أضفنا إلى هذا العدد ما صدر من المطابع الاوربية في السيرة النبوية خلال الاربعين سنة بعد ذلك الاحصاء الذي نشرته مجلة المقتبس لأربي على ذلك كثيرا . وإن مرجوليوث الذي كان استاذا للغة العربية في جامعة أوكسفورد أصدر في سنة ١٩٠٥ كتابه (محمد) وجعله حلقة في سلسلة « عظماء الامم » وهو لم يكتب كتابه هذا ليثني فيه على رسول الله محمد ﷺ ، بل لعله لم يؤلف كاتب بالانجليزية كتابا أشد تحاملا على النبي ﷺ مما جاء في هذا الكتاب ، وقد حاول مرجوليوث أن يشوه كل ما يتعلق بالسيرة الشريفة وأن يشكك في أسانيد ما ولم يأل جهدا في نقض ما أبرمه التاريخ ومعارضة ما حققه المحققون من المتصفين ، لكنه مع كل هذا لم يتالك عن الاعتراف في مقدمة كتابه بأن الذين كتبوا في سيرة محمد ﷺ لا ينتهي ذكر اسمائهم ، وأنهم يرون أن من الشرف للكاتب أن ينال المجد بتبوءه مجلسا بين الذين كتبوا في السيرة المحمدية .

The Biographers of the Prophet Mohammad from a long series it is impossible to end, but in which Would be honourable to find a place.

وقد كتب جون ديون بورت في سنة ١٨٧٠ كتابا بالانجليزية في السيرة المحمدية عنوانه (اعتذار من محمد والقرآن Appology for Mohammad and Quran) والذي يقرأه بخيل اليه أنه كتبه بنزعة الاخلاص والانصاف ، ويقول في مقدمته : لا ريب أنه لا يوجد في الفاتحين والمشرعين والذين سنوا السنن من يعرف الناس حياته وأحواله بأكثر تفصيلا واشمل بيانا مما يعرفون من سيرة محمد ﷺ وأحواله .

والقى ريويند باسورث Smith Basworth عضو كلية التلث في أوكسفورد سنة ١٨٧٤ محاضرات عن (محمد والمحمدية) في الجمعية الملكية لبريطانيا العظمى طبعت فيما بعد في كتاب ، وقد قال في احدي هذه المحاضرات وأحسن فيما قال وأجاد : كل ما يقال في الدين يغلب فيه الجهل ببدايته ، وما يؤسف له أن هذا يصح اطلاقه على الديانات الثلاث^(١) وعلى أصحابها الذين نعلمهم تاريخيين لاننا لا نعلم لهم وصفا أحسن من هذا الوصف ، فاننا قلما نعلم عن الذين كانوا في طلائع الدعوة ، والذي نعلمه عن الذين جاءوا بعدهم واجتهدوا في نشر عقائدهم أكثر من الذي نعلمه عن أصحاب الدعوة الأولين . فالذي نعلمه من شتون زردشت وكونفوشيوس أقل من الذي نعلمه عن سولون وسقراط . والذي نعلمه عن موسى ، وبوذا أقل مما نعلمه عن أمبرس Ambrase وقيصر . ولا نعلم من سيرة عيسى الا شذرات تتناول شعبا قليلة من شعب حياته المتنوعة والكثيرة . ومن ذا الذي يستطيع أن يكشف

(١) يريد ديانات بوذا وكونفوشيوس وزردشت .

لنا الستار عن شئون ثلاثين عاما هي تمهيد واستعداد للثلاثة أعوام التي علم بها من حياته . انه بعث ثلث العالم من رقدته ، ولعله يحكي أكثر من أحيا ، وحياته المثالية بعيدة عنا مع قربها منا ، وانها تتراوح بين الممكن والمستحيل . بيد أن كثيرا من صفحاتها لا نعلم عنها شيئا أبدا ، وما الذي نعلمه عن أم المسيح ، وعن حياته في بيته ، وعيشته العائلية . وما الذي نعلمه عن أصحابه الأولين ، وحواريه ، وكيف كان يعاملهم ، وكيف تدرجت رسالته الروحية في الظهور ، وكيف فاجأ الناس بدعوته ورسالته ، وكم وكم من أسئلة تحيш في نفوسنا ولن يستطيع أحد أن يجيب عليها الى يوم القيامة !

أما الاسلام فأمره واضح كله ، ليس فيه سر مكتوم عن أحد ، ولا غمة ينهم أمرها على التاريخ . ففي أيدي الناس تاريخه الصحيح ، وهم يعلمون من أمر محمد ﷺ كالذي يعلمونه من أمر لوتر وملتن . وأنت لا تجد فيما كتبه عنه المؤرخون الأولون أساطير ولا أوهاما ولا مستحيلات وإذا عرض لك طرف من ذلك أمكنك تمييزه عن الحقائق التاريخية الراهنة ، فليس لأحد هنا أن يجحد نفسه أو يجحد غيره ، والامر كله واضح وضوح النهار ، كأنه الشمس رآد الضحى يتبين تحت أشعة نورها كل شيء .

لقد ألف المسلمون في السيرة النبوية ألوف الكتب بل أكثر من ذلك ، ولا يزالون ماضين في التأليف فيها ، وكل كتاب في السيرة المحمدية مهما كان لا ريب إنه أوضح بيانا وأوثق رواية وأكثر صحة من كل ما كتبه الناس في قصص النبي وسيرهم عليهم السلام . والكتب الأولى في السيرة المحمدية تلقاها عن أصحابها مثنى وآلاف من تلاميذهم واتقروا فيها وأحكموها فقها ولم يتركوا فيها كلمة غامضة ولا عبارة معضلة الا

أوضحوا مبهمها وحلوا معضلها . وأول كتاب عندنا في الحديث النبوي كتاب الموطأ للإمام مالك بن أنس ، وقد سمعته من مؤلفه ستائة من تلاميذه فيهم الخلفاء والولاة والعلماء والفقهاء والادباء والزهاد والنسك . والجامع الصحيح لأبي عبد بن اسماعيل البخاري تلقاه ستون الفا من أهل العلم عن تلميذ واحد من تلاميذه وهو الامام الغري . فهل في العالم دين احتاط أهله مثل هذا الاحتياط واهتموا مثل هذا الاهتمام في كل ما يتعلق بأمر نبيهم وهدايتة ، وهل ألف في هذا الباب تأليف أكثر صحة وأعظم ثقة وثبتا ، وهل نال مثل هذه الصحة التاريخية دين غيره ، وهل حفظ التاريخ من تفاصيل حياة نبي من الأنبياء عليهم السلام مثل الذي حفظه من سيرة محمد ﷺ ؟

المحاضرة الرابعة

في سيرة المحمديّة من ناحية كمالها وتامها واحاطتها بشؤون الحياة البشريّة

سادتي واخواني . موضوع كلامنا اليوم في ان السيرة المحمديّة هي السيرة التامة الكاملة الشاملة لجميع اطوار الحياة . وما من حياة اُحد - مهما بلغت من صحة التاريخ وثبوت الرواية - يصح أن يكون منها للناس اسوة تتبع ومثال يقتدى به الا اذا كانت متصفة بالكمال ، ولا تكون حياة اُحد كاملة ومنزهة عن العيوب والمثالب الا اذا كانت معلومة للناس بجميع اطوارها ومتجلية لهم دنائليها من كل مناحيها . وحياة محمد ﷺ من ميلاده الى ساعة وفاته معلومة للذين عاصروه وشهدوا عهده ، وقد حفظها التاريخ عنهم لمن بعدهم ، وهو في حياته لم ينجب عن عيون قومه الا مدة يسيرة ليعد عدته للمستقبل وليهيء الاسباب لحياته القابلة . ان جميع شئونه واطوار حياته - من ولادته ورضاعته وطفولته الى أن صار يافعا وشابا - كل ذلك ظاهر امره معلومة تفاصيله . وقد علم التاريخ عن هذا النبي ﷺ باشتغاله في التجارة وكيفية زواجه ، وعلم الناس سجاياه في صداقته وفي وفاته للناس قبل النبوة . واتصلوا به حين اتخذوه امينا واقاموه حكما فيما اختلفوا فيه من نصب الحجر الأسود في موضعه من الكعبة ، ثم وقفوا على امره حين حجب الله اليه الخلوة فاعتزلهم في غار حراء ، ثم علموا حاله حين نزل عليه الوحي من رب العالمين ، وحين بدأ امر الاسلام يظهر للوجود فاخذ يدعو الناس اليه ويبلغ ما أنزل عليه . وقد رأى التاريخ كيف خالفوه وعاندوه . وهل غاب عن التاريخ ما لقى ﷺ في نشر الاسلام من جهد وعناء ، وما قابله به

أهل الطائف حين سار اليهم ينهاتهم عن عبادة الاوثان ويأمرهم
 بعبادة الرحمن . وهل نسي التاريخ حين أخبر أهل مكة -
 وهم أقلية قليلة من المسلمين وأكثرية ساحقة من المشركين -
 يخبر العروج به الى السماء ، ثم هل خفي عن التاريخ أمر
 هجرته ومع من هاجر والغزوات التي غزاها ، والاسباب الباعثة عليها ،
 وموقفه من الهدنة اذا هادن وعهوده اذا عاهد ، وما صلح الحديبية بسر .
 والذين طالعوا كتب السيرة النبوية يعلمون ما ذكرنا وما لم نذكر ، وقد
 وقفوا على كتبه ﷺ الى الملوك والاقبال والولاة يدعوهم فيها الى دين الله ،
 دين السلام والوئام ، وعرفوا جهاده في سبيل الحق وما بذله في تبليغ دعوة
 الاسلام الى الناس ، الى أن أكمل الله للإنسانية دينها ، وحج ﷺ حجة
 الوداع ، وتوفاه الله اليه . فهل في شيء من ذلك ما يجهله التاريخ ، وهل
 فيما يتعلق بهذا الرسول الأعظم ورسالته ما أسدل عليه ستار من خفاء ؟ ان
 كل ما ينسب اليه ﷺ أو يعزى اليه من حق أو باطل وصدق أو كذب
 وصحيح أو فاسد معلوم بالتفصيل وواضح أمره للناقدين وقد ينظر ببال
 سائل أن يسأل : ما بال المحدثين حفظوا موضوعات الاحاديث
 وضعافها ، وهل اكتفوا بالصحيح وأهملوا غيره ؟ والذي ينعم النظر في
 ذلك يبدو له من المصلحة أن لا يوجه القادحون اللاتمة الى المسلمين بأن
 هنالك مرويات قضوا عليها وأخبار نبذوها ليخفوا من أمر نبيهم ما فيه من
 معجز . كما يطعن الطاعنون في هذه الايام على الاخبار المسيحية لاجل
 ذلك . أما المحدثون الكرام من علماء المسلمين فقد جمعوا كل ما له علاقة
 بالنبي ﷺ صحيحا كان أو سقيا حقا أو باطلا وجعلوا لتقده قواعد وأصولا
 لتحقيقه أصولا يرجع اليها في تمييز الصحيح من الفاسد والنفس من
 السمين . وهم قد حفظوا شئون حياة النبي ﷺ واحواله واخباره كلها ولم
 يتركوا أمرا من أموره ولا شأنا من شئونه الا ذكروه . حتى لقد وصفوه في

قيامه وجلوسه ونهوضه من النوم وهيبته في ضحكته وابتنسائه وعبادته في ليلة ونهاره ، وكيف كان يفعل اذا اغتسل واذا أكل ، وكيف كان يشرب ، وماذا كان يلبس ، وكيف يتحدث الى الناس اذا لقيهم ، وما كان يحب من الألوان ومن الطيب ، وما هي حيلته وشيئله - ووصفوا جسده الطاهر وصفا كاملا كأنك تراه . ووصفوا حياته العائلية من معاشره الرجل اهله وحيلته وأتبعوا ذلك بذكر الطهارة من الغسل فوصفوا ذلك كما وصفوا الرضوء للصلاة .

وأستعرض لكم فهرسة أقدم كتاب في الشئال للترمذي لتعلموا كيف ضبط المسلمون أحوال النبي ﷺ وأحصوا أخباره جليلها ودقيقها خطيرها وحفيرها كثيرها وقليلها : (١) باب ما جاء في حلية النبي ﷺ ، (٢) في ذكر شعره ، (٣) في ترحله ، (٤) شيبه ، (٥) خضابه ، (٦) كحلته ، (٧) لباسه ، (٨) عيشه ، (٩) خفه ، (١٠) نعله ، (١١) خاتمه ، (١٢) صفة سيفه ، (١٣) درعه ، (١٤) مغفره ، (١٥) عمامته ، (١٦) إزاره ، (١٧) مشيته ، (١٨) نقعته ، (١٩) جلسته ، (٢٠) فرشه ووسادته ، (٢١) ما جاء في اتكائه ، (٢٢) صفة أكله ، (٢٣) خبزه ، (٢٤) إدامه ، (٢٥) وضوؤه ، (٢٦) ما يقوله قبل الطعام وبعده ، (٢٧) قدحه ، (٢٨) فاكهته ، (٢٩) شرابه ، (٣٠) صفة شربه ، (٣١) تعطره وتطيبه ، (٣٢) كيف كان كلامه ، (٣٣) أنشاده الشعر ، (٣٤) مسامرتة وقصصه ، (٣٥) نومه ، (٣٦) عبادته ، (٣٧) ضحكته وتبسمه ، (٣٨) مزاحه ، (٣٩) صلاته بعد طلوع الشمس ، (٤٠) تطوعه في بيته ، (٤١) صومه ، (٤٢) تلاوته القرآن ، (٤٣) بكائه وخشوعه ، (٤٤) فراشه ، (٤٥) تواضعه ، (٤٦) أخلاقه ،

(٤٧) أسبأؤه الكريمة ، (٤٨) معاشرته ، (٤٩) سنه ،
(٥٠) وفاته ، (٥١) ميراثه ، (٥٢) حجامته .

ذلك مما يتعلق بنفسه الشريفة وشخصه الكريم ، وهنالك أحاديث
عن كل طور من أطوار حياته وناحية من نواحيها ، كل ذلك في وضوح
وجلاء بحيث لم يبق شيء من حياته مخفيا أمره مكتوما سره ، فإذا دخل
بيته فهو بين أهله وعياله وأولاده ، وإن خرج منه فهو بين أصحابه
ورفقائه ، وكل ذلك محفوظ مذكور مشهور .

اخواني - إن اعظم الناس وأجهلهم ، إذا انقلب الى بيته كان فيه
رجلا من الرجال وواحدا كآحاد الناس ، ولقد صدق فولتير في كلمته
المشهورة : « ان الرجل لا يكون عظيما في داخل بيته ، ولا بطلا في
أسرته » يريد أن عظمة المرء لا يعترف بها من هو أقرب الناس اليه ،
لاطلاعهم على دخيلته في مبادئه . وهذا الحكم يشهد عن الرسول ﷺ ،
فيقول بأسورث سمث أن ما قيل عن العظماء في مبادئهم لا يصح - على
الأقل - في محمد رسول الاسلام ، واستشهد بقول كبن : « لم يمتحن
رسول من الرسل أصحابه كما امتحن محمد أصحابه » انه قبل أن يتقدم
الى الناس جميعا ، تقدم الى الذين عرفوه انسانا المعرفة الكاملة فطلب من
زوجته وغلამه وأخيه وأقرب أصدقائه اليه وأحب خللائه أن يؤمنوا به نبيا
مرسلا . فكل منهم صدق دعواه وآمن بنبوته . وإن حليلة المرء أكثر
الناس علما بباطن أمره ودخيلة نفسه وأصدقهم به ، فلا يوجد من هو
أعرف منها بهنائه ونقائصه ، أليس أن أول من آمن بمحمد رسول الله
زوج الكريمة التي عاشته خمسة عشر عاما ، واطلعت على دخائله في
جميع أموره وأحاطت به علما ومعرفة ، فلما ادعى النبوة كانت أول من
صدقه في نبوته .

ان اعظم الناس لا يأذن لزوجهم . وان كانت له زوج واحدة بأن تحدث
الناس عن جميع ما تراه من حليها ، وان تعلن كل ما شاهدته من
أحواله . لكن رسول الله كانت له في وقت واحد تسع زوجات ، وكانت
كل منهن في إذن من الرسول بأن تقول عنه للناس كل ما تراه منه في
خلواته ، ومن في حل من أن يخبرن الناس في وضع النهار كل ما راين منه
في ظلمة الليل ، وان يتحدثن في الساحات والمجامع بما يشاهدن منه في
الحجرات . فهل عرفت الدنيا رجلا كهذا الرجل يثق بنفسه كل هذه الثقة
ويعتمد عليها الى هذا الحد ولا يخاف قالة السوء عنه من أحد لانه ابعد
الناس عن السوء . هذا ما يتعلق بذات الرسول ، وأما ما تحلت به نفسه
من دماثة الخلق ورجاحة العقل وحصافة الرأي وكوم النفس وعلو الهمة
ورجابة الصدر فان كتب الحديث ملأى بتفاصيله . وأحسن كتاب في
ذلك كتاب (الشفا) للقاضي عياض الاندلسي . وقد قال لي يوما وانا في
فرنسا مستشرق اسمه ماسنيون : يكفي لتعرف أوروبا محاسن رسول الله
محمد ﷺ ومحامده أن ينقل كتاب (الشفا) للقاضي عياض الى إحدى
اللغات الأوروبية .

انني بويت في الجزء الثاني من السيرة عند ذكر شمائله ﷺ هذه
الامور : خلق رسول الله ﷺ ، وحليته ، وخاتم النبوة ، وشعره ،
ومشيته ، وكلامه وضحكه وتبسمه ، ولباسه ، وخاتمه ، ومغفره ،
ودرعه ، وطعامه ، وصفة أكله ، وسنن طعامه ، وشارته ، واللون
المحب اليه ، واللون الذي كان يرغب عنه ، وتعطره ، وحبه للنظافة
والطهارة ، وركوبه . وذكرت في أشغاله : ما كان يعمل في بهاره من
الصباح الى المساء ، ثم نومه ، وتهجده ، ووظائفه في الصلوات ،
وأسلوب خطبته ، وأعماله في السفر ، وأعماله في الجهاد ، وسنته في عيادة
المرضى ، وتعزيزه أهل البيت ، وسنته في لقاء الناس وعامة أشغاله .

واليكُم ما ذكرت عن مجلسه ﷺ : مجالس الارشاد ، آداب المجلس ، أوقات جلوسه مع الناس ، مجالسه الخاصة بالنساء ، طريقة هديه وارشاده ، لقاءه الناس بالبشاشة والبشر ، تأثير صحبته فيمن يصحبه وأسلوب كلامه معهم ، وأنواع خطبه النبوية وأثرها في السامعين . ومن العناوين التي وردت فيها ذكرته عن عبادته : دعاؤه ، صلاته ، صومه ، زكاته وصدقاته ، حججه ، مداومته ذكر الله ، ذكره الله عز وجل في مواقف القتال ، خشيته من الله ، بكائه ، محبته لله ، توكله عليه ، صبره ، شكره لمفيض النعم جل جلاله . ومما جاء في كتابي المذكور عن أخلاقه ﷺ : أخلاقه بالتفصيل ، مواظبته على العمل ، مكارم أخلاقه ، حسن معاملته للناس ، عدله ، جوده وكرمه ، إثاره ، ضيافته وقراه ، كراهته سؤال الناس ، إياؤه لأموال الصدقة ، قبوله الهدية ، ترفعه عن فضل الخير ومنته ، تنزهه عن القضاظة ، وموقفه من التقشف ، وكرهه للهجاء والمدح ، والتزامه عدم التكلف في الحياة ، وبعده عن التأنق في المشرب والمأكل ، إجتنابه الرياء والخيلاء ، مساواته ، تواضعه ، كرهه للمبالغة في التعظيم والاطراء ، حيائه ، عمله بيده ، عزيمته ، شجاعته ، صدقه في القول ، وفاؤه بالوعد ، زهده في الدنيا ، قناعته ، حلمه ، عفوه عن الناس ، صفحه عن اعدائه ، احسانه اليهم ، معاملته للكافرين والمشركين ، معاملته لليهود والنصارى ، حبه الفقراء والمساكين ، عفوه عن أشد اعدائه ، دعاؤه لاعدائه بالخير ، شففته على الصبيان ، معاملته للنساء ، رحمته بالحيوان ، ما فطر عليه من الرحمة والمحبة بوجه عام ، لين قلبه ورقته ، عيادته للمرضى ، سجاجة خلقه ودمائته ، محبته لأولاده ، معاشرته لازواجه الطاهرات ، هديه في المراسلة ، معالجته لأمراض النفس وأمراض البدن .

وقد استقصى الحافظ ابن القيم في كتابه (زاد المعاد) كل ما ينبغي معرفته عن النبي ﷺ وأحواله ، فاستوعب ذلك أكثر من غيره من

المؤلفين . واليكم فهرس ما ورد فيه عن أحواله الخاصة ﷺ وشئونه
 اليومية : هديه في ارسال الكتب والرسائل ، هديه في الاكل وذكر
 كفيته ، هديه في الشكاح ومعاشرة الاهل ، هديه في نومه وانتباهه ،
 هديه في ركوب الدواب ، هديه في العبد والامساء ، هديه
 في البيع والشراء والتعامل مع الناس ، هديه عند قضاء الحاجة ، هديه في
 أمور الفطرة ، هديه في قص الشارب ، هديه في كلامه وسكوته وضحكته
 وبكائه ، هديه في خطبته ، هديه في وضوئه ، هديه في مسح الخفين ،
 هديه في التيمم ، هديه في الصلاة ، هديه في الجلسة بين السجدين ،
 هديه في السجود ، كيفية توركه في القعدة الاخيرة بعد السجدة ، هديه في
 جلوسه واشارته بالشهد ، هيئة تسليمه عند الخروج من الصلاة ، دعوته
 بعد التسليم ، هديه في سجدة السهو ، هديه في السنن الرواتب وصلاة
 التطوع في الحضر والسفر وفي المسجد والبيت ، هديه في قيام الليل
 (التهجد) ، اضطجاعه بعد سنة الفجر ، صلاته في الليل ووتره ،
 صلاته جالسا بعد الوتر ، قنوت الوتر ، هديه في قراءة القرآن وترتيله ،
 هديه في صلاة الضحى ، هديه في سجود الشكر ، هديه في سجعات
 القرآن ، هديه في الجمعة ، هديه في عبادات الجمعة ، هديه في خطبة
 الجمعة ، هديه في العيدين ، هديه في صلاة الخوف وصلاة الكسوف ،
 هديه في الاستسقاء ، هديه في السفر والتطوع فيه ، هديه في الجمع بين
 الصلاتين ، هديه في تلاوة القرآن والاستماع له ، هديه في عيادة المرضى ،
 هديه في الجنائز والاسراع بها ، هديه في تسجئة الميت ، هديه في السؤال
 عن الميت اذا حضرت جنازته ، هديه في الصلاة على الجنازة ، هديه في
 الصلاة على جنازة الصغير ، هديه في تركه الصلاة على قاتل نفسه
 والغال ، هديه في المشي أمام الجنازة ، هديه في الصلاة على الميت
 الغائب ، هديه في قيامه للجنازة اذا مرت به ، هديه في التعزية وزيارة

القبور ، هديه في الاكثار من العبادة في رمضان ، هديه في الصوم عند رؤية الهلال ، والافطار لرؤية الهلال ، هديه في قبول الشهادة لرؤية الهلال ، هديه في الافطار في السفر ، الافطار يوم عرفة ، صومه ايام الجمعة والسبت والاثنين ، هديه في صوم الوصال ، هديه في صوم التطوع وافتطاره وترك قضائه ، كراهيته تخصيص الجمعة للصوم ، هديه في الاعتكاف ، هديه في الحج والعمرة ، اعتباره مرتين في سنة واحدة ، أدائه الحج وهديه في التضحية بيده ، هديه في تضحية البدنة ، هديه في العقيقة ، أذانه في أذن المولود ، وتسميته ، وختانه ، هديه في تسمية الناس وتكثيتهم ، احتياظه في الكلام وتخفيف اللفاظ ، هديه في الذكر والدعاء ، هديه في دخول البيت ، هديه في لبس الثياب ، هديه في الذهاب الى الخلاء والرجوع منه ، هديه في الدعاء عند الوضوء ، هديه في ترديد كلمات الأذان ، هديه في الدعاء لرؤية الهلال والدعاء قبل الطعام وبعده وهديه في الطعام ، وفي السلام ، وأن لا يدخل أحد على الناس في بيوتهم الا بعد الاستئذان ، هديه في الدعاء في السفر ، وعند النكاح ، هديه في كراهية بعض الكلمات ، هديه في الغزو والجهاد ، معاملته الأسرى الحرب والعبيد ، وهديه في معاملة الجواسيس اذا اسروا ، هديه في عقد الصلح ، وتأمين المحارب ، وضرب الجزية ، ومعاملته أهل الكتاب والمنافقين .

لقد أجملت لكم فيما تقدم ما جاء في أحوال النبي ﷺ خاصة ، ليثين لكم أنه اذا كانت هذه الأمور الدقيقة قد عني المسلمون بحفظها فيما ظنكم بالأمور الجليلة العظيمة الخطر ، وكم بذلك رواة الشريعة من عنايتهم في احصاء أمهات السنن وأصول الرسالة ، واحصائها ، وضبطها مفصلة ، ويظهر لكم من ذلك أن جميع وجوه الحياة النبوية ومناحيها والرائها قد صيغت وحفظت من أن تعيث بها أيدي الدهر .

إخواني . حسبكم الآن أنكم قد علمتم ما أردته في أول هذه
المحاضرة من وصف السيرة المحمدية بالكمال والنهال والاحاطة ، وقد تبين
لكم صدق ما ادعيت له من أنه ما من أحد من الرسل قد حفظت سيرته
وأحصيت أخباره وأحواله كما حفظت سيرة محمد ﷺ وأحصيت أخباره
وأحواله .

ان الوقت ضيق ، والذي أريد ان أفصي به اليكم متنوع ومترامي
الاطراف وكثير المناحي ، فانا أجمل لكم في القول ما استطعت ، وأرجو
منكم ان تستمعوا له . ان النبي ﷺ أذن لأصحابه ولن يحضر مجالسه أن
يلفوا عنه لمن غاب عنها ، وهذا الاذن عام لما يكون عنه في بيته وبين أهله
وعياله ، أو ما يصدر عنه في خلقة مع أصحابه ، أو ما يقفون عليه من
أعماله وأقواله عند تعبه في مسجده ، أو قيامه على منبره خطيبا ، أو
جهاده في ساحة الحرب تجاه أعدائه وهو يسوي صفوف المجاهدين في
سبيل الله . أو اذا خلا الى ربه في حجرة منعزلة في بيته يعبد الله ويتضرع
اليه ، فكان أزواجه وأصحابه يتحدثون جميعا بكل ما يصدر عنه من قول
أو عمل . ثم أنه كان تجاه مسجده صفة يأوي اليها فقراء الصحابة الذين
لم تكن لهم بيوت يأوون اليها ، فكانوا يتناوبون الخروج الى ما بعد بنيان
المدينة يحتطبون من اشجار الصحراء والجبل ويبيعون ما يأتون به ليقتاتوا
جميعا بشمته ، ولم يكن لسائرهم عمل غير صحبة النبي ﷺ ولزوم مجالسه
ليحفظوا عنه ما يقول وما يعمل ثم يروونه للناس بعناية وأمانة ، وقد بلغ
عدد أهل الصفة هؤلاء سبعين رجلا كان منهم أبو هريرة الذي لم يكن
صحابي أكثر منه حديثا عن رسول الله ﷺ ، هؤلاء السبعون كانوا كأنهم
جواسيس الحكومة وعيونها في نشاطهم وإخلاصهم لما يسرهم الله له من
حفظ كل ما يستطيعون حفظه مما يدخل في موضوع الحديث النبوي لا

يفترون عن ذلك أثناء الليل وأطراف النهار ، وقد استمر الحال بهم على ذلك يومياً مدة عشر سنوات متوالية ، وإذا ارتحل عن المدينة في غزو أو حج كانوا معه ، وكذلك غيرهم من الصحابة ، حتى لم تخف عنهم خافية من أمره ، ولم يغيب عنهم معنى من معاني رسالته ، ولما كان فتح مكة كان معه من أصحابه عشرة آلاف ، ولما سار إلى تبوك كان في معسكره ثلاثون ألفاً ، ولما حج حجة الوداع حج معه في تلك السنة مائة ألف مسلم ينطبق عليهم عنوان الصحابة ، وما منهم إلا من يحرص على الوقوف على شيء من هداية نبيه ﷺ أو أي أمر من أموره فيتحدث عنه . بل هو الذي أمرهم أن يبلغوا عنه ما يسمعون منه أو يرون من تصرفاته ، فما ظنكم به بعد ذلك هل يخفى عن التاريخ وجه من وجوه حياته أو ناحية من نواحيها . هذا من جهة أصحابه ، وأما أعداؤه فانهم أفرغوا جهدهم ، واستنفدوا سعيهم ليقتلوا على دخيلة من دخاله ولواخذوه بحقيقة يعلمونها عنه فلم يستطيع أحد منهم أن يجد له ناحية ضعف ولا ما يسدد به . وأقصى ما استطاع أعداؤه في كل زمان ومكان أن يقولوه عنه انه سل سيفه للقتال وأنه كان كثير الأزواج . وقد تبين لكم مما سلف أن حياته الطاهرة التي فصلنا حقيقتها تفصيلاً ، وأعطنا بجوانبها علماً ، هي حياة العصمة من كل نقص ، البريئة من كل عيب ، فأين هذا من حياة لا نعلم عنها شيئاً ، ولا تزال نواحيها ووجوهها سرا في ضمير الزمن !

اخواني . أريد أن الفت انظاركم الى أمر آخر : إن الرسول ﷺ لم يقصر حياته كلها بين أحبابه وأصحابه ، بل قضى أربعين سنة من عمره في مكة قبل أن يبعث ، فكان بين أهلها مشركي قريش ، وكان يتعاطى فيهم التجارة ، ويعاملهم في أمور الحياة ليل نهار ، وهي الحياة اليومية وما تنطوي عليه من أخذ وعطاء ، ومن شأنها أن تكشف عن اخلاق المرء

فيتبين للناس فسادها وصلاحتها ، وهي عيشة طويلة طريقها كثيرة
منعطفاتها وعرة مسالكها ، تعترضها هددات مما قد يصدر عن المرء من
خيانة واختار عهد وأكل مال بالباطل ، وعقوبات من الخديعة والخيانة
وتطفيف الكيل وبخس الحقوق واختلاف الوعد . وإن الرسول ﷺ اجتاز
هذه السبل الشائكة الوعرة وخلص منها سالماً نقياً لم يصبه شيء مما يصيب
عامة الناس ، حتى لقد دعوه « الأمين » ، وإن قريشا بعد بعثته وادعائه
النبوة كانوا يودعون عنده ودائعهم وأموالهم لعظيم ثقتهم به ، وقد علمتم
أنه ﷺ لما هاجر من مكة خلف فيها علياً ليرد ما كان لديه من الودائع إلى
أهلها . فقريش خالفوه أشد الخلاف في دعوته ولم يتركوا سبيلاً إلى ذلك
إلا سلكوه ، فقاطعوه وعاندوه وصدوا عن سبيله وألقوا عليه سلى جزور
وهو يصلي ورموه بالحجارة وأرادوا قتله وكادوا له كيدهم وسموه ساحراً
ودعوه شاعراً وفندوا آراءه وسخفوا حلمه ، لكنهم لم يجرؤ أحد منهم على
أن يقول شيئاً في أخلاقه ، ولا أن يرميه بالخيانة ، أو ينسب إليه الكذب في
القول أو إخلاف الوعد أو اختار الذمة أو نقض العهد . وإن من ادعى
النبوة وقال إن الله يوحى إليه فكأنه ادعى العصمة والبراءة من جميع المفاصد
ومساوئ الأعمال . ألم يكن يكفي قريشا في ردهم على الرسول أن
يذكروا أمورا عمل فيها الرسول بغير الحق وأن يشهدوا عليه بأنه أخلفهم
وعدا أو خانهم في أموالهم أو كذبهم في شيء مما قاله لهم ؟ إن قريشا أنفقوا
أموالهم وبذلوا نفوسهم في عداوة الرسول وضحوا بفلذات أكبادهم في
قتاله حتى قتل منهم وجرح كثيرون ، لكنهم لم يستطيعوا أن يذنبوا ذنبه
الطاهر ولا أن يصموا بشيء في عظيم أخلاقه . وكانت أحوال الرسول
وشؤنه وهديه ظاهرة لجميع الناس معلومة لهم ، استوى في ذلك أحبابه
وأعداؤه ولم يخف عليهم شيء من أمره .

كان عظماء قريش مجتمعين ذات يوم في ناديهم فجري ذكر

الرسول ﷺ وفيهم النضر بن الحارث وكان رجلاً ذاهيةً محنكاً وعالمًا
بالأخبار فقال لهم : يا معشر قريش ، لقد اعياكم أمر محمد ، وعجزتم
عن أن تدبروا فيه رأياً لما أصابكم به . إن محمداً قد نشأ فيكم حتى بلغ
مبلغ الرجال ، وكان أحب الناس إليكم واصدقهم فيكم واتخذوه أمينا ،
فلما خطبه الشيب وعرض عليكم هذا الأمر قلتم ساحر وكاهن وشاعر
وعجنون . تالله لقد سمعت كلامه فليس فيه شيء مما ذكرتم .

وأبوجهل كان أشد الناس عداوة للرسول ، وقد قال له ذات يوم : يا
محمد ، إني لا أقول أنك كاذب ، لكنني أجحد الذي جئت به وما تدعو
إليه . فأنزل الله هذه الآية (قد نعلم أنه ليحزنك الذي يقولون ، فإنهم لا
يُكذِّبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون) الأنعام (٣٣) .

ولما تلقى الرسول أمر ربه بأن يدعو ذوي قرباه إلى الإسلام وينذر
عشيرته الأقربين صعد الجبل ونادى :
يا معشر قريش . فلما اجتمعوا قال : هل كنتم مصدقي إن قلت إن
جيشاً قد بلغ سفح هذا الجبل ؟ قالوا : ما جربنا عليك كذباً قط (صحيح
البخاري : سورة تبت) .

ولما أرسل النبي ﷺ كتاب الدعوة إلى هرقل عظيم الروم دعا هرقل أبا
سفيان ليسأله عن هذه الدعوة وصاحبها . وأنتم تعلمون أن أبا سفيان
كان يومئذ على العداوة للإسلام ورسوله مدة ست سنوات متوالية انقضت
بحشد المقاتلة واستنفار المشركين لحرب المسلمين . وانظروا إلى هذا
الموقف يدعى فيه عدو ليسأل عن عدوه اللدود الذي يتمنى لو استطاع أن
يقتله ويمحو اسمه ويخفض من شأنه ، ثم يدعى إلى مجلس رجل عظيم
صاحب سلطان ليشهد عنده في عدوه . فسأله هرقل عن النبي ﷺ :

- كيف نسبه فيكم ؟
قال أبو سفيان : هو فينا ذو نسب .
- هل قال هذا القول منكم أحد قبله ؟
قال أبو سفيان : لا
- هل كان من آبائه من ملك ؟
قال أبو سفيان : لا
- فأشراف الناس أتبعوه أم ضعفائهم ؟
قال أبو سفيان : بل ضعفائهم .
- أيزيدون أم ينقصون ؟
قال أبو سفيان : بل يزيدون .
- فهل يرتد أحد منهم سخطة لدينه ؟
قال أبو سفيان : لا
- فهل كنتم تتهمونه بالكذب ؟
قال أبو سفيان : لا
- فهل يغدر ؟
قال أبو سفيان : لا ونحن منه في مدة لا ندري ما هو فاعل فيها .
- ماذا يأمركم ؟
- يقول : اعبدوا الله وحده ، ولا تشركوا به شيئاً ، واتركوا ما يقول
أهلؤكم . ويأمرنا بالصلاة والصدق والعفاف والصلة^(١) .

(١) البخاري ك ١ ب ٦

فهل تجدون شهادة أعظم من هذه الشهادة ؟ إن الموقف حرج ،
والسائل ملك ذو شوكة وقوة ، يسأل رجلا ملا الضغن صدره عن أمر
الرسول فلا يقول فيه إلا الصديق والحق . فهل تجدون رسولا كاملا أعظم
من محمد ﷺ ، وأي شهادة أصلى من هذه الشهادة ؟ إن تاريخ الرسل
أعجز من أن يأتي بمثلا عن غيره .

سادتي . أريد أن ألفت نظاركم الى أمر آخر جدير بأن تهتموا له
وتعنوا به ، ذلك أن الدين آمنوا بمحمد ﷺ أولا لم يكونوا من صيادي
الشواطيء ولا من الذين استعبدتهم فرعون مصر ، بل كان الذين آمنوا
بمحمد أولا رجالا من أمة عريقة في الحرية ذات عقول ناضجة وفطنة ولهم
حماسة وحمية ، لم تلت قناتهم لحكومة القاهرة ، ولا ذلت أنفثهم دولة قوية
منذ فجر التاريخ ، وكانت لهم تجارة واسعة النطاق تصدر فيها وتورد
سلعهم وأمتعتهم بين بلاد وبلاد ، وكانت مملكة فارس وبلاد الشام ومصر
وآسيا الصغرى مضربهم وموارد تجارتهم ، ولاحتكاكهم بالأمم المتحضرة
ولقائهم الرجال من مختلف الأمم تفتقت آراؤهم واتسعت عقولهم
وازدادت تجارتهم . يدل على ذلك ما أثر عنهم من الأحكام وما وصل
الينا في صفحات التاريخ من الأخبار . وكان من هؤلاء من قاد الجيوش
وانتصر بها فعد من أعظم القادة الفاتحين ، وكان منهم من ساس البلاد
وحكم الناس فأحسن الإحسان كله في سياسته وحكمه حتى عد من أعدل
الولاة وأحكم الحكام سياسة وتديرا . وهل يسوغ في العقل أن من أوتي
مثل هذا العقل الراجح والمواهب العظيمة والرأي الحصيف يخفى عليه
شيء من أمر هذا الرسول ﷺ وينخدع به هؤلاء الرجال هم الذين
نقلوا عنه ما شهدوه بأنفسهم وسمعوه بأذانهم وكاتبوا يرون الاقتداء به
سعادة لهم ، والاهتداء بهديه شرفا لهم في الدنيا وذخرا لهم في الآخرة ،
فاقتفوا آثاره ، وسلكوا سبيله ، واستنوا بسنته وهذا دليل واضح على أنه

الرسول الكامل وأنه على الحق ، مما لا يرده ولا يجادل فيه الا مكابر .

ان رسول الله محمد ﷺ لم يحاول أن يخفي عن الناس أمرا من أموره ، ولا أن يكتتمهم حالة من حالاته ، لذلك عرفوه كما كان في الواقع ، وهو الآن في أذهان عارفيه كما كان في أعين مشاهديه . تقول أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها وقد عاشرت زوجه مدة تسع سنين : لا تصدقوا من يزعم أن محمدا رسول الله قد كنتم مما أوحى اليه فلم يسه للناس إذ يقول الله تعالى (يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك ، وإن لم تفعل فما بلغت رسالته ^(١)) المائدة .

ان من طباع الناس - ولا سيما من يقوم لهم بالاصلاح والهداية والتهذيب - أنهم لا يحبون أن يظهر للناس من نفوسهم ما يؤخذون به أو يعاب عليهم . وفي القرآن الحكيم عدة آيات نبه الله فيها رسوله على بعض خطاه ، فكان الرسول يتلو هذه الآيات كلها على الناس ، ويدعوهم الى حفظها والى تلاوتها في الصلاة والمساجد ، ولا تزال هذه الآيات - كأخواتها - تتلى بالسنة اتباع محمد رسول الله ﷺ ، فحيثما يبلغ انتشار الدين المحمدي ويندب به كثير أو قليل من الناس تتلى هذه الآيات ، ولولا ان هذه الامور ذكرت في القرآن لما انتشر العلم بها هذا الانتشار ، وهكذا السيرة الطاهرة والحياة الكاملة هي التي تتضح للجميع بمثل وضوح النهار أو اشد .

كان العرب في الجاهلية ينكرون نكاح الرجل مطلقة متبناه ، وقد تزوج الرسول زينب التي كانت من قبل زوجا لمتبناه زيد بعد أن طلقها ، فوردت هذه القصة في القرآن ببيان صريح ، وان أم المؤمنين عائشة

(١) صحيح البخاري ، في تفسير هذه الآية .

تقول : لو كنتم رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئا من القرآن لكنتم هذه الآية (أي قصة طلاق زيد لزوجته زينب وزواج النبي ﷺ بها) لكيلا يسيء فهمها الجاهلاء وضعاف العقول ، لكن الرسول ﷺ لم يفعل ذلك . اليس هذا مما يدل على أنه ﷺ لم يكن من أمره شيئا ولا خفي على الناس شيء من سيرته .

وجدير بالذكر شهادة الفاضل الانجليزي باسورث سميت اذ يقول : « ترى الشمس ها هنا بارزة بيضاء تنير أشعتها كل شيء وتصل الى كل شيء . لا شك أن في الوجود شخصيات لا نعلم عنها شيئا ، ولا نتبين حقيقتها ابدا ، أو تبقى منها أمور مجهولة . بيد ان التاريخ الخارجي لمحمد ﷺ نعلم جميع تفاصيله من نشأته الى شبابه ، وعلاقته بالناس ، وروابطه ، وعاداته ، ونعلم أول تفكيره ، وتطوره وارتقاه التدريجي ، ثم نزول الرحي العظيم عليه نوبة بعد نوبة ، ونعلم تاريخه الداخلي بعد ظهور دعوته واعلان رسالته وإن عندنا كتابه (القرآن) لا مثيل له في حقيقته وفي كونه محفوظا مصونا وفي عدم التزام الترتيب في معانيه ، وأنه لم يستطيع أحد ان يشك في قيامه على أساس الصدق شكنا يعتد به ، فهو عندنا مثل لروح عصره ومراة لبيته ، فهو لذلك بريء من كل تصنع أو تكلف . وأنه بعلم التزام الترتيب فيه ، وفي تحدته عن الشيء وضده ، معتب لنا ، غير أنه عامر بالافكار العظيمة . فترى منه نفسا ملأى بتلك الروحانية ، مرتبطة بها ، مقصورة عليها ، ثمة بأمر الله مع الضعف الانساني الذي لم يدع أنه بريء منه ، بل أكبر دليل على عظمة محمد أنه لم يدع قط أنه بريء من ذلك (ص ١٥) . ويقول جيبين : « لم ينجح في الامتحان المسير رسول من الرسل الاولين من بداية أمره كما نجح محمد ﷺ حين عرض نفسه بادیء ذي بدء - بصفته رسولا يوحى اليه -

على الذين عرفوا ضعفه البشري وعرفوه أكثر مما يعرفه غيرهم ، فعرض
رسالته على زوجه وعبيده العنيد وابن عمه وصديقه القديم الذي لم يتحول
عنه ولم يخلده وهؤلاء هم الذين سبقوا الناس الى الايمان بنبوته . ان
نصيب الانبياء انقلب في حق محمد وتغير عما كان عليه فيمن مضى من
الرسل ، فلم يكن محمد غير محبوب إلا من الذين لم يعرفوه . فهذه
الشهادات على أن من كان أعرف الناس برسول الله وأقربهم اليه كان
أشدّهم ايمانا برسالته ، وأما الرسل الآخرون فكان الأجانب والغرباء
الذين لم يعرفوهم الا قليلا هم الذين سبقوا الى الايمان بهم ، وتأخر عن
الايمان بهم وتلكأ ذووهم وأهل بيوتهم والذين كانوا أكثر معرفة بهم .
وهكذا كان المؤمنون برسالة محمد ﷺ هم أعرف الناس بحقيقته وأكثرهم
اطلاعا على أخلاقه وسنته وهديه ، وقد بل كل منهم في سبيل هذا الايمان
بلاء عظيما وامتحان امتحانا شديدا ، حتى ان خديجة زوج النبي ﷺ
قضت معه ثلاث سنوات محصورة في شعب أبي طالب تقاسي معه الجوع
والظما والفاقة المنهكة . وابو بكر صاحب النبي ﷺ يوم ضاقت به ارض
مكة ، فخرج معه مرتديا ظلام الليل خائفا يترقب ، والعدو في أثرهما
يتعقب مواطئ أقدامهما ، فقام ابو بكر بحق الصحبة ، وكان السوفى
بعهد الصداقة ، أما علي فبات على فراش الرسول الذي كان المشركون قد
بيتوا الفتك به . وعبيده زيد حل من النبي الكريم محل الولد بعطفه عليه
ورأفته به ، فلما جاء أبوه الذي ولد من صلبه يطلب رد ابنه عليه خيره
رسول الله ﷺ بين أن يصحب أباه أو يبقى تحت جناحين من عطف
الرسول ورأفته ، فاختار صحبة النبي ﷺ على الرجوع مع ابيه الى
قبيلته . يقول هيجنس في كتابه (الاعتذار عن محمد والقرآن Appology
for Md. and Quran) : ان اتباع عيسى (عليه السلام) ينبغي لهم أن

يجعلوا على ذكر منهم أن دعوة محمد ﷺ أحدثت في نفوس أصحابه من الحمية ما لم يحدث مثله في الاتباع الأولين لعيسى (عليه السلام) ، ومن بحث عن مثل ذلك لا يرجع الا خائبا ، فقد هرب الحواريون وانفضوا عن عيسى حين ذهب به اعداؤه ليصلبوه فخذله أصحابه وصحوا من سكرتهم البدنية واسلموا نبيهم لاعدائه يسفونه كأس الموت . أما اصحاب محمد فالتفتوا حول نبيهم المبغى عليه ودافعوا عنه مخاطرين بأنفسهم الى أن تغلب بهم على اعدائه (انظر الترجمة الأوردية ص ٦٦ - ٦٧ عن مطبوعة برلين سنة ١٨٧٣) .

وحين كثر مشركو قريش يوم أحد على المسلمين فاختلست صفوفهم وتفرق جمعهم نادى الرسول ﷺ : من يفدني ؟ فخرج من الانصار سبعة دافع كل واحد منهم عن الرسول وما زال يقاتل دونه حتى قتل ، وقد قتل لامرأة من الانصار في هذه الحرب ثلاثة رجال من بيتها : أبوها وأخوها وزوجها . وتتابع اليها نعي الثلاثة واحدا بعد واحد ، فكانت تسأل أولا عن الرسول ﷺ : كيف هو ؟ فيقولون لها : انه سالم . ثم لما رأت وجهه ﷺ سري عنها ولم تمالك أن صاحت قائلة : « كل مصيبة بعدك جلت يا رسول الله » .

ان الذين دافعوا عنه وقتلوا دونه وفدوه بأنفسهم قد عرفوه حق المعرفة وعلموا سنته وهديه وخلقه ، ولولا أن حياة الرسول ﷺ كانت عظيمة كاملة ونفسه كانت أحب النفوس اليهم ، وأعظمها في أعين أصحابه وأحبابه ، لما فدوه بأنفسهم . ومن أجل ذلك كانت حياة النبي ﷺ أسوة لأصحابه ومحبة ذريعة لمحبة الله فقال الله عز وجل : (قل إن كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ) . فجعل اتباع الرسول في أخلاقه وأعماله والافتداء بسنته وهديه ، من علامات حبهم لله ، ومن السهل أن يبذل الانسان

نفسه بحية لدينه لأمر يعرض له فجأة ، ولكن من العسير أن يقتدي المرء مدة حياته كلها في جميع أطوارها وشعبها ومناحيها بهدي شخص وسننه اقتداء كاملا لا يجيد عنه ولا يعدل الى شيء غيره ، أما اصحاب محمد رسول الله ﷺ فانهم اتبعوه في جميع اخلاقهم وأعمالهم ومناشر نواحي حياتهم وطرقها واقتفوا أثره وامتحنوا في ذلك امتحانا شديدا وبلوا فيه بلاء عظيمًا ثم خرجوا من هذا الامتحان فائزين . وإن الولع الشديد بالرسول والمحبة الصادقة له قد حمل الصحابة والتابعين وتابعي التابعين ، ثم المحدثين ومؤلفي السير والمؤرخين ، على أن يعنوا عناية كبرى بجمع كل ما يتعلق بالرسول ﷺ من قول وعمل ، وأمر ونهي ، وحديث وخلق ، وإن يبلغوا ذلك للذين يأتون بعدهم ، فأحسنوا كل الاحسان ووفوا هذه المهمة حقها ، ليعمل بهذه الهداية كل مسلم ما استطاع ، ولولا أن حياة محمد ﷺ كانت كاملة وعظيمة في عيون أصحابه لما اعتبروا اتباعه شرفا لهم وكمالا ولما عدوا الاقتداء به ملاك السعادة وأصل الهناء وقوام الخير .

فالإسلام قرر أن حياة محمد هي المثل الكامل لجميع المسلمين ، وينبغي بيان جميع نواحيها وشعبها وجوهرها للناس كافة . وقد حقق المسلمون ذلك وحرصوا على تعرف ذلك وبيانه ، فلم تحف منه خافية ، ولم تفقد ولا حلقة واحدة من سلسلة الحياة النبوية المباركة ، فجميع أحواله وشئونه مسطورة في كتب التاريخ ، ومن ذلك يستدل على أنها كانت حياة كاملة ظاهرة بريئة من كل نقص ، ولا تكون حياة بشر أسوة للناس الا اذا كانت واضحة ناصعة معلومة من كل وجوها ونواحيها جامعة لجميع المحامد شاملة لأكرم الأخلاق وأحسن التعاليم .

لقد كانت لبلاد بابل والهند والصين ولصر والشام واليونان والرومان حضارات زاهرة ومدنيات عظيمة وثقافات عالية ، وقد كانت لأهالي تلك

البلاد سنن في الأخلاق اتخذوا منها أصولا وضوابط للثقافة ، وآدابا للمعاشرة : في النهوض والقعود والكلام والطعام والشراب ، واختاروا مناهج خاصة بعميشتهم ، ووضعوا آدابا لهم في الزي والشارة وأوضاعا في الملابس ، وكان لهم هدي في نومهم ويقظتهم وحدود في لقاء الناس والتعامل معهم ، وسنوا لانفسهم سننا في الزواج ، ورسموا رسوما للتهنئة والتعزية وتكفين الموتى ودفنهم ، ولم يتركوا حالا من أحوال الانسان - من عيادة المريض ومصافحة الاخوان ولقاء الخسلان والاستحمام - الا اتخذوا لها السنن والرسوم والآداب - فنشأت من ذلك أصول وقواعد لمدينتهم وثقافتهم . وبديهي أن هذه السنن والآداب لم تتم لهم الا في قرون متطاولة ، ثم درست آثارها وبحيث رسومها وطمست معالمها ، فكان قيامها واكتمالها في زمان طويل ، وزوالها في مدة قليلة . أما مدينة الاسلام وثقافته فان قيامها واكتمالها وظهور بهائهما في سنوات قليلة ولا تزال مدينة الاسلام وثقافته مستمرة ومعمولا بها في الدنيا منذ أربعة عشر قرنا بين أمم شتى وأقوام مختلفة يستوي في ذلك العربي والهندي والشرقي والغربي ، لان المسلمين اقتبسوا ذلك من مشكاة نبيهم ﷺ وتأسوا فيه بحياته الكريمة ، فاستنارت بهذا النور حياة الصحابة ، وانعكست أضواؤها على حياة التابعين ومن جاء بعدهم ، فنشأت عن ذلك بيئة صالحة زكية ، وكان منها للعالم الاسلامي كله اسوة حسنة في رسومه الفاضلة وآدابه القويمة . ويمكننا ان نقول بعبارة اخرى : ان الحياة المحمدية كانت مركز الدائرة ، فجاء الصحابة فخطوا حول نقطة المركز مخطوطا تمت بها تلك الدائرة والنف المسلمون بعد ذلك من حولها . واذا كانت المدينة الاسلامية لم تبق اليوم في مثل كمالها الاول وجمالها الاسنى فان آثارها لا تبرح باقية تلمع ، والمسلمون يقتفون تلك الآثار الى يومنا هذا . وقد علمنا أن حياة محمد ﷺ كانت في بادئ الامر قدوة لجميع

الصحابة في حياتهم فكانوا يبتدون بهديه ، ويستنون بسنته ، ثم كان لسائر المسلمين أسوة حسنة بهایتخاذونها مثالا كاملا لهم ولا تنفك صورتها معروفة لهم باقية فيهم . ولو أن قبيلة من وثنى الهند أو افريقية تنصرت ودخلت في دين المسيح عليه السلام فانها تأخذ مسيحيتها من الاناجيل ، اما مدنيها ومنهاج حياتها في مظاهرها وأوضاعها فان تلك القبيلة تأخذ عن مدنية أوربا وثقافتها ومنهاج حياتها ، وليس ذلك من المسيحية في شيء . اما الاسلام فاذا دخل في هدايته قوم جدد لم يكونوا مسلمين من قبل ، فانهم كما يقتبسون دينهم مما كان يدعو اليه النبي ﷺ ، فانهم من هديه ومن سنته أيضا يتعلمون آداب المعاشرة ومنهاج الحياة الاجتماعية وطرق المعيشة . وإن تعاليم الرسول ﷺ - من أدب وخلق ومعاشرة - هي التي تؤثر في أخلاق المسلمين فتصاغ في هذه البوتقة حتى تسبك بها في أزكى قالب . وقد قال يهودي مرة لأحد الصحابة وهو يعرض بالاسلام : إن رسولكم بعلمكم كل شيء ، حتى بعض الأمور الحسيرة ، فأجابه الصحابي وهو مغتبط : نعم ، إن رسولنا يعلمنا كل شيء ، حتى آداب الخروج إلى الخلاء .

وكذلك نحن لا نزال نقدم للناس تلك السيرة الكاملة التي هي لنا سراج وهماج في جميع شئون الحياة البشرية ، فكان السيرة المحمدية مرآة صافية للدنيا كلها يرى فيها كل انسان صورته وروحه ، ظاهره وباطنه ، قوله وعمله ، خلقه وأدبه ، هديه وسنته ، وفي استطاعته أن يصلح أخلاقه ويثقف عوجه بحسب ما يراه في تلك المرآة الصافية .

لأجل ذلك لا ترى أمة مسلمة تبحث - في خارج دينها وبمناى عن سيرة نبيها - عن أصول وضوابط تقوم بها اعوجاجها وتنقف منأدها وتصلح زيغها ، لأنها في غنى عما هو اجنبي عنها ، وعندها في هدي سيرة نبيها ﷺ

الميزان القويم والقسطاس المستقيم ، الذي تثبت به ما في العالم من خير وشر وتميز به الحق من الباطل . وفي الحق إن العالم كله نفي حاجة شديدة الى سيرة بشر كامل تتخذ من حياته الأسوة العظمية ، وليس في الدنيا إنسان كامل يعرف التاريخ سيرته على التفصيل كما يعرف تفاصيل حياة محمد ﷺ خاتم النبيين . فالناس كلهم في أمس الحاجة إلى أن يتخذوا من السيرة المحمدية منهاج حياتهم ، ففيها الأسوة الطاهرة ، وهي الحياة المثالية للناس جميعا . ﷺ .

المحاضرة الخامسة

في سيرة محمدية من ناحية الجامعة

(قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله) .

سادتي : إن جميع الأديان والنحل حثت الناس على اتباع أصحاب هذه الأديان ، وأن يقتنوا آثارهم . ويمثلوا (بأقوال) أنبيائهم ، لينالوا بذلك رضا الله ومحبه .

أما الاسلام فقد اختار طريقا آخر خيرا من ذلك ، وهو أنه قلم للناس (أعمال) نبيه ، وعرض عليهم التماسي به في سيرته كاملة ليس فيها خرم . وجعل اتباعهم لتلك السيرة وتأسسهم بصاحبها وسيلة لهم في الحصول على رضا الله ومحبه . لأجل ذلك ترى في الاسلام مرجعين : كتاب الله ، وسنة نبيه . فأحكامه تعالى قد جاءتنا في كتابه وهو القرآن الحكيم ، وفي سنة نبيه ﷺ . والسنة في اللغة : الطريقة . والمراد بها في اصطلاح الشريعة الاسلامية الطريقة التي اختارها الرسول وسلكتها عاملا بأحكام الله . فمعنى السنة إذن الأسوة النبوية وسيرة الرسول الطاهرة التي أثرت عنه وبلغتنا كاملة في كتب الحديث الصحيحة ، والمسلم لا ينجح في دينه ولا يكمل في اسلامه إلا باتباع السنة النبوية وحدها .

وليس من الممكن ان يكون جميع الداخلين في دين من الأديان من طائفة بشرية واحدة ، أو ان يكونوا من شعب انساني واحد ، لأن الدنيا قد قام بنيانها على التنوع في الأعمال والاختلاف في الافعال ، ولولا ان الناس مختلفون في مهنهم ومكاسبهم وأشغالهم ومعايشهم ، وهم

يتعاونون ويساعد بعضهم بعضاً ، لخربت الدنيا . ولا بد للعالم من ملك أو رئيس جمهورية أو وال يتولى أمورهم العامة وحاكم يحكم فيما بينهم فيما يختلفون فيه . وكذلك لا تخلو الدنيا من رعية يرعى أمورهم رئيس ، ومن محكومين يحكم فيهم حاكم ، ومن خصوم يقضي بينهم قاض بالعدل ، ليسود الأمان ويستتب السلام . وكذلك الأمم تحتاج الى أن يكون لها جنود يدافعون عن كيانها ، وأن يكون على الجنود ضباط وقادة . وتجد فيهم الفقراء الذين يعانون الشدة والبؤس كما تجد فيهم الأغنياء من أهل الترف والسرف . وفيهم عباد الله يقومون بطاعته في جوف الليل ، وزهاد تحرروا من متع الدنيا وزخارفها ، ومجاهدون في سبيل الله يقارعون الباطل ويقومون الحق في الأرض . وكذلك ترى في الدنيا العائلين الذين يكذبون لمن يعولونهم ، وتسرى فيها لفيف من الأصدقاء المتحايين ، وطوائف التجار والمحترفين ، وأصحاب المصانع والمعامل . وهكذا الدنيا لا تخلو من قادة الأمم وساسة الشعوب وزعماء الأحزاب . وعلى شتى الطوائف ومختلف الفرق قام نظام هذه الدنيا ، وكل منهم يحتاج في عمله الى حياة مثالية وأسوة كاملة يقتدي بها ليكون سعيداً في الحياة . والاسلام دعا جميع هذه الفرق والطوائف والأحزاب لأن يتبعوا سنة محمد ﷺ ويقتفوا آثاره ويسلكوا طريقه . ومن تتبع ذلك يتبين له أن السنة المحمدية تكفي جميع شعوب البشر وطوائفهم وفرقهم اذا اتخذوا منها الأسوة والقدوة ، ففيها النور الذي يستضاء به في ظلمات الحياة الاجتماعية ، وكم من ظلمة خالكة في الحياة ! ومن هنا تعلم أن سيرة محمد رسول الله ﷺ جامعة تجد فيها كل طائفة من طوائف البشر المثل الأعلى الذي تقتدي به والأسوة التي تأتسي بها . ومن الظاهر الواضح أن حياة المحكوم لا تصلح لأن تكون قدوة لحياة الحاكم ، كما أن حياة الحاكم لا تصلح لأن تكون قدوة لحياة المحكوم . وكذلك الفقير المعدم لا يتسنى له

أن يسير في معيشتة على ضوء من حياة الغني المشري . ومن ثم مست الحاجة الى أن تكون الحياة المحمدية جامعة يجد فيها الناس كلهم على اختلاف طوائفهم الأسوة الكاملة في جميع ألوان الحياة وأطوارها . وإن مثلها كمثل الباقية الجامعة لكل أصناف الزهور والورود بجميع ألوانها : ففيها الأحمر القاني والأبيض الناصع والأخضر الناضر والأصفر الفاقع .

وفي البشر طوائف مختلفة وفرق شتى تحتاج كلها الى حياة مثالية تكون نموذجاً لها في حياتها ومعيشتها . ولكل إنسان من هذه الطوائف أعمال وأحوال تتقلب عليه بتقلب الظروف : بين قيام وقعود ومشى وأكل وشرب ونوم ويقظة وضحك وبكاء وارتداء الملابس وخلعها وأخذ وعطاء وتعلم وتعليم ، وقد يموت حتف أنفه أو يقتل ، ويكون محسناً لغيره أو محتاجاً لإحسان الآخرين إليه ، وقد يكون في عبادة ربه أو في معاملة الناس ومعاشرتهم ، وقد ينزل على غيره ضيفاً أو يستقبل الضيف ويقوم له بحق القرى . هذه الأحوال وغيرها تطرأ على الإنسان وتعرض له فيما يتعلق بجسمه وجوارحه فيحتاج في كل حال منها إلى هداية نافعة وأسوة كاملة .

وأعظم من الأسوة في أعمال الإنسان الظاهرة ، الأسوة فيما يتعلق بخطرات القلوب ومجالات الفكر ونزعات العواطف ، فنحن نشعر بين كل حين وآخر بنزعات وعواطف تخالج قلوبنا وأفكارنا ، فنرضى ونسخط ، ونفرح ونحزن ، وتعطينا السكينة والطمأنينة أو القلق والضجر . وترتب على هذه الأحوال عواطف مختلفة ونوازع متعددة . وليس الخلق الحسن إلا التعديل بين هذه الأحوال وإقامة الوزن بالقسط بين العواطف القوية والنوازع الشائرة . ولا يحظى بنصيبه من مكارم الأخلاق إلا الذي يعرف كيف يكبح النفس عند جموحها ويحسن التصرف فيها وقت ثورتها . ومع ذلك فلا بد للإنسان من إمام تكون له فيه الأسوة

التامة في هذه الامور فيأتى به في قهر هذه القوى الشائرة والعواطف المتوثبة الى أن تسكن ثورة نفسه ويسلك في ذلك مسلك قدوته الأعظم وهو النبي ﷺ الذي يحمل بين جنبيه قلبا زكيا ونفسا طاهرة وروحا عالية نزيهة .

وهكذا المرء في كل خلة من خلايا العزيمة والشجاعة والشكر والتوكل والرضا بالقدر والصبر على النوائب والتضحية والقناعة والاستغناء والايثار والجود والتواضع والمسكنة ، وسائر ما يطرا على البشر في منفسح حياتهم ومدى عيشهم ، وما ربما يعثري هذه الخصال في ساعات مختلفة من مضطرب حياة الانسان ، فانه يحتاج في كل ذلك الى أسوة وهداية ممن سبق له العمل بذلك ، وأتى لنا هذه الاسوة الكاملة والهداية التامة إلا في حياة محمد رسول الله ﷺ .

إن حياة موسى عليه السلام تمثل لنا القوة البشرية العظيمة والبطش الشديد ، ولكننا لا نعرف في الماثور عنه ما تكون لنا فيه الاسوة من ناسحة دمائه الخلق وتخفيض الجناح وسجاجة النفس وسماحتها .

وفيما نعرفه من حياة المسيح نماذج لساحة النفس ورقة الطبع ودمائه الخلق ولين الجانب ، لكننا لا نجد فيما وصل اليها من أخلاقه وأعماله تفاصيل عن شئون حياته وأسرته تحرك ساكن القوى وتثير كوامن النفس وتنبيه القوى المتراخية . والانسان في حياته محتاج إلى هذا وهذا ، فكما يحتاج إلى ما يهدىء ثائر قواه ويسكن جائشها يحتاج كذلك إلى ما يشير الكامن من هذه القوى ويهيج ساكنها وينبه المتراخي منها . إنه في حاجة الى حياة يتخذها قدوة له في هاتين الحالتين المختلفتين ، على أن يكون بيد صاحبها ميزان العدل بالقسط تستوي كفتاه ، ولن تجد الجمع بين هاتين الخصيلتين المختلفتين جمعا قويا عزيز الوجود إلا في حياة محمد ﷺ ، فانه هو الذي مثلت حياته أعمال كثيرة متنوعة بحيث تكون فيها الأسوة

الصالحة والمنهج الأعلى للحياة الانسانية في جميع اطوارها لأنها جمعت بين الأخلاق العالية والعادات الحسنة والعواطف النبيلة المعتدلة والنوازع العظيمة القويمة .

إذا كنت غنيا مثريا فاقتد بالرسول ﷺ عندما كان تاجرا يسير بسلعه بين الحجاز والشام ، وحين ملك خزائن البحرين . وإن كنت فقيرا معدما فلتكن لك أسوة به وهو محصور في شعب أبي طالب ، وحين قدم الى المدينة مهاجرا اليها من وطنه وهو لا يحمل من حطام الدنيا شيئا . وإن كنت ملكا فاقتد بسننه وأعماله حين ملك أمر العرب وغلب على آفاقهم ودان لطاعته عظماءهم وذوو أحلامهم . وإن كنت رعية ضعيفا فلك في رسول الله أسوة حسنة أيام كان محكوما بمكة في نظام المشركين . وإن كنت فاتحا غالبا فلك من حياته نصيب أيام ظفروه بعدوه في بدر وحنين ومكة . وإن كنت منهزما - لا قدر الله ذلك - فاعتبر به في يوم أحد وهو بين أصحابه القتل ورفقائه للمثخنين بالجراح . وإن كنت معلما فانظر اليه وهو يعلم أصحابه في صفة المسجد . وإن كنت تلميذا متعلما فتصور مقعده بين يدي الروح الأمين جاثيا مسترشدا . وإن كنت واعظا ناصحا ومرشدا أمينا فاستمع إليه وهو يعظ الناس على أعواد المسجد النبوي . وإن أردت أن تقيم الحق وتصدع بالمعروف وأنت لا ناصر لك ولا معين فانظر اليه وهو ضعيف بمكة لا ناصر ينصره ولا معين يعينه ومع ذلك فهو يدعو الى الحق ويعلن به . وإن هزمت عدوك وخضدت شوكته وقهرت عناده فظهر الحق على يدك وزهق الباطل واستتب لك الأمر فانظر الى النبي ﷺ يوم دخل مكة وفتحها . وإن أردت أن تصلح أمورك وتقوم على ضياعك فانظر اليه ﷺ وقد ملك ضياع بني النضير وخيبر وفدك كيف دبر أمورها وأصلح شئونها وفوضها الى من أحسن القيام عليها . وإن كنت يتما فانظر

إلى قلعة كبد آمنة وزوجها عبد الله وقد توفيا وابنه صغير رضيع . وإن كنت صغير السن فانظر الى ذلك الوليد العظيم حين أرضعته مرضعته الخنون حليمة السعدية . وإن كنت شابا ناشئا فاقرا سير راعي مكة . وإن كنت تاجرا مسافرا بالبضائع فلاحظ شئون سيد القافلة التي قصدت بصرى . وإن كنت قاضيا أو حكما فانظر الى الحكم الذي قصد الكعبة قبل بزوغ الشمس ليضع الحجر الأسود في محله وقد كاد رؤساء مكة يقتلون ، ثم ارجع البصر اليه مرة أخرى وهو في فناء مسجد المدينة يقضي بين الناس بالعدل يستوي عنده منهم الفقير المعدم والغني الثري . وإن كنت زوجا فاقرا السيرة الطاهرة والحياة النزيهة لزوج خديجة وعائشة . وإن كنت أبا أولاد فتعلم ما كان عليه والد فاطمة الزهراء وجد الحسن والحسين . وأيا من كنت ، وفي أي شأن كان شأنك ، فإنك مهما أصبحت أو أمسيت وعلى أي حال بت أو أصبحت فلنك في حياة محمد ﷺ هداية حسنة وقدوة صالحة تضيء لك بنورها دياجي الحياة ، وينجلي لك بضوئها ظلام العيش ، فتصلح ما اضطرب من أمورك ، وتثقف بهديهِ أودك ، وتقوم بسنته عوجك . وإن السيرة الطيبة الجامعة لشتى الأمور هي ملاك الأخلاق وجماع التعاليم لشعوب الأرض وللناس كافة في أطوار الحياة كلها وأحوال الناس على اختلافها وتنوعها . فالسيرة المحمدية نور للمستنير ، وهديها نبراس للمستهدي ، وإرشادها ملجأ لكل مسترشد .

كان الواعظ الذائع الصيت الأستاذ حسن علي رحمه الله يصدر في (بته) قبل خمسين عاما مجلة (نور الإسلام) وقد قال في جزء منها ان صديقا له من البراهمة قال له : إني أرى رسول الإسلام أعظم رجال العالم وأكملهم . فقال له الأستاذ حسن علي : وما هي منزلة المسيح عيسى بن مريم عندك من رسول الإسلام ؟ فأجابه : إن المسيح بن مريم

عندي في جانب محمد ﷺ كمثل ولد صغير يتكلم بكلام عذب ويتحدث حديثا حلوا عند أعقل أهل زمانه وأكثرهم حزما . ثم سأله حسن علي : وبماذا كان رسول الاسلام عندك أكمل رجال العالم ؟ فأجاب : لأنني أجد في رسول الاسلام خللا مختلفة وأخلاقا حجة وخصالا كثيرة لم أرها اجتماعت في تاريخ العالم لإنسان واحد في آن واحد : فقد كان ملكا دانت له أوطانه كلها يصرف الأمر فيها كما يشاء وهو مع ذلك متواضع في نفسه يرى أنه لا يملك من الأمر شيئا وأن الأمر كله بيد ربه . وتراه في غنى عظيم تأتيه الأبل موقرة بالخزائن إلى عاصمته ، ويبقى مع ذلك محتاجا ولا توقد في بيته نار لطعام في الأيام الطوال وكثيرا ما يطوي على الجوع . وتراه قائدا عظيما يقود الجند القليل العدد الضعيف العدد فيقاتل بهم ألفا من الجند المدجج بالأسلحة الكاملة ثم يهزمهم شرمزيمة . ونجده حبا للمسلم مؤثرا للصالح ويوقع شروط الهدنة على القرطاس بقلب مطمئن وجاش هادئ ومعه ألف من أصحابه كل منهم شجاع باسل وصاحب حماسة وحمة تملأ جوانحه ونشأه بطلا شجاعا يصمد وحده لآلاف من أعدائه غير مكترث بكثرتهم ، وهو مع ذلك رقيق القلب رحيم رؤوف متعفف عن سفك قطرة دم . وتراه مشغول الفكر بجزيرة العرب كلها ، بينما هو لا يفوته أمر من أمور بيته وأزواجه وأولاده ، ولا من أمور فقراء المسلمين ومساكينهم ، ويهتم بأمر الناس الذين نسوا خالقهم وصدوا عنه فيحرص على إصلاحهم . وبالجملة أنه إنسان يهيم أمر العالم كله ، وهو مع ذلك متبتل إلى الله ، منقطع عن الدنيا ، فهو في الدنيا وليس فيها ، لأن قلبه لا يتعلق إلا بالله وبما يرضي الله . لم ينتقم من أحد تطلعات نفسه ، وكان يدعو لعدوه بالخير ، ويريد لهم الخير ، لكنه لا يعفو عن أعداء الله ، ولا يتركهم ، ولا يزال ينذر الذين قد صدوا عن سبيل الله ويوعدهم عذاب جهنم . تراه زاهدا في الدنيا عابدا ، يقوم الليل للذكر الله ومناجاته . كما

تتصور من شأنه أنه الجندي الباسل المقاتل بالسيف . وتراه رسولا
حصيفا ونبيا معصوما في الساعة التي تتصوره فيها فاتحا للبلاد ظافرا
بالأمم . وانه ليضطجع على حصير له من خوص ويتكىء على وسادة
حشوها من ليف حينما يخطر على بالنا أن ندعوه بسلطان العرب وننادي به
ملكا على بلاد العرب . ويكون أهل بيته في فاقة وشدة عقب استقباله
الاموال العظيمة آتية إليه من أنحاء الجزيرة العربية فتكون في فناء مسجده
أكواما ، وتأتيه بنته وولده كبد فاطمة تشكو اليه ما تكابده من حمل القربة
والطحن بالرحى حتى مجت يداها وأثرت القربة في جسمها ، والرسول
يومئذ يقسم بين المسلمين ما أفاء الله عليهم من عبيد الحرب وإمائها ، فلا
تنال بنته من ذلك الا دعاءها لها بكلمات يعلمها كيف تدعو بها ربه .
وجاءه ذات يوم صاحبه عمر ، فأجال بصره في الحجرة فلم يجد إلا حصيرا
من خوص قد اضطجع الرسول عليه وأثر في جنبه ، وكل ما في البيت
صاع من شعير في وعاء وعلى مقربة منه شن معلق على وتد . هذا كل ما
كان يملك رسول الله يوم دان له نصف العرب . فلما رأى عمر ذلك لم
يئالك نفسه من دموع تدرفها عيناه ، فسأله رسول الله ﷺ : ما يبكيك يا
عمر ؟ فقال : وسالي لا أبكي ، إن قبصر وكسرى يتمتعان بالدنيا ،
وينعمان بنعيمها ، وإن رسول الله ﷺ لا يملك إلا ما أرى . فقال له
الرسول ﷺ : أما ترضى يا عمر أن يكون ذلك نصيب كسرى وقبصر من
نعيم الدنيا ، وتكون لنا الآخرة خالصة من دون الناس ؟

وعندما أحلق النبي ﷺ بجيوشه ليفتح مكة قام أبو سفيان إلى جانب
العباس عم النبي ﷺ ينظران الى المجاهدين من المسلمين تتقدمهم
الأعلام الكثيرة ، وكان أبو سفيان لا يزال على ما كان عليه من المخالفة
للاسلام ، فراعه ما رأى من كثرة جموع المسلمين ومن انضوى اليهم من

القبائل المسلمة وإلهم يزحفون على بطحاء مكة كالسيل الجارف لا يصدّه صناد ولا يمنعّه شيء ، فقال لصاحبه : يا عباس إن ابن أخيك أصبح ملكاً عظيماً . فأجابه العباس وهو يرى غير الذي يراه أبوسفيان : ليس هذا من الملك في شيء يا أبا سفيان ، هذه نبوة ورسالة .

وعديّ الطائي - وهو ابن حاتم الذائع الصيت الذي تضرب به الأمثال في الجود والسخاء - كان سيد طيء ، وحضر مجلس الرسول ﷺ ذات يوم وهو لا يزال على المسيحية ، فشاهد إعظام الصحابة للرسول ، وعليهم عدة الجهاد من الأسلحة واللامه للدفاع ، فاشتبه عليه أمر النبوة بأمر السلطان ، وتساءل في نفسه : أهذا ملك الملوك أم رسول من رسل الله ؟ وفيما هو كذلك جاءت إلى النبي ﷺ امرأة فقيرة من إماء المدينة وقالت له : أريد يا رسول الله أن أسرّ إليك شيئاً . فقال لها : انظري في أي سكك المدينة شئت أنخلوك . ثم نهض معها وقضى لها حاجتها . فلما رأى ابن حاتم الطائي هذا التواضع العظيم من الرسول العظيم وهو بين أصحابه في مثل عظمة الملك ، انجلى عنه ظلام الباطل وتبين له الحق واضحا وإيقن أن هذا الأمر من رسالات الله ، فعمد إلى صليبه فنزعه ودخل مع أصحاب رسول الله ﷺ في نور الاسلام .

وفي الجملة إن كل ما ذكرته آنفا ليس من الاطراء في الشناء ولا من المبالغة في المدح ، بل هو من حقائق الواقع التي سجلها التاريخ بأصح ما استطاع أن يسجل به حقائقه . وبما لا ريب فيه أنه لا يستحق إنسان أن يكون قدوة للعالم في جميع مناهج الحياة إلا إذا اجتمعت فيه الخلال الشريفة كلها والخصال الانسانية الكاملة بأجمعها مما يحتاج اليه الناس في معاشهم ، فتكون لهم في سيرته أمثلة كثيرة ، وفي هديه أمور متنوعة ، تستنير بها كل طائفة من طوائف الناس ، وكل فرقة في كل أمة من أممهم ،

فيتخذون في أنفسهم سنا وادبا ومناهج من حياته الشريفة لحياتهم الاجتماعية والعائلية . وبذلك يكون الشخص العظيم المقتدى به هاديا للناس بأعماله وأخلاقه وخصاله عندما يكون في حالات الغضب أو الرحمة أو الجود أو الفاقة أو الشجاعة أو رقة القلب فيهدون به في هذه الاحوال بدنياهم كما يهدون به بصحة الاعتقاد وسلامة العبادة لأخوتهم . فهو يجمع إلى اسعاد الناس في آخرتهم إسعادهم في حياتهم الدنيا وأحداثها اليومية ، فيسر لهم خلافة الله على الأرض كما يدرهم على مقام الكرامة في ملكوت السماء . وهو مع ذلك يسن لهم السنن ويشرع لهم الاحكام لينظموا حياتهم في الأرض والسماء . وإن العفو والمسامحة واللين وخفض الجناح للأخيار من قوام الحياة الانسانية ، ولا يسعد الانسان إلا بلسن القول والعفو عن الناس وخفض الجناح لهم ، ومن كان نصيبه وأفرا من هذه الخصال كان المعلم العظيم والمحسن الكبير . وإنني أسألكم فأجيئوني : هل هذه الخصال وحدها هي التي تكون في الانسان ، أم تكون فيه أضدادها أيضا ؟ أليس في خصال الانسان الغضب بجانب ما فيه من رحمة ، والعداوة بجانب الصداقة والخلة ، والطمع مع القناعة ، والشر مع العفة . أليس يتزع إلى الفأر كما يميل إلى العفو ، أليس هذا كله مما تقتضيه جبلة الانسان وخصايته ؟ إن المعلم الكامل هو الذي يستطيع أن يعتدل بين هذه الاحوال وخصال المتضادة ، ويقيم الميزان في هذه النزعات والمواقف حتي يكسر سورتها ويخفف من شدتها ويكون عادلا معتدلا ، فتكون له من سجايه الطيبة مطية كريمة تبلغ به الغاية القصوى من الحق . أما الذين يزعمون أن ملاك أديانهم وقوام نحلهم العفو واللين فحسب ، وليس في سيرة رسلهم إلا المسامحة وخفض الجناح ، فانيثوني بفضلكم . كم يوما عمل أتباعهم بهذه السيرة في مجتمعاتهم ، وإلى متى استمروا على هذا الهدى في حياتهم الاجتماعية بين زمن قسطنطين أول

الملوك المسيحيين إلى يومنا هذا ، وأي ملك مسيحي عمل في دولته بسيرة نبيه ؟

لقد قامت للأمة المسيحية دول كثيرة في بقاع الأرض ، فخيروني أي دولة مسيحية سنت لرعايتها قوانين تلائم سيرة رسولها من العصور عن الجنة ، والذين لمن اغلظ، وخفض الجناح لمن اشتد ؟ وإذا لم تكن في سيرة رسول من رسل الله أسوة لأتباع ذلك الرسول أنفسهم فكيف يكون حالها ؟

وإذا رجعت إلى حياة نوح ترى الغيظ والحق على الكفر وأهله وعلى الشرك ومن يدين به . وترى في حياة إبراهيم جهادا في تحطيم الاصنام وإبطال عبادة الأوثان . وفي حياة موسى قتالا للمشركين بالله ، وقد سن للمؤمنين به سننا اجتماعية وقوانين ملكية . وترى المسيح عيسى بن مريم يعفو ويصفح ويلين للناس ويخفض لهم جناحه فتعلم نفسك إعجابا بعفوه وعفته . وأما سليمان عليه السلام فيعجبك بجلالته وسلطانه وأبهة ملكه . وتمثل لك حياة أيوب معالي الصبر على المكروه وشكر الله على الرغائب . ويمثلك يونس إعجابا بإثابته إلى الله وتدمه على ما فرط منه . ويوسف عليه السلام يهديك كيف يقوم الإنسان بدعوة الحق وهو أمير عان وكيف يصون نفسه ويستمسك بعفافه حين ترادوه امرأة ذات جمال وجلال ومال وعظمة . وفي حياة داود درس عظمة وصحيفة عبرة إذ يبكي من خشية الله ويحمده ويدعوه متضرعا إليه . وفي سيرة يعقوب أسوة للمرأة فيما يرجوه من رحمة الله والثقة به والتوكل عليه عندما تظلم الدنيا في عينه . أما سيرة محمد ﷺ فإنها تجمع ذلك كله وتشتمل على جميع هذه الخصال وتعم الأخلاق الكريمة بحذافيرها وما تفرق منها في سيرة نوح وإبراهيم وموسى وعيسى وسليمان وداود وأيوب ويونس ويوسف ويعقوب عليهم الصلاة

والسلام ، فكان السيرة المحمدية بحر لحي تنصب فيه الأنهار وتتصل به كل البحار من سير الانبياء والرسل وهدىهم وسنتهم .

روى الخطيب البغدادي في تاريخه باسناد لين أن نداء سُمع عند مولد النبي ﷺ أن طوفوا بمحمد جميع البلاد واغطسوه في قعر البحار ليعرف العالم كله ، ثم اذهبوا به إلى جميع الانس والطيور والحيوان ، وأعطوه من خلق آدم ومعرفة شيث وشجاعة نوح وخلة ابراهيم ولسان اسماعيل ورضا إسحق وبلاغة صالح وحكمة لوط وشدة موسى وصبر أيوب وطاعة يونس وجهاد يوشع ولحن داود وحب دانيال ووقار الياس وعفة يحيى وزهد عيسى ، واغطسوه في بحر اخلاق الرسل كلهم .

والعلماء الذين رووا هذه الرواية في كتبهم أرادوا بها أن يعربوا عن حقيقة سيرة الرسول وانها كاملة جامعة ، وأن ما أعطى الرسل جميعا متفرقين قد أوتي به محمد ﷺ وحده ، وأن ما تفرق من مكارم الاخلاق في الرسل قد اجتمع فيه ﷺ .

تأملوا سيرة محمد ﷺ تجدوا فيها كل ما كانت به حياته المثالية كاملة . ليس الرسول المكّي الذي خرج من بلده مهاجراً إلى يثرب يشبه الرسول الاسرائيلي الذي خرج من مصر يريد مدين ؟ ليس الذي انزوى في غار حراء يعبد ربه كالذي قصد جبل سيناء ليناجي ربه ؟ إن هذا يشبه ذلك مع فارق بينهما وهو أن عيني محمد كانتا مفتوحتين وعينا موسى كانت مغمضتين ، وأن رسول الاسلام كان ينظر في داخله ورسول بني اسرائيل كان ينظر إلى خارجه .

إن عيسى عليه السلام في ذهابه إلى جبل الزيتون ليلقي عظته يشابه محمد ﷺ وقد ارتقى جبل الصفا لينادي معاشر قريش . والذي قاتل

مشركي بلاد العرب في بدر وحنين ويوم الاحزاب وتبوك يشبه موسى الذي
قاتل المؤابيين والعمونيين والأموريين .

وإن الرسول محمداً ﷺ دعا على سبعة رجال من أعيان مكة فهلكوا ،
وموسى دعا على فرعون ومن النف حوله حين راوا بأعينهم آية بيته من الله
مرة بعد أخرى لكنهم لجوا في عتو ونفور ولم يؤمنوا به فهلكوا مغرقين في
البحر الأحمر ، فتشابهت سنة الرسول محمد وسنة الرسول موسى عليهما
الصلاة والسلام .

إن محمداً نبي الله دعا بالخير لمن أراد قتله من المشركين يوم أحد ، وإن
عيسى عليه السلام لم يدع على أحد وما زال يبغى الخير لأعدائه ، أليس
هذي محمد رسول الله ﷺ يشابه من هذه الناحية هذي عيسى رسول
الله ﷺ ؟ وإن محمداً رسول الله ﷺ حين تراه في فناء المسجد يقضي بين
الناس بالحق ويحكم بالعدل ، أو في ساحات الحرب يقاتل الكفار
والمشركين ، فكانك ترى موسى رسول الله وهو يجاهد أعداءه ويقاتل
الذين يعبدون الاوثان . وحين ترى محمداً رسول الله يعبد ربه ويتضرع
إليه في خلوة عن الناس إما في حجرة منفردة أو في مغارة الجبل وقد أرخى
الليل سدوله فكانك ترى عيسى وقد خلا بنفسه يوحد الله ويناجيه
بالعبودية له .

ولو رأيت نبي الاسلام وهو يذكر الله دائماً ويحمده ويسبحه في البكور
والأصال وفي كل حال - فاذا بدا بالأكل بدأه باسم الله ، وإذا فرغ منه
حمد الله ، وإذا جلس مع أحد كان التذكير بالله من عمله في ذلك المجلس
وإذا نام وهو يذكر ربه ويستعرض آلاءه عليه - فكانك برؤية
نبي الاسلام قد رأيت النبي صاحب الزبور في ترتيله بحمد الله ونعمه .
وكأنك ترى سليمان في جنوده وعليه جلال الملك وأبهة السلطان حينما ترى

محمدًا بين أصحابه وقد فتح مكة ودخلها تحت رايات المجاهدين بأيديهم
السيوف مصلته لاقامة الحق ، والعوالي السمر مشرعة لتقويض دعائم
الباطل . أما اذا رأيت وهو محصور مع ذويه في شعب أبي طالب وقد منع
دخول الطعام والشراب اليه من الخارج فكأنك ترى يوسف الصديق وهو
في سجن مصر يعاني شدائد الظالمين ويكابدها .

إن موسى قد جاء بالأحكام ، وداود امتساز بدعاء الله والتغني
بمناجاته ، وعيسى بعث ليعلم الناس مكارم الاخلاق والزهد في الدنيا .
وأما محمد رسول الله ﷺ فقد جاء بكل ذلك : بالأحكام ، ودعا الله ،
والتوجيه إلى مكارم الاخلاق ، والحض على الزهد في الدنيا وزينتها ،
وكل هذا تجده في القرآن الحكيم لفظا ومعنى ، وفي السيرة المحمدية قدوة
وعملا .

سادتي : وأحب أن الفت انظاركم الى ناحية أخرى من نواحي السيرة
المحمدية تدل على جامعيتها .

إن في الدنيا نوعين من المدارس : نوع يختص بفرع واحد من فروع
المعرفة ، كالطب ، أو الهندسة ، أو التجارة ، أو الصناعة ، أو الفنون
الحربية أو الزراعة ، أو الحقوق ، أو اللغة والأدب . ونوع يجمع هذه
المعاهد العلمية كلها ، فمن قصده استطاع أن يتسبب إلى أي فرع شاء من
فروع المعارف الانسانية . وهذا النوع الثاني هو الذي تهرع اليه طوائف
الطلبة من جميع البلاد فيجد فيه كل منهم ما تميل نفسه الى التخصص فيه
من العلوم ، وبهذا سميت مجموعة هذه المعاهد باسم (الجامعة) ، ومنها
يتخرج قضاة المحاكم والأطباء والمهندسون وقادة الجند والناهضون بعلوم
الزراعة أو الصناعة أو التجارة والمتخصصون بالأدب وعلومها والثقافة
العليا وفنونها .

ومن الين الواضح للمتأملين أن المجتمع الانساني لا يتم كماله ولا تسعد حياته بضرب واحد من العلوم ، ولا بصنف خاص من أهل الحرف والصناعات بل يحتاج إلى مجموع ذلك كله . وإذا استقصينا ما يعرفه التاريخ من سير الأنبياء ، ولا حظنا ما خلفوه من ثمرات أشجارهم ، عملاً بقول المسيح « من ثمارهم تعرفونهم » ، فإننا نجد هؤلاء المعلمين الربانيين والأنبياء والمرسلين تلاميذ ومهتدين ، فالواحد منهم يكون له عشرة تلاميذ ، وآخر منهم يكون له عشرون تلميذاً ، ونرى لبعضهم ستين أو سبعين ، ومائة أو مائتين ، وألفاً أو ألفين ونادراً ما يكون لأحد الأنبياء من التلاميذ والأصحاب ما يبلغ خمسة عشر ألفاً . أما المدرسة الأخيرة من مدارس النبوة وهي مدرسة خاتم النبيين محمد ﷺ فقد كان تلاميذها يعدون بمئات الألوف .

وإذا أردت أن تعلم من هم تلاميذ المدارس النبوية الأخرى ، ومن أين جاءوا إليها ، وفي أي البلاد ولدوا ، وما بلغهم من العلم . ثم كيف كانت اخلاقهم ، وكم أخذوا من أخلاق نبيهم وشيئله ، وكم كان تأثير تعليم نبيهم فيهم ، وما هي سيرتهم وهديتهم ، وكم صلحت أعمالهم باصلاح رسولهم لهم ، فانك لن تجد لأسئلتك هذه أجوبة عليها إلا فيما يتعلق بآخر مدارس النبوة ، فانك تجد لها جواباً على كل سؤال من هذه الأسئلة كلها بالتفصيل ، وتستطيع أن تقيد في دفترك أسماء تلاميذ هذه المدرسة ، وأماكن ميلادهم ، ووصف ما تعلموه منها ، ومبلغ تأثيرهم باخلاق نبيهم ، ومعرفةهم بأحواله وشئونه . كل ذلك تجده مسجلاً مدوناً مضبوطاً بوضوح وجلاء .

وهلم بنا نعرض على جهة أخرى : إن جميع أصحاب الملل والنحل يدعون أن أبوابهم مفتحة للجميع . فتعالوا نرى من منهم كانت دعوته

عامة لجميع الناس ، وأبوابه مفتحة لمختلف الأمم والطوائف البشرية بلا استثناء . ومنّ منهم كانت حلقة في عهده مقصورة على رجال من أمة واحدة ، وعلى طائفة خاصة من تلك الأمة . إن جميع أنبياء بني إسرائيل لم تتجاوز دعوتهم بلاد العراق أو بلاد الشام أو بلاد مصر ، أي أنهم لم يخرجوا من الأرض التي كانوا يسكنونها ، ولم يوجهوا دعوتهم إلا لأمتهم من بني إسرائيل . ولذلك لا ترى في مدارس عيسى عليه السلام رجلا غير إسرائيلي ، لأنه إنما كان ينشد الغنم الضالة من بني إسرائيل (متى ٧ : ٢٤) ، وإنما اقتصر على بني إسرائيل لئلا يلقي رغبف الصبيان إلى كلاب (الانجيل) . وأصحاب الأديان في الهند لم يكن يخطر ببالهم أن يخرجوا من أرض الأمة الآرية المقدسة (باك أريه ورت) . نعم لقد نشر ملوك البوذية دينهم في خارج الهند ، وبلغوا دعوة بوذا إلى الأمم الأخرى ، لكن ذلك جاء بعد زمن الدعوة من أتباعها المتأخرين عنها ، كما فعل الذين نشروا المسيحية فيما بعد خارج دائرة إسرائيل . أما أصحاب الدعوة الأولون فقد خلت صحائف حياتهم من تعميم الدعوة حتى تشمل جميع بني آدم .

والآن تعالوا نشاهد مدرسة الرسول العربي الأمي : أي طالب هذا ؟ هذا أبو بكر ، هذا عمر ، ذاك عثمان ، وذلك عليّ . وهذان طلحة ، والزبير . ومن هؤلاء ؟ هؤلاء تلاميذ من قريش البطاح بطاح مكة وذائك من غير قريش ، إنهما أبو ذر وأنس من تهامة من قبيلة غفار . وهذان أبو هريرة وطفيل جاءا من اليمن من إحدى قبائلها وتسمى دوس ومن هذان ؟ هذا أبو موسى وذاك معاذ بن جبل قدما من اليمن من قبيلة أخرى . وهذا ضهاد بن ثعلبة من قبيلة الأزد القحطانية . وهذا خباب بن الأثر أخوتيم . ومن أي قبيلة هؤلاء القوم ؟ منقذ بن حبان ومنذر بن

عائد من قبيلة عبد القيس استجابا لهذه الدعوة ووقدا اليها من البحرين على الخليج الفارسي . وفيهم عبيد وجعفر من سادة عمان . وفيهم قروة من معان في بلاد الشام . ومن هؤلاء الغرياء ؟ هذا بلال من بلاد الحبشة ، وهذا الأبيض يدعى صهيبي الرومي ، وهذا اسمه سلمان الفارسي من إيران ، وهذا أخو الديلم يدعى فيروز الديلمي ، وهذا سيخب ومركبود من الأمة الفارسية . فها أنتم ترون نماذج لمن تتلمذ على نبي الانسانية النبي الأمي العربي خاتم المرسلين ، لقد كانت حلقة هدايته مفتوحة لكل الأمم من شتى طوائف البشر .

إن صلح الحديبية الذي اتفق عليه المسلمون والمشركون في سنة ٦ للهجرة كان من شرائطه أن يكف كل من الفريقين عن القتال ، وذلك ما يدعو اليه الاسلام لأنه دين السلام والوثام ، وللمسلمين أن يبلغوا دينهم أينما أرادوا .

وماذا فعل رسول الاسلام بعد هذه الهدنة العظيمة الخطر الكبيرة الاثر ؟ إنه ﷺ أرسل في نفس تلك السنة كتبا إلى ملوك البلاد المجاورة دعاهم فيها الى الاسلام ، وبلغهم رسالة الله التي بعث بها إلى الأمم . فبعث ﷺ دحية الكلبي الى هرقل قيصر الروم ، وعبد الله بن حذافة السهمي الى خسرو برويز ملك الفرس ، وحاطب بن أبي بلتعة الى المقوقس عزيز مصر ، وعمرو بن أمية إلى النجاشي ملك الحبشة ، وشجاع بن وهب الأسدي الى الحارث الغساني سيد قومه في الشام ، وسليط بن عمرو الى رؤساء اليمامة . أرسلهم ﷺ الى هؤلاء الملوك والاقبال بكتب يدعوهم فيها إلى الاسلام وبلغهم أنه أرسل الى جميع الناس بالهداية العامة الشاملة .

سادتي : لقد تبين لكم أن مدرسة محمد رسول الله كانت جامعة

للناس من جميع الطوائف وكانت عامة للأمم على اختلاف ألسنتهم
واللوانهم وطبقاتهم في الثقافة والمجتمع ، وأنه لم يكن هناك أي قيد يمنع
أي إنسان من الالتحاق بها ، فكانها مأدبة كريم يدعو الجفلى . فتعالوا نلق
نظرة أخرى على هذه المدرسة لنصدر حكماً صحيحاً على حقيقتها
ومكانتها ومنزلتها من معاهد الهداية والحكمة ، ولنرى إن كانت خاصة
بعلم دون غيره من العلوم ، أم هي جامعة كبرى يجد فيها طلاب المعارف
أجمعون كل ما ينشدونه ويتعطشون إلى معرفته من حقائق الوجود ليختاروا
منها ما يرافق أذواقهم ويلائهم طباعهم ويروي ظمأهم . انظروا إلى
مدرسة موسى عليه السلام تجدوا فيها عدداً من قادة الجيش أو قضاة
المحاكم أو طائفة قليلة من ذوي المناصب الدينية ، وأبحثوا عن تلاميذ
عيسى سلام الله عليه تجدوا فيهم طائفة من الزهاد والنساك يتنقلون بين
سكك فلسطين ويتجولون في شوارع مدنها . أما الذين دخلوا في الإسلام
واتبعوا محمداً ﷺ فتجدون فيهم أصحاب النجاشي ملك الحبشة وغررة
عظيم معان وذا الكلاع رئيس حمير وفيروزاً الديلمي ومركبورد من سادة
اليمن ورؤسائها وعبيداً وجعفر من ولادة عمان . انظروا مرة أخرى تجدوا
فيما يقابل هؤلاء الملوك والولاة والرؤساء بلالاً وياسراً وصهيباً وخباباً
وعماراً وأبا فكيهة من العبيد والرقيق والضعفاء وسمية ولبيبة وزبيرة ونهدية
وأم عيسى من الأماء والضعيفات . وترون كذلك في أصحاب محمد ﷺ
ذوي العقول الراجحة والفكر الثاقب والرأي الحصيف وأهل الحسنة
والتجربة ممن عرفوا دخائل الأمور وجربوا شئون العالم ووقفوا على أسرار
الدنيا وأداروا شئون الملوك وواسوا البلاد كابى بكر وعمر وعثمان وعلي
ومعاوية ، فهؤلاء حكموا الأمم فأحسنوا ، وأقاموا شرع الله في أرض الله
بين مشرقها ومغربها فاتسعت دائرة حكومتهم إلى شمال إفريقيا وتغفور
الهند ، ونسخوا بعدهم ورحمتهم سلطان عظماء الملوك وقوانين الروم

والفرس ، ونزلوا من قلوب الناس أكرم منزلة بعدهم وإنصافهم ، ومن صفحات التاريخ الصادق الموثبة التي لم يبلغها فيه أحد غيرهم لا قبلهم ولا بعدهم .

وإلى جانب الخلفاء الراشدين والملوك العادلين والسلطين المنصفين من أتباع الرسول محمد ﷺ ترى طائفة غير قليلة من رؤساء الجند وقادة الجيوش من أصحاب الرسول كخالد بن الوليد وسعد بن أبي وقاص وأبي عبيدة بن الجراح وعمرو بن العاص ممن دوخوا الشرق والغرب وقروضوا دولتين عظيمتين كانتا سبة على الانسانية ووصمة في جبينها بحكمها الجائر واضطهادها لرعاياها ، فكان هؤلاء القواد من أتباع الرسول ﷺ من أكبر الفاتحين في العالم ومن أصلب المحاربين عوداً وأشجعهم قلوباً وأعلمهم بأمر القتال وتعبئة الجيوش وإدارة رعي الحروب ، وإن أسماهم لا تزال رمزاً للمهابة والجلال في التاريخ العسكري . فسعد بن أبي وقاص هو الذي فتح العراق واقتحم مملكة فارس وانتزع فيها التاج عن مفرق كسرى الظالم وألقى به تحت قدمي الاسلام . وخالد وأبو عبيدة هما اللذان أخرجا دولة الروم وجيوشها من ديار الشام وطهرا منهم أرض إبراهيم وجعلها في أيدي الوارثين لها من المسلمين . وعمرو بن العاص الذي انتزع مصر وأرض النيل من أيدي الروم الظالمين وقذف بهم الى البحر ، وسار على أثره عبد الله بن الزبير وعبد الله بن أبي سرح متوغلين في شمال افريقيا فتحا وهداية وأصلاحاً . هؤلاء هم فاتحوا الممالك وقادة الجيوش الذين اعترف لهم بالكفاءة أعداؤهم وشهد التاريخ بعظمتهم وعلو كعبهم وجلال مجدهم .

وبجانب هؤلاء القادة الفاتحين الباسلين ترى طائفة أخرى من ولاية المدن وحكام الاقطار من أصحاب رسول الله ﷺ مثل باذان بن ساسان في

اليمن وخالد بن سعيد في صنعاء والمهاجر بن أمية في كندة وزباد بن لبيد في حضرموت وعمرو بن حزم في نجران ويزيد بن أبي سفيان في تيماء والعلاء بن الحضرمي في البحرين وغيرهم من أتباع الرسول حكموا الأمصار وتولوا الولايات فسد بهم الناس وذاقوا حلاوة عدلهم وانتشر بهم السلام وساد بفضلهم الوثام بين الناس .

وبجانب هؤلاء الولاة العادلين الأبرار والحكام المنصفين الاختيار ترى في أصحاب رسول الله ﷺ ثلثة من العلماء الربانيين والفقهاء المتأهلين كعمر ابن الخطاب وعلي بن أبي طالب وعبد الله بن عباس وعبد الله بن مسعود وعبد الله بن عمرو بن العاص وأمهات المؤمنين عائشة وأم سلمة وأبي ابن كعب ومعاذ بن جبل وزيد بن ثابت وابن الزبير رضي الله عنهم ، الذين وضعوا فقه الاسلام وسنوا للناس قوانين أنزلتهم من واضعي القوانين للعالم منزلة سامية .

وهناك جماعة خامسة ممن اعتنوا بالرواية وحفظ الوقائع والحوادث كأبي هريرة وأبي موسى الأشعري وأنس بن مالك وأبي سعيد الخدري وعبادة ابن الصامت وجابر بن عبد الله والبراء بن عازب وغيرهم من أصحاب الرسول الذين روى سنن الاسلام وأحكامه وحفظوا أوامره ونواهيه واحصوا الوقائع والاختبار .

وبجانب أولئك جماعة سادسة يبلغ عددها سبعين صحابيا من أصحاب الصفة الذين لم يكن لهم بيت يأوون اليه إلا فناء المسجد ، ولم يكن لهم من متاع الدنيا إلا ما على أجسادهم من أسمال بالية ، فكاتبوا يخرجون الى الصحراء يحتبطون منها ويبسبون ما يجمعونه في السوق ويقتاتون بثمره ، وإذا بقي في أيديهم شيء أنفقوه في سبيل الله تفرغوا للدين وانقطعوا لتعلم أحكامه وعبادة ربه .

ثم ارجعوا البصر الى هؤلاء الاصحاب ثروا فيهم زاهدا ناسكا متوكلا على الله كأيي ذر الغفاري الذي لم تظلل السماء ولم تقبل الارض مثله في صدق اللهجة وكلمة الحق ، وكان لا يدخر الطعام لغده ويعد ادخاره منافيا للتوكل على الله ، ولذلك لقبه الرسول ﷺ بمسيح الاسلام . وفيهم سلمان الفارسي الزاهد الورع والتقي الصالح . وفيهم عبد الله بن عمر بن الخطاب الذي قضى ثلاثين حولا كاملا في عبادة الله وعرضت عليه الخلافة فاباها قائلا : لا اتولى خلافة تسفك فيها قطرة من دم المسلمين . وفيهم مصعب بن عمير الذي كان يلبس قبل اسلامه الديباج الثمين والخير الفاخر ونشأ في حجر النعيم والشرف وتقلب في بحبوحة العيش ورغده ، ثم لبس في الاسلام المسوح والخشن من الثياب المرقعة ، ولما استشهد في سبيل الله لم يكن له ثوب ضاف يستر جسده كله فاضطروا عند دفنه الى أن يغطوا قدميه بالخشيش . وفيهم عثمان بن مظعون الذي دعي فيما بعد بأنه أول ناسك في الاسلام . وفيهم محمد بن مسلمة الذي قال أيام الفتن : لو دخل علي مسلم بيده سيف مسلول يريد قتلي لم أكن لأقاتله دفاعا عن نفسي . وأما أبو الدرداء وما ادراك من أبو الدرداء ، فهو القاضي العالم الذي كان يقضي شاره صائما وليله قائما .

ان من اصحاب رسول الله ﷺ من قصصت عليك ومنهم من لم أقصص عليك . ومن ذا الذي يستطيع أن يوفي البيان حقه ؟ فتعال أرك منهم جماعة من مديري أمور الأمة وساستها المحنكين كطلحة والزبير والمغيرة والمقداد وسعد بن معاذ وسعد بن عباد وأسيد بن حضير وأسعد ابن زرارة وعبد الرحمن بن عوف ، وفيهم من التجار اصحاب المال الدثر والثراء الوفير من أهل مكة ، أو من اصحاب الحقول والحدائق الغلب من أهل المدينة .

ولا تتقدم في البيان قبل أن نحكي ذكرى الذين قتلوا منهم في سبيل الله
لجرم ارتكبه سوى أن قالوا « ربنا الله » ثم استقاموا ، وما نقموا منهم الا
أن آمنوا بالعزیز الحمید . وفيهم من لم يقتل قتلة يستريح بها ، بل قطعت
لحمه وكسرت عظامه وأوذى في سبيل الله ، وهذا ما وقع لهالة بنت أم
المؤمنين خديجة من زوجها الاول الذي مزق جسمه تمزيقا وقطعت
أوصاله تقطيعا . وسمية أم عمار التي قتلها أبو جهل بالرمح . وأما ياسر
فقد أوذى بأيدي الكفار اذاء شديدا الى أن لحق بربه . وخباب الذي
صلبه المشركون . وزيد الذي طأ رأسه أمام السيف لينال منه كيف يشاء
وعمل فيه عمله . وكذلك حرام بن ملحان وأصحابه التسعة والستون
قتلوا في ديار الغربية عند بئر معونة بأيدي أعراب من بني عصى ورعل
وذكوان . وإن مائة رام من بني الحیان جرحوا عاصما وأصحابه السبعة في
يوم الرجيع حتى أثختهم الجروح . وقتل أصحاب ابن أبي العوجاء وكان
عددهم تسعة وأربعين بأيدي بني سليم في السنة السابعة للهجرة .
واستشهد كعب بن حمير الغفاري وأصحابه بذات أطلاق . فانظروا كم
صلب لذات الله من أبناء هذا الدين الاولين وكم قتل لوجهه الكريم وكم
سفك من دمائهم في سبيله . فاذا كان من الفخر عند غيرنا أن يصلب
واحد في سبيل الله ونجاة خلقه فنحن قد صلب وقتل مئات من سلفنا
الاولين لذات الله تعالى وحده ولنجاة الانسانية كلها من الوثنية والضلالة
والشرك .

إن النفس اذا ماتت استراحت ، سواء في ذلك أقتل بحد السيف أم
بسنان الرمح أو صلبت ، فهي تلدوق مكرة الموت لمحة ، وتتألم ببطش
المنية وزهوق النفس ثم تستريح ، وأكبر من ذلك وأشد منه عذابا حياة
المكابدين للبغي والظلم أعواما ، والصابرين على الأذى في سبيل الله

صبرا جميلا ، فمنهم من ذاق أنواع العذاب لثباته على قول الحق ، ومنهم من وضعت الحجارة المحيطة على صدورهم وصرعوا في الرمضاء وحرّ الحجارة وكانوا يثقلون على ذلك ويتململون ويسحبون على وجوههم لينصرفوا عن قول الحق ويصباؤا عن عقيدة الاسلام فلا يبالون بذلك ويصرون على توحيد الله والشهادة بالرسالة المحمدية .

ثم ألم بأئك نبيّ الذين حصروا في شعب أبي طالب جياعا كيف كانوا يبيتون الليالي ويقضون الايام وهم يقتاتون بأوراق الطلح بعد ان فني زادهم وصفر وطابهم^(١) وأعوزهم القوت . ان سعد بن أبي وقاص مسّه ألم الجوع في ليلة شديدة من تلك الليالي فخرج من شعب أبي طالب يطلب شيئا يتبلع به ليذهب بعض ما به من ألم السغب ، فلم يجد الا قطعة جافة من إهاب ، فغسلها وشواها وأكلها بالماء .

وعتبة بن غزوان ايضا كان من الذين امتحنوا في شعب أبي طالب بألمي المشركين ، وهو يقول : اني وأصحابي السبعة قد دمت أفواهنا من أكل هذه الاوراق والاشياء التي نقتات بها .

ونجيب لما أسلم وعلم باسلامه المشركون ألقوه على الجمر الملتهب وأمسكوه عليه حتى انطلقا الجمر بالصديد والقيح الذي سال من ظهر خباب .

وبلال كان يذهب به سيده الى أرض ذات حجارة تلهبها أشعة الشمس في وسط الهاجرة فيلقيه عليها ثم يضع على صدره جنودا ثقيلًا حارًا وربما شد عنقه بالحبل فيجره جرا أليًا في سكك مكة .

وكذلك فعل بأبي فكيهة : ربطت رجله بالحبل وسحب على الأرض وخنق . وقد وضع مرة على صدره حجر ثقيل حتى ضاقت أنفاسه واندلع لسانه .

(١) الرطب : سقاء اللبن .

وكذلك عمار أودى ابداء شديدا ، فكان يجندل على الرمضاء ويضرب ضربا مبرحا . بل إن الزبير كان عمه يلفه بالحصير ويدخن عليه من أسفل . وسعيد بن زيد كان أهله يضربونه فيصبر . وعثمان كان عمه يضربه . فقابل هؤلاء كلهم البلاء والمحن وذاقوا العذاب الشديد برباطة جاش وثبات قلب وقوة وإيمان فأشربت دملؤهم من هذا الرحيق الإلهي الذي تناولوه من كأس الاسلام فلا يتحولون عنه مدى الحياة .

اخواتي ، تأملوا . اليس هؤلاء هم العرب الذين كانوا في معزل عن العمران يعبدون الاوثان ويعكفون على الاصنام ، وكانوا في جاهلية ضارين فيها بجرائهم ؟ فما بالهم انقلبوا أحوالهم وتغيرت شئونهم ؟ إن ارضهم لا تزال هي الارض ، وسماؤهم كما كانت ، وبلادهم لم تتغير . فكيف انجلى عنهم ظلام الجهل ، وكيف نفخ فيهم ذلك الامي روح الدين الحق فأصبح جاهلهم علما ومحاربهم مسالما ، وماذا علمهم حتى انقلب الفاسد صالحا والمفسد مصلحا ، والذي لم يكن يحسن شيئا لم يلبث أن صار يدير الملك ويصرف شئون الحكومة ويسوس أمور الرعايا . وكيف نبغ منهم ذوو العقول الراجحة والآراء السديدة والافكار الثاقبة ؟ ان الرسول الامي الأعزل الذي لم يحمل في شبابه سلاحا ولم يملك من قبل بلادا كيف أقام للامة العربية - التي لم تكن الامم تقيم لها في كفة السياسة العالمية وزنا - دولة ذات عظمة وجلال ، واكتشف في نفوس رجالها كنزا من القوة لا يتفد ، وكيف جعل هذا الامي من هذه الامة - التي لم تكن تعرف الله ولا تعلم توحيد ربوبيته - عبادا ناسكين يحيون الليل بذكر الله ، ويبلغون رسالاته في النهار .

لقد أخذت بأيديكم فأرستم مسجد هذا النبي ﷺ في المدينة ، وزرتم معي جامعته النبوية الكبرى زيارة كاملة ، فاجتمعتم بأصناف من

تلاميذه ، ولقيتسم من اصحابه العلماء والفقهاء وواضعي النظم
والاحكام ، وتعرفتم بالجندي الباسل والقاضي العادل ، وتشرفتم بزيارة
العظماء من ولاته وحكامه ، وتعرفتم بالفقراء والمساكين والملوك
والسلاطين ، وقابلتم السادة الاحرار والعبيد الابرار . وعرضت عليكم
نماذج ممن استشهدوا في سبيل الله ، وماتوا ابتغاء مرضاة الله ، من الغزاة
والمجاهدين ، فما هو رأيكم في كل ذلك وبماذا تحكمون ؟ إن أكبر ظني
فيكم انكم حكمتم وقطعتم في حكمكم بأن عمدا رسول الله ﷺ كان
جامعا للكمال البشري ومثلا أعلى للمحامد الانسانية والصفات العليا ،
و:

ليس على الله بمستنكر

أن يجمع العالم في واحد

كيف لا وهي المحاسن المحمدية المتنوعة ، والمحامد النبوية
المختلفة ، تراءت في أصحابه جميعا وظهرت في رفقائه وتجلت في
جلسائه . فبنوره استنار فؤاد الصديق الأعظم ، وبحكمته امتلأ قلب
الفاروق الأكبر وعقله حكمة وثقوب فكر وسداد رأي ، ومنه اكتسب ذو
النورين عثمان الانور رحمة وخبريته وفضائله ، ومن بلاغته تفجر البيان
على لسان علي كرم الله وجهه .

وكل ما ترى في خالد وأبي عبيدة وسعد وجعفر من تدبير الحرب
وإحكام الرأي في تعبئة الجيوش وزحفها ، وما ترى في الصديق من
العزيمة والامانة وحرية الرأي وغنى النفس والزهد في الاموال والاعراض
عن زينة الدنيا وزخارفها ، وما تراه من التبتل الى الله والانقطاع له في ابن
عمر وأبي ذر وسلمان وأبي الدرداء ، وما تجد في ابن عباس وأبي بن كعب
زيد بن ثابت وعبد الله بن مسعود من علم جم وفقه عميق في الدين

ورأي في الاحكام سديد ، وما نلاحظه على بلال وصهيب وعمار وخبيب
من السكينة والسلوى والطمأنينة وقوي الايمان والحنين الى لقاء الله ، كل
أولئك مفتبس من انوار محمد نبي الله ومهبط الوحي ومعط القرآن صلاة الله
وسلامه عليه ، فهو كأنه الشمس المضيئة تشرق فتنير بأشعتها قلوب الجبال
وبطون الاودية وصحارى الارض وروادها وبطاحها وتتلألأ بضوئها ليج
الاشجار الجارية ونباتات الحقول السندسية كما تلمع بها البقاع القاحلة
والرمال التي لا آخر لها ، فيأخذ كل منها نصيبه من الضوء على قدره ، بل
كانه ﷺ غيث يهطل من سحابه درور فيصيب الجبال الشفاء والغابات
اللقاء والصحارى القاحلة والساحات الواسعة والبطاح العريضة
والحدائق الزاهية ، فيسقي جميع ذلك فينبت نباتات شتى بالاوراق
الجميلة والازهار المنعشة والاشجار المتنوعة . نعم ، كان الصحابة
- كسائر البشر - متفاوتين في طباعهم ومواهبهم وجبلاتهم . لكنهم اتلفوا
جميعا بالاسلام واتحدوا واشتركوا في غاية واحدة ، فكانوا يعملون لوجه
الله ويبتغون بعملهم مرضاته عز وجل . سواء في ذلك قضائهم وولاتهم
وفقراؤهم وأغنيأؤهم ورعاتهم ورعاياهم وغزاتهم وشهدائهم وجنودهم
وقوادهم والمعلمون منهم والمتعلمون والتجار والعباد والناسكون ، فكان
الاخلاص رائدهم ومداية التخلق أمليهم واصلاح البشر غرضهم ،
فالصحابة هداة حينما حلوا ، وعاملون لاصلاح المجتمع البشري أينما
ذهبوا . فاذا اختلفت طبائعهم وتنوعت ألوانهم وتفاوتت مظاهرهم فقد
جمعتهم كلمة التوحيد ووحدة الكتاب العزيز وانجاههم جميعا الى قبلة
واحدة . فما سلكوا سبيلا ولا عملوا عملا الا ابتغوا به اصلاح العالم
وتقويم المجتمع البشري ومواساة بني الانسان واعلاء كلمة الحق وتقديم
ال عمران البشري نحو السلام والامان ونشر الوثام .

اخواني وخلاتي . لقد بيثت لكم في هذه المحاضرة ما كان في الرسول
الاعظم ﷺ من خلال جامعة وخصال « جامعية » وقد أشرت الى
مظاهرها العديدة ونواحيها المختلفة . وأحالكم قد الفيتم مما درستهم في
طبيعة الكون من ألوان مختلفة ، وما عرفتم في طبائع البشر من مواهب
شتى . وهذه الدنيا ليست الا مظهرا من مظاهر الحياة متنوعة الألوان . أن
العالم لا يمكن أن تكون هدايته الا بالمصلح الاخير للدنيا وهو خاتم رسل
الله محمد ﷺ الذي اجتمعت فيه خلال الارشاد كلها وخصال الاصلاح
للنوع البشري بأجمعه ، ولذلك قال له الله عز وجل « قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ
الله فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ » فوجه الرسول ﷺ الدعوة الى كل من يدعي عبة
الله بأن يتبعه ويطيع امره ، ونادى الملوك في ملكهم والرعاع في شوارعهم
والمعلمين في مدارسهم والتلاميذ في فصولهم والفقراء في أكواخهم
والاغنياء في قصورهم ، كما دعا المظلومين والمقهورين والمخذولين ، بل
أهاب بالعالم كله أن يتبعوا سبيله ويقتفوا أثره ، لأن سيرته الشريفة هي
المثل الاعلى وفيها الاسوة الكاملة لكل من يحب الخير ويتغني الصلاح
لنفسه .

اللهم صل وسلم عليه وعلى آله وصحبه أجمعين .

المحاضرة السادسة

الناحية العلمية من السيرة المحمدية

(لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ)

كيف تتبع الرسول ، وفيم تتبعه ؟ ذلك ما أتحدث لكم عنه من السيرة المحمدية في ناحيتها العملية ، وذلك ما خلت منه صحائف حياة الانبياء عليهم السلام . اما لو نظرتم الى هذه الناحية في السيرة المحمدية فستجدون حياة مليئة بالاعمال الجليلة ، عامرة بشتى الافعال . وهذا الباب من كتاب سيرته ﷺ من أوسع الابواب وأعظمها ، وبه يحكم من يشاء أن يحكم أي نبي هو خاتم النبيين وسيد المرسلين . أما من سبقه من الانبياء والرسل فلم يصل اليها من تفاصيل حياتهم ما يكون لنا أسوة فيه ، لأن الذي عرفناه من ذلك لا يشفي غلة ولا يروي غلة . والاحاديث الحلوة ، والمواعظ الحسنة ، والتعاليم العالية ليست قليلة في الدنيا ، ولكن الذي يعوز الناس هو العمل بها . وهم اذا بحثوا عن العاملين بالمواعظ البليغة والحكم الرائعة والاقوال الماثورة والامثال السائرة كانوا كأنهم يبحثون عن عنقاء مغرب أو الكبريت الاحمر .

إن أخلاق المرء هي المرآة الصافية لسيرته . ومظهر جلي من مظاهرها ، وأي كتاب سماوي غير القرآن يشهد لمن تنزل عليه بأنه قد تحل بالاخلاق الحسنة والعادات السنية . وإن صاحب ذلك الكتاب أعلى قدرا وأرفع مكانة من سائر الناس لما هو عليه من جليل الاعمال وقويم الاخلاق . أما القرآن فقد أذاع بين اعداء الرسول وأوليائه قول الله عز وجل (إِنَّ لَكَ

لأجراً غير ممنون ، وإِنَّكَ لَعَلَّ خَلَقْتَ عَظِيمٌ) وإذا كانت إحدى هاتين
الجمليتين معطوفة على الأخرى فإنها مربوطتان بربط العلة بالعلول ،
فالثانية علة للأولى ، فأجر الرسول لا ينقطع وثوابه من الله لا ينفد ، إذ
الرسول ذو خلق عظيم ، وأعماله وأخلاقه بلغت من العلو والسمو المبلغ
الذي لا ينقطع معه أجر صاحبها ولا يقل ثوابه ، لأن معين خلقه فيأبى أن
ينضب وينع حسنة فوار لا يفيض وقد حق للنبي الأمي العربي أن يؤنب
الناس بقول الله سبحانه (لم تقولون ما لا تفعلون) وهو لم يأمر أحدا بأمر
الا وقد سبقهم إلى العمل به .

ادرسوا سيرة الواعظ العظيم عيسى بن مريم عليه السلام وصعوده
جبل الزيتون ليعظ الناس ، وقارنوا ذلك بسيرة الداعية الهادي محمد
رسول الله ﷺ وصعوده جبل الصفا يدعو أمته ، فإن رأيتم أحدهما لم
يقدركم العمل بما قال للناس ولم يتم ذلك له ، فإنكم سترون سيرة الآخر
عامرة بكل ما أمر به الناس وحثهم عليه . فالذي يعفو ويصفح مع القدرة
يعد حليماً حقاً وغفوراً صدقاً ، ويكون عمله هذا من أمثل أخلاق البشر
وأفضلها . أما الذي يسكت عن غيظ لضعف وعجز فلا يعد سكوتة عفواً
ولا حلماً ، لأن العفو ينبغي أن يكون مع القدرة . والذي لا يقتل أحداً
ولا يسيء إلى الغير ولا يضرب إنساناً ولا يسلب مالا ولا ينهب متاعاً ولا
يبنى لنفسه بيتاً ولا يدخر أموالاً تعد فضائله هذه سلبية أما إذا كان ينقذ
المظلوم من القتل ظلماً ، وينصر الضعيف ويدفع عن أموال الناس أيدي
السلب والنهب ويؤوي الذين لا بيت لهم ويتصدق بالمال على المحتاجين
إليه فإن فضائله تعد ايجابية ، وتسمى أعمالاً صالحة . والدنيا تحتاج إلى
هذه الفضائل الايجابية . والقرآن يذيع عن النبي الكريم أنه رؤوف رقيق
القلب (قَبِيحًا رَحْمَةً مِنْ اللَّهِ إِنَّتَ لَهُمْ ، وَلَوْ كُنْتَ فَظًا غَلِظَ الْقَلْبُ لَانفَضُّوا

مِنْ حَوْلِكَ) وهذه أكبر شهادة على رقة قلب الرسول ورافته ورحمته ، ومن زعم أنها دعوى فإنه يرى الدلائل الساطعة تدعمها والبراهين الواضحة تؤيدها . ولولم يكن الرسول ﷺ لنا دمث الاخلاق عفواً حلياً لتفرقت عنه هذه الجماهير من العرب الذين نشأوا على العنجهية والاپاء والشمم الى حد الاسراف في الصلابة ، ولرافته بهم وحد به عليهم قال الله عز وجل فيه (لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ) فمن الله على العرب بهذا الرسول ويقال لهم انه يعز عليه ان تبقوا في ضلال ، ويشق عليه ان تعمهوا في ظلمات الكفر والشرك ، وأن تعرضوا عن الحق وتلجوا في عتو ونفور ، وهو يبغى صلاحكم ويود خيركم ويحب فلاحكم ، وهذا هو الذي يدعو الى نصحكم ويحفره هدايتكم وإبلاغ الرسالة اليكم ، فمن لبى دعوته وقبل رسالته وأقبل على ما عند الرسول من الحق الين والخير الكثير كان أهلاً لأن يرعى الرسول جانبه ويخصه بعنايته ورحمته . والرسول وإن يكن مبعوثاً الى البشر كافة فإن من آمن به وصلى بما جاء به فإن له من رافة الرسول ورحمته وشفقته أوفر حظ وأكبر نصيب .

هذه هي شهادة القرآن ، والقرآن احكام وتوجيهات أنزلت على رسول الله محمد ليبلغها للناس ، وسيرة الرسول هي تفسير ما في القرآن من تلك الاحكام والتوجيهات ، وحياته كلها وما صدر عنه فيها من أقوال وأفعال هي تفصيل لما جاء في القرآن ، فكل حكم جاء به القرآن قد امثله الرسول ومثله للناس بفعله وبيته بقوله ، فما من شيء أمر به الرسول - من الايمان بالله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وأداء نسك الحج وبذل الصدقة والجهاد والايثار وتوجيه العزيمة واحتمال الصبر على النوائب وشكر الله على النعم والتعامل مع الناس بالفضائل ومكارم الاخلاق - الا وهو مستمد من

القرآن أو من الوحي الإلهي (لا ينطق عن الهوى ، إن هو إلا وحي يوحى) ، وما من حكم أو توجيه في القرآن الا وقد بينه الرسول للناس بقوله وعمله وخلقه هديا وسمتا . جاء بعض الصحابة الى أم المؤمنين عائشة يسألونها أن تصف لهم أخلاق الرسول وتصرفاته فأجابتهم السهم تقرأوا القرآن الكريم ؟ لقد كان خلق رسول الله ﷺ القرآن (سنن أبي داود) فأيات القرآن وسوره أصوات وكلمات ، وعمل الرسول وخلقه معانيها وتفسيرها . وليس في الدنيا انسان أكثر علما بالرجل من حليلته ، فهي التي تعلم من فضائل زوجها وأخلاقه وعاداته ما لا يعلمه أحد غيرها . ولما ادعى الرسول النبوة كان قد مضى على زواجه بخديجة خمسة عشر عاما ، وهذه مدة تكفي المرء أن يعرف أحوال صاحبه وأخلاقه وعاداته معرفة تامة ، فحين سمعت خديجة أن محمدا ﷺ نزل عليه الوحي بادرت بتصديقه وأمنت به . بل إن الرسول حين فزع من نزول الوحي عليه وبجيء الملك اليه - لأنه لم يعهد ذلك من قبل - هدأت خديجة جأشه وربطت على قلبه وخففت عنه ما يلقاه وقالت له : ان الله لا يخذلك . فانك تصل الرحم ، وتحمل الكل ، وتكسب المعدوم ، وتنصر المظلوم ، وتقري الضيف ، وتعين على نوائب الحق . وهذا الذي ذكرته خديجة هو الذي كان يتحلى به الرسول من مكارم الاخلاق وفضائل النفس قبل أن يوحى اليه .

وان أم المؤمنين عائشة التي صحبت الرسول تسع سنوات وكانت أحب أزواجه اليه بعد خديجة تقول في وصفه ﷺ : انه لم يكن يعيب أحدا ، ولا يجزي على السوء بسوء ، بل كان يعفو ويصفح ، وكان بعيدا عن السيئات . انه لم ينتقم من أحد لنفسه ، ولم يضرب غلاما ولا أمة ولا خادما قط ، بل لم يضرب حيوانا ، ولم يرد سائلا الا اذا لم يكن عنده شيء .

وعليّ صاحب النبي ﷺ منذ صباه الى أن شب ، فلم يكن أحد من أهل بيته أعلم منه بأخلاقه ﷺ ، وهو يشهد لرسول الله أنه كان طلق الوجه ، لين الجانب ، خافض الجناح ، دمث الاخلاق ، رحيم . ولم يكن فظا ولا جافيا ولا ينطق بسوء ، ولا يتبع عورات الناس ، ولا يتجسس على عيوبهم . فان سأل أحد ما لا يرضى سكت ولم يبد له ما يخطئه ، فيفطن من يعلم خلق الرسول ماذا يريد ، لانه لم يكن يحب أن يكسر قلب أحد بل كان يأسر القلوب ويؤلفها لانه كان رؤوفا رحيم . فيقول عليّ كرم الله وجهه : إنه ﷺ كان كريما جوادا ، وفياضا سخيا ، صادق القول لين العريكة ، من جالسه أحبه ، ومن رآه بديهته هابه . ويقول عنه ناعته : لم أر مثله قبله ولا بعده . وقد أبدى (كبن) المؤرخ الانكليزي الذائع الصيت هذا السراي نفسه حين درس سيرة الرسول ﷺ .

ويشهد هند - ابن خديجة من زوجها الاول ، وهو ربيب الرسول في حجره - أنه ﷺ كان لين الطبع غير جاف ولا فظ ، ولم يكن يسوء أحدا ولا يصدر عنه نيل من شرف أحد أو غرض من كرامته . وكان يشكر الناس على اليسير من عملهم الطيب ، ويأكل ما يقدم له ولا يعيبه ، وما كان يغضب أو يقتص من أحد لنفسه ، بيد أنه اذا انتهك أحد شيئا من محارم الله لم يقم لغضبه شيء (الشائل) .

هذه شهادات أقرب الناس إليه ﷺ ممن خالطوه وعاشروه وعرفوا دخائله . وهي تدل على أن سيرته الطاهرة كانت أعلى ما تكون عليه سيرة أفضل البشر . ومن أفضل سيرته وأعلاها أنه بعد ما أوحى اليه لم يأمر أتباعه وأصحابه بأمر إلا وقد سبقهم الى العمل به ، فدعا الناس الى ذكر الله ومحبته ، ولو راقبت حياته نفسها لرأيتها ملائمة لهذه الدعوة ، لانه لم

تكن تمضي عليه ساعة من نهار أو ليل الا وهو يذكر الله بقلبه ويحمده
 بلسانه ، فكان لسانه رطبا يذكر الله لا يفتر عنه طرفة عين ، فاذا أكل أو
 شرب ذكر اسم الله ، واذا فرغ من ذلك حمد الله ، واذا أخذ مضجعه أو
 استيقظ من نومه ذكر الله ، واذا نهض أو جلس سبّح الله أو حمده . واذا
 ليس جديدا شكر الله ، حتى إن اذكاره ودعواته التي حفظها الناس عنه في
 مختلف الاحوال شغلت فراغا واسعا من كتب الحديث ، وجمعت في كتاب
 (الحصن الحصين) الذي يبلغ مائتي صفحة ، ومن قرأ هذه الادعية
 يقضي العجب ويوقن بأنه ﷺ كان يحب الله ويخشاه ويهاب جلالة ، فكان
 كما وصف الله في القرآن عباده الصالحين (الذين يذكرون الله قياما وقعودا
 وعلى جنوبهم) وكما شهدت عائشة بأنه ﷺ كان يذكر الله ولا يغفل عن
 ذكره ابدا .

وأمر الناس بالصلاة وحضهم على اقامتها والمحافظة عليها أشد
 المحافظة ، فماذا تحسبون الرسول كان يعمل في نفسه بما كان يأمر به
 غيره ؟ انه ﷺ كان يقيم الصلاة ويحافظ عليها أكثر من غيره ، كان
 المسلمون يقيمون الصلوات المفروضة خمسا . وكان ﷺ يتطوع بالزيادة
 على ذلك في صلاة الضحى وصلاة الاشراف وصلاة التهجد وكان عامة
 المسلمين يصلون سبع عشرة ركعة المكتوبة عليهم ، وكان هو ﷺ يصلي في
 اليوم والليلة خمسين الى ستين ركعة من المكتوبة والنوافل . لقد سقطت
 عن عامة المسلمين فريضة التهجد بعدما فرضت عليهم الصلوات الخمس
 لكن الرسول كان يقوم الليل ويصلي صلوات لا تسلم عن حسنهن وطولهن
 حتى كانت قدماء تنورمان من طول القيام ، فقالت له عائشة يوما : - وقد
 رأيت ما يعانني ﷺ في قيام الليل - ان الله قد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما
 تأخر فما بالك يا رسول الله تلقي العناء وتتعب هذا التعب الشديد ؟
 فأجابها ﷺ : أفلا أكون لله عبدا شكورا ؟ وكان في هذه الصلوات معنى

حجة الله أغلب عليه ﷺ من معنى الخوف ، فكان يطيل الركوع حتى ينخل الى من يراقبه أنه ربما قد نسي السجود . وكان يقيم صلاته من بدء الوحي في فناء بيت الله أمام المشركين الذين كانوا يعادونه ويؤذونه إيذاء شديدا . وقد هجم عليه بعض المشركين وهو في الصلاة فلم يترك صلاته خوفا منهم . وكان جنباه يتجافيان عن المضجع ، وكان قليلا من الليل ما يهجع ، ويبست ساجدا أوقاتها والناس نيام . وأشد ما يكون إقام الصلاة حين يلتقي الجمعان في ساحة الحرب والسيوف مصلثة والرماح مشرعة والقلوب واجفة ، ومع ذلك فإنه إذا حان وقت الصلاة والحرب كما وصفناه ، اصطف المسلمون للصلاة ونبههم إمامهم . فيتناوب بعضهم الصلاة وبعضهم الحرب وإمامهم ثابت في الحالين الى أن يؤدوا فريضة الله لا يمنعهما منها مانع .

أيها القارىء ، أحب أن اطوي لك من صحائف القرون السالفة ثلاث عشرة ورقة لأعود بك الى السنة الثانية من الهجرة . فتعال معي ننظر الى ساحة بدر : هؤلاء مؤمنون ، وهؤلاء مشركون . لقد التقى الجمعان ، واشتد القتال بين المشركين والمؤمنين ، وحمي وطيس الحرب . أين هو الرسول يا ترى ؟ ها هوذا ساجد بين يدي رب العالمين يدعوه ويسأله النصر المبين بقلب ذاكر ولسان بالدعاء ناطق وناصية لعظمة الله ساجدة على الارض . لقد أقام الصلاة لأوقاتها ولم يؤخرها الا مرتين : فقد فاتته مرة في غزوة الخندق حين تألب عليه المشركون واليهود ولم يمهله حتى يؤديها في وقتها ، ومرة أدلج الليل بطوله ثم غفا غفوة هو وأصحابه فطلعت عليهم الشمس ولم يستيقظوا حتى أيقظتهم بأشعتها ، ففضى ما فاتته من الصلاة . ثم لم تفته ﷺ حتى في مرضه الذي توفي فيه ، بل قد اشتد به المرض وهنت قوته فخرج مع ذلك متهاديا بين رجلين من

حجرتة الى أن بلغ المسجد وحصل مع الجماعة . وقد غشي عليه ثلاث مرات قبل وفاته بثلاثة أيام فكان كلما هم أن يذهب الى المسجد غشي عليه ففاته الصلاة مع الجماعة . هذا ما كان عليه الرسول من عبادة الله وذكره ، وهذا ما تركه خلفه لمن يأتسون به في عبادته وذكره الله عز وجل .

وأمر المسلمين بالصوم ، وليس على المسلمين الا صوم رمضان . ولكن ما ظنكم بالرسول ﷺ وصومه ؟ انه قلما يمر به شهر ، أو اسبوع من شهر ، الا كان يصوم فيه . تقول عائشة : كان ﷺ يصوم حتى يظن انه لن يفطر . ونهى المسلمين عن صوم الوصال ، لكنه يواصل الصوم يومين بل ثلاثة أيام متوالية لا يأكل فيهن ولا يشرب ، وذلك الذي يقال له صوم الوصال . وكان بعض الصحابة يحب أن يقتدي به في ذلك فيقول ﷺ « لست كأحدكم ، أيكم مثلي ان ربي يطعمني ويسقيني » وربما كان يصوم شهرين متواليين : شعبان ورمضان . وكثيرا ما كان يصوم الايام البيض (الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر) من كل شهر ، وكان يصوم ستا من شوال ويوم عاشوراء من المحرم ، وكثيرا ما كان يصوم يوم السبت ويوم الخميس من كل اسبوع . كذلك كان دأبه وهديه في الصوم .

وأمر المسلمين بإيتاء الزكاة وانفاق المال في الخير لكنه بدأ ذلك بنفسه . وقد علمت شهادة أم المؤمنين خديجة له في ذات يوم قالت له: انك تحمل الكل ، وتعين على نوائب الحق وتكسب المعدوم . انه لم يأمر الناس بأن يتبعوه في ترك الدنيا ، ولم يقل لهم خضعوا بكل ما في ايديكم من اموال ولم يخبرهم بأن ملكوت السماوات موصدة أبوابه في وجوه الاغنياء . وإنما الذي اوصاهم به أن يتصدقوا ببعض اموالهم كما قال الله عز وجل (وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ) . هذا بينما رسول الله نفسه لم يكن يدخر من المال شيئا

في بيته ، بل كان ينفق في سبيل الله جميع ما كان يملكه ، ولم يكن قليلا ما كان يأتيه من خمس الغنم من ذهب وفضة ومتاع وغيره من عرض الدنيا ، فكان يخرج عنه كله لغيره من الفقراء والمساكين ، ولم يكن يتمتع هو ولا أهل بيته بجمع الحياة الدنيا ، فكان حظه وحظ أهل بيته من الدنيا الفقير والتعفف . وكان من سنته بعد أن فتحت أرض خيبر أن يوزع على أزواجه من الطعام والحبوب ما يكفيهم عاما ، لكنه قبل أن ينقضي العام كان ينفذ ما وزعه على أزواجه فيمسهم الجوع والسغب لانه كان ينفق على المحتاجين وعلى الضيوف مما يجده في بيوت أزواجه . يقول عبد الله بن عباس : ان رسول الله ﷺ كان أسفانا وأجودنا ، وهو أسخى ما يكون في شهر رمضان ، ولم يقل لسائل « لا » قط طول حياته . ولم يأكل شيئا وحده مهما كان قليلا بل يشرك فيه أصحابه ، وقد أذن الناس ، أن « من مات وعليه دين فدينه عليّ أقضيه عنه » وما ترك من ميراث فميراثه لورثته .

جاءه يوما اعرابي فقال : يا محمد ، ان هذا المال ليس لك ولا لأبيك ، فأقر منه جملي . فحمله رسول الله ﷺ من الشعر والتمر ، ولم يسخط عليه ما أغلظه من القول . ثم قال : انما انا قاسم وخازن ، والله هو المعطي . يقول أبو ذر : كنت يوما أمشي مع رسول الله ﷺ في حرة المدينة فاستقبلنا جبل أحد ، فقال : أبأذر ! قلت : لييك يا رسول الله . قال : ما يسرني أن عندي مثل أحد ذهبا تمضي عليّ ثلاث ليال وعندي منه دينار ، الا شيء أرصده لدين .

اخواني . لا تحسبوا أن ما قاله ﷺ انما هو كلمات عذبة والفاظ ينجمل بها ، بل قال ما قاله عن عزيمة ولم يظهر للناس الا ما كان يكنه صدره ويعمل به مدة حياته . جاءه مرة من البحرين ذهب وفضة وأموال جمّة فأمر

بوضع ذلك كله في فناء المسجد ، ثم غدا على الناس يصلي بهم الصبح دون أن تقع عينه على ذلك المال في الجهة التي وضع فيها ، فلما انصرف من الصلاة دعا الناس وطلق يوزع المال عليهم حتى فرغ منه فقام ينفض يديه وثوبه لثلا يكون علق بثوبه الطاهر شيء من غبار ذلك المال . وجاءه من فذلك أربعة جمال موقرة بالطعام فقضى به بعض ديونه ، وآتى منه بعض الناس ، ثم سأل بلالا : هل بقي من ذلك الطعام شيء ؟ فأجابه بلال : لقد بقي منه شيء وليس هاهنا من يأخذ . فقال ﷺ لا ادخل بيتي ما بقي منه شيء . وبات تلك الليلة في المسجد ، فلما أصبح بشره بلال قائلاً : ان الله قد وضع عنك . يعني أن بقية الطعام قد قسمت ولم يبق منه شيء فشكر الله . ودخل بيته ذات يوم بعد صلاة العصر على غير عادته ، ولم يلبث أن خرج منه فاستغرب الناس ذلك ، فقال لهم : اني تذكرت في الصلاة أن في بيتي شذرة من الذهب فخشيت أن يجيء الليل وهي في بيت محمد . ودخل بيته ذات يوم حزينا كئيبا فسئل عن ذلك فقال : يا أم سلمة ان ما جاءنا من الدنانير السبعة قد بقي في الفراش ، وقد حان المساء . وبما يدل على زهده ﷺ في الدنيا ومتاعها أن الرسول ﷺ مرض مرضه الذي توفي فيه . وكان يتقلب على فراشه من شدة المرض . فتذكر وهو في هذه الحالة أن في بيته دنانير ، فأمر أن يتصدق بها وقال : أيلقى محمد ربه وقد خلف في بيته دنانير ؟ فهذا ما كان ﷺ في حياته من انفاق المال والصدقة .

لقد رغب محمد رسول الله ﷺ في الآخرة ، وزهد في الدنيا ، وحث على القناعة بالقليل منها والكفاف من العيش . فلننظر الى عيشه كيف كان يعيش ويحيا . لقد علمتم ان الله بسط على المسلمين الدنيا ووسع في أرزاقهم فكانت تحبى اليه الاموال من الخراج والعشر والجزية والزكاة والصدقات ، وكانت قوافل الابل تحمل الطعام والمال الى المدينة ، أما

رسول الله ﷺ فلم يكن له حظ من تلك الاموال الكثيرة ، وكان أهل بيته
في ضنك وكفاف ، تقول عائشة رضي الله عنها : توفي رسول الله ﷺ ولم
يشبع يومين متوالين . وتقول : لم يكن في بيته يوم التحق ﷺ بالرفيق
الاعلى سوى صاع واحد من شعير ، وكانت درعه مرهونة عند يهودي
بصاع من شعير . كان الرسول ﷺ يقول : ما لابن آدم من دنياه غير بيت
يأوي اليه ، وثوب يلبسه ، وخبز جاف يأكله ، وماء يشربه ،
(الترمذي) . ولم ينطق ﷺ بهذه الكلمات في الزهد بالدنيا الا وقد رضي
لنفسه بهذا القدر ، وعمل به طوال حياته ، ولم يجد عينه الى زهرة الدنيا
وزيبتها ، فكانت له حجرة مطينة غير مشيدة جدرانها ، وكان سقفها من
الخصوص والوبر . تقول عائشة : لم يُطَوَّ ثوبه ابدا . تعني أنه لم يكن له
ثوب آخر غير الذي على جسده الطاهر . جاءه مرة سائل يشكو الجوع
الشديد ، فارسل الى أزواجه يطلب للسائل طعاما من بيوتهن ، فلم يجد
عند احدهن شيئا غير الماء . ويقول طلحة : رأيت رسول الله ﷺ يوما
مضطجعا على فرش المسجد يتململ من الجوع . وشكا اليه بعض
الصحابة الجوع ذات مرة وكشفوا عن بطونهم فاذا حجر قد شده كل واحد
على بطنه ، وأراهم ﷺ بطنه وقد شد عليه حجرين . وكان صوته ﷺ
يضعف أحيانا من شدة الجوع . وذهب مرة الى بيت صاحبه أبي أيوب
الانصاري وهو جائع ، فصنع له أيوب طعاما وقطف له بعض الرطب من
حديقته ، فلما قدم اليه الطعام أخذ منه خبزا ووضع عليه شيئا من اللحم
وقال : ابعثوا به الى فاطمة فانها لم تأكل شيئا منذ ايام . وكان يحب بنته
وسبطيه حبا جما ، غير أن حبه لهم لم يجعله على أن يكسوهم لباسا ناعما أو
يجلي بنته حلية ثمينة . ورأى فاطمة قد لبست ذات يوم قلادة من الذهب
جاءها بها زوجها علي كرم الله وجهه فقال ﷺ لها : يا فاطمة اتحبين أن
يقال أن بنت محمد قد لبست طوقا من نار ؟ فنزعت تلك القلادة من عنقها

واشترت بشئها عبدا واعتقته . ورأى عائشة قد لبست سوارين من ذهب فأمرها أن تنزعهما فنزعتهما حين قال لها : هذا لا ينبغي لآل محمد . وكان يقول : يكفي الإنسان من الدنيا ما يتزود به الغريب في سفره . هذا قوله ، أما عمله فيدل عليه ما روي أن أحد الصحابة دخل عليه فرآه قد أثر الحصر في جسمه الشريف فقال : ألا تهدي إليك فرشا وثيرا ؟ فأجابته : مالي ولدنياكم ، ليس لي إليها حاجة إلا كما يستظل الراكب في طريقه ليستريح ساعة من نهار ثم يمضي قدما . وفي السنة التاسعة للهجرة وكانت رقعة الدولة الإسلامية قد امتدت إلى اليمن والشام ولا ينفذ فيها إلا أمره حتى أنه لم يكن يملك إلا أزارا وسريرا خشنا لا فرش له ووسادة خشوها ليف وقليل من الشعر وجلد حيوان في ناحية من البيت وقربة ماء معلقة على وتد ، فإذا كان ذلك هو تزهيده الناس في الدنيا ، فهذا هو عمله الذي رأيتم .

اخواني . لا شك أنكم سمعتم كثيرا عن الناس يخطبون في « الايثار » ويحثون الناس عليه ، فهل رأيتم مثالا عمليا للايثار في صحيفة حياة واعظ ؟ إذا شئتم أن تروا الامثلة عليه فالتمسوها في سيرة الرسول الأعظم الذي علم الإنسانية فضائل « الايثار » وحذرهما عواقب « الاثرة » . أنتم تعلمون مبلغ حبه لابنته فاطمة رضي الله عنها ، ومع ذلك فإنها كانت تطحن بيدها حتى مجلت ، وتحمل قربة الماء على صدرها حتى اخضر . فجاءته ذات يوم تسأله خادمة - والإمام يومئذ كثيرة - فقال لها : يا فاطمة ، لم أفرغ بعد من حاجات أهل الصفة فكيف أقضي حاجتك ؟ ويروي أنه قال لها : ان ايتام شهداء بدر سبقوك في أمر الخوادم والعبيد . وأهدت إليه صحابية رداء في أحد الايام ، فنظر إليه أحد الحاضرين وقال : ما أجمل هذا الرداء ، فدفعه إليه .

وأراد أحد الصحابة أن يقيم مأدبة فرح له ، ولم يكن عنده ما يقدمه للأضياف ، فأتى النبي ﷺ يستعينه ، فأرسله إلى عائشة لتعطيه سلة دقيق كانت في بيتها ، فذهب ورجع بها ، ولم يبق في بيت الرسول تلك الليلة ما يأكله .

وذهب مرة بأصحاب الصفة إلى بيت عائشة وقال لها : هلمني ما عندك من طعام ، فجيء بطعام من نخالة ، فلم يشبعهم . فقال لها : هلمني شيئا آخر ، فجيء بحساء من تمر ، ثم بقدح من لبن . ولم يكن في بيته غير ذلك فكان اللبن آخر ما قدمه للأضياف ، فأثرهم بكل ما عنده .

وإن شئت أن تشاهد المثل الأعلى للثقة بالله والاعتماد عليه فشاهد ذلك في بيت هذا الرسول من الله ، فإن الله أمره بقوله (فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل) فامتثل أمر ربه . وأنت تعلم أنه بعث في أمة أمية ذات حمية وأتفة تمنعها أن تسمع كلمة مخالفة لعقائدها ومزاعمها ، وهان عليها أن تموت في سبيل ذلك . لكن الرسول ﷺ قام برسائته صابرا مثابرا فكان يوحد الله في المسجد الحرام ويصلي على أعين المشركين في فناء المسجد الذي كان ناديا لهم ويجتمعهم ، فكان يركع لله ويسجد أمامهم غير مهال بهم . ولما نزل قول الله سبحانه (فاصدع بما تؤمر) صعد جبل الصفا ونادى المشركين ، فلما اجتمعوا إليه بلغهم دعوة الله . وقد امتحنوه بضروب من الأذى حتى القوا عليه مرة سلا جزور وهو قائم يصلي في فناء البيت الحرام . بل أرادوا مرة أن يخنقوه بالرداء ، والقوا الشوك في طريقه ، لكنه صبر كما صبر أولو العزم من الرسل .

ولما هم عمه أبو طالب أن يخرج من ذمته ويمسك يده عن حمايته ، قال له وقد حيت أنفته : « يا عم ، إن قرشا لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري لا أنتهى من تبليغ هذه الرسالة » . وإن قرشا قد

حصرتة وبني هاشم في شعب أبي طالب مدة ثلاثة أعوام ومنعواهم الطعام حتى كان الصبيان يتضورون جوعا . واضطر الرجال ان يقتاتوا بورق الشجر ، ثم بَيَّتُوا قتلَه ، لكن الرسول ﷺ لم يداخله الخوف ولم يتردد في تبليغ الرسالة التي بعث بها . ثم خرج الى المدينة واختفى في طريقه مع صاحبه أبي بكر في غار ثور وتبعه المشركون حتى بلغوا مدخل الغار واقتربوا منه ولو نظروا الى أقدامهم لرأوه ، وفزع أبو بكر في تلك الساعة العvisية فقال : يا رسول الله ، انما نحن اثنان فقال له ﷺ بصوت غامض الطمأنينة « ما ظنك باثنين الله ثالثهما ، لا تحزن ، إن الله معنا » ووعدت قريش من يأتي به جائزة قدرها مائة من الابل ، فخرج سراقة بن جعشم يركض فرسه ويبيده رمحه حتى اقترب من الرسول فقال أبو بكر : يا رسول الله قد أدركنا ، وكان أبو بكر يكسر الالتفات يمينا ويسارا ، اما الرسول فكان هادىء النفس مطمئن القلب يذكر الله ولا يلتفت الى شيء . وبعد أن نجاه الله وبلغ المدينة لم يأمن غوائل قريش ومكاييد اليهود فكان يحاطا بالاعطار من كل جانب حتى كان المسلمون يحرسون بيته في الليل فنزلت هذه الآية (والله يعصمك من الناس) فخرج لساعته من الخيمة وقال للذين يحرسونه : إذهبوا فان الله وعدني بعصمته وتولى حفظي .

ورجع من غزوة نجد . فاستظل بشجرة في ساعة المهاجرة وتفرق عنه أصحابه ولم يبق عنده أحد . ولما غلبته عيناه جاءه اعرابي من المشركين وقد سل سيفه ، فانتبه الرسول ﷺ فقال له الاعرابي : « من يعصمك مني ؟ » (تأمل حرج هذا الموقف) ، فاجابه ﷺ وجأشه رابط وقلبه مطمئن بالايمان : « الله ! » فما طرقت هذه الكلمة سمع الاعرابي حتى تأثر بها وأغمد سيفه .

وخرج المسلمون الى ساحة بدر في قلة من العدد والعدد وهم لا

يزيدون على ثلاثمائة وثلاثة عشر مقاتلا بعضهم معه سيف بلا رمح
وبعضهم معه رمح ولا سيف معه ، وعدوهم نحو ألف مقاتل في سلاح تام
وعتاد كامل . فالتقى الجمعان وحمي وطيس الحرب . ترى أين هو قائد
جيش المسلمين ؟ أنظر ، ها هو قد اعتزلهم لاجئا الى ربه يدعوه تارة
ويستفتح على المشركين ، ويسجد لله تارة وهو يقول : « اللهم أنشدك
عهلك ووعدك ، اللهم ان شئت لم تُعبد بعد اليوم » .

وربما وقع الخلل في صفوف المسلمين وتفرقوا عن الرسول ؛ فبقي هو
ثابتا في موضعه كالجبل الذي لا يزعه شيء ، واثقا بربه متوكلا على تأييده
راجيا نصره ، كما وقع في سفح أحد حين تفرق عنه أكثر الصحابة ، فثبت
هو مكانه ، والمشركون تارة يحملون عليه بالسيوف ، وأخرى يشدون
عليه بالرماح ، ويرمون أحيانا بالحجارة والسهام حتى انكسرت ثيابه
وشرخ رأسه ودخلت في رأسه حلقة المغفر ، ففي تلك الساعة الرهبة كان
واثقا بنصر الله الذي وعده بعصمته فلا يخذله . وكذلك وقع في حنين حين
كانت سهام المشركين تقع على المجاهدين المسلمين كالطرر ، فتفرق
المسلمون ، لكن الرسول ﷺ لم يرح مكانه ، بل ظل ثابتا يدعو الناس
الى الله وهو يقول :

أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب

ثم ترجل عن مطيته وقال « أنا عبد الله ورسوله » ورفع يديه يسأل الله
ويدعوه .

أخواني . هل سمعتم بقائد باسل لا يبالي بقله جيشه ونقص
عدتهم ، ولا ينكص على عقبيه ولا ينسحب من ساحة القتال وان تفرق
عنه جنده ، ويستغني عن سلاحه باستنجاذه ربه وطلب نصرته ؟ ذلك كان
مبلغ ثقته بالله ، وبقينه بنصرته واعتماده على مدده .

واخالكم سمعتم بواعظ يعظ الناس بأن يحبوا أعداءهم ويحبهم على
مودة مبغضيههم ، وأن يزجروا الطير تمر سعدا للذين يزجرون لهم الطير تمر
نحسا ، لكني لا أحسبكم رأيتم أمثالا عملية لا تعاظ الناس بهذه المبادئ
فتعالوا معي الى مدينة الرسول لنرى أمثلة رائعة للعمل بالمبادئ لا أظنكم
ترون مثلها في أمكنة أخرى . واتركوا ما جرى في مكة فإن النبي ﷺ لم
تكن له فيها قوة فلا تضرب المثل منها للحلم والعفو عن مقدرة . لكنه لما
خرج من مكة ومعه صاحبه أبو بكر تعقبهما سراقة وهما في طريقهما الى
المدينة وكان يطمع بجائزة قريش وهي مائة من الابل لمن يأتيها برأس
الرسول ، فجعل يركض فرسه والطمع في الجائزة يستفزه حتى دنا منها ،
وخاف أبو بكر على الرسول ودعا الرسول ربه أن يعصمها من شره
فساخت قوائم فرس سراقة في الرمل فاضطر أن يترجل وجعل يستقسم
بالالزام كعادتهم في الجاهلية فخرج له الذي يكره ثلاث مرات ومع ذلك
ظلت قوائم الفرس في الرمل فأيقن سراقة بالشر وعزم على الرجوع ،
فنادى الرسول وطلب منه الامان وأن يكتب له بذلك كتابا وأن لا يؤاخذه
يوم نعلو كلمته فيتغلب على قريش ، فأمر الرسول أبا بكر فكتب له كتاب
الامان ، فلما فتحت مكة ورأى سراقة بعينه كيف تغلب الرسول ﷺ
وعلت كلمته دخل في الاسلام ولم يؤاخذه الرسول بما كان يريد من
قتله ، بل لم يسأله عن ذلك البتة .

وقد علمتم أبا سفيان ومكانته من مشركي قريش ، ونشاطه في مقاومة
الاسلام حتى لم يدع النبي ﷺ يقر قراره ويطمئن بآله في المدينة ، وهو
الذي زحف بالجيوش وعبا المشركين في بدر وأحد والخندق وكان قائدهم
في معظم الحروب التي قامت بين المسلمين ومشركي العرب ، وكم من
مسلم قتل ، وجريح جرح في تلك المعارك ، لكن أبا سفيان هذا مع كل
ما تقدم منه جاء الى النبي ﷺ مع عمه العباس قبل فتح مكة ولو أنه قتله

لكان بذلك معذورا ، لكنه - وهو الذي بعثه رحمة للعالمين - وقد وسعت
رحمته أبا سفيان فشملة بعفوه . ولم يكتف بالعفو حتى أكرمه وأعزه ونادى
في الناس يوم فتح مكة : « من دخل دار أبي سفيان فهو آمن » .

وعرفتم هنذا زوج أبي سفيان في الحروب ، وهي التي كانت مع
لداتها من نساء المشركين تزجر وتعرض على القتال وتخطب في غزوة
أحد ، وهي التي مثلت بعم النبي ﷺ حمزة ، فلما رأى النبي ﷺ عمه حمزة
بعد الحرب وقد مثل به جزع لذلك المنظر المؤلم ، ومع كل هذا فقد آتته
هند يوم الفتح متنقبة فلم يتعرض لها ولم يسألها عما فعلت ، بل عفا عنها
وصفح . فلما رأت هذا العفو النبيل أكبرته ولم تمالك أن صاحت قائلة :
يا محمد ، لم يكن أهل خباء أبغض إلي من أهل خيائك قبل اليوم ، وأنا
اليوم ليس أهل خباء أحب إلي من أهل خيائك .

وبعد فتح الطوائف يخرج وحشي قاتل حمزة رضي الله عنه هاربا يلتمس
مكانا آخر فاختبأ به ، فلما أظلم سلطان الاسلام هذا المخبأ الذي لجأ اليه
وحشي قال له قاتل : انك لا تعلم ما تعلم من أمر محمد ﷺ ، انك لن
تجد لنفسك مائتا الا عنده . فحضره خائفا ، فلما وقع عليه نظر النبي ﷺ
غض عنه بصره وتذكر في تلك اللحظة عمه حمزة وقتله بيد هذا الرجل ،
فذرفت الدموع من عينيهِ الشريفتين ، وهما هو القاتل أمامه وليسو أراد أن
يقتصر منه لكان ذلك حقا وعدلا ، لكنه عفا عنه واكتفى بأن صرفه
قائلا : « اليك عني ا فاني اذا رأيته تذكرت عمي حمزة وشهادته » .

وهذا عكرمة وأبوه أبو جهل كانا أعدى عدوين للاسلام والمسلمين
ولرسول الله خاصة ، فأبوه جهل آذى النبي الكريم آذى لم يؤذه أحد
مثله ، وابنه عكرمة قاتل المسلمين فلما فتح الله مكة لرسوله خاف على

نفسه بما فعله هو وأهل بيته بالنبي والمسلمين ، ففر ناجيا بنفسه الى اليمن ، وكانت زوجته قد أسلمت من قبل وعرفت الرسول حق المعرفة ، فذهبت بنفسها الى اليمن وربطت على قلب زوجها وهذات روعه ورجعت به الى المدينة ، فلما بلغ النبي ﷺ قدومه سارع اليه يرحب به حتى سقط عنه رداؤه ثم قال لعكرمة بن أبي جهل وهو فرح مسرور : « مرحبا بالراكب المهاجر » وهل تعلمون بمن يرحب رسول الله ﷺ ، ومن هو هذا القادم الذي فرح ﷺ بقدومه حتى سقط عن منكبيه رداؤه ، وشمله بعفوه وصفحه ؟ ان هذا كله لرجل سبق منه قبل اسلامه أن قاتل المسلمين وأذاهم ، بل هو ابن الذي ألقى على الرسول ﷺ سلا جزور ، والذي هم أن يهجم عليه وهو يصلي في المسجد الحرام ، والذي هم أن يخنقه بالرداء ، والذي أشار في دار الندوة بقتل حامل هذه الرسالة الإلهية الى الانسانية ، والذي أوقد نار الحرب بساحة بدر وكاد للاسلام المكاييد ولم يقبل الصلح . هذا ابن ذلك العدو الألد ، ولم يكن هذا الولد قد اعتزل أباه بل شاركه في جميع فعلاته . فلما قدم على النبي ﷺ وهو في أوج قوته هشن له وبشن ورحب به واستقبله بوجه طلق وصدر رحب^(١) .

وهبار بن الأسود هو الذي كان في الحقيقة قاتل زينب بنت الرسول ﷺ وله فعلات أخرى وجرائم شتى وقد خالف المسلمين أشد الخلاف ، فلما فتح الله مكة لنبيه أهدر ﷺ دمه ، فأراد هبار أن يهرب الى فارس ، ثم عدل عن ذلك وبدأ له أن يجلس المجلس الرسول ﷺ ، فلما جاءه قال : يا رسول الله ، كنت هممت أن أفر الى بلاد الفرس ، لكنني

(١) الناشر : ثم كان عكرمة من اجلاء الصحابة وكبار المجاهدين والفائزين رضي الله

عنه .

تذكرت عفوك العام ، وصفحك الشامل ، فجتتكت معترفنا بجميع ما بلغك من ذنوبي . فلما سمع النبي ﷺ اعترافه شمله بعفوه الذي وسع اعداءه جميعا وفتح له باب رحمته الذي ما زال مفتوحا للجميع .

وعمير بن وهب تأمر على قتل النبي ﷺ مع صفوان بن أمية بعد وقعة بدر ، فخرج الى المدينة يترصد النبي ﷺ ومعه سيف مسموم ، فوقع أسيرا بأيدي المسلمين وثبتت عليه جرائمه ، فخل النبي ﷺ سبيله ولم يمسه بسوء .

وكان صفوان بن أمية لما تأمر مع عمير بن وهب على حياة النبي ﷺ وحرص عميرا على اتمام هذه الجريمة تعهد لعمير بأن يعول عياله ويقضي عنه ديونه لو أنه هلك في هذه المغامرة ، فلما فتح الله مكة للنبي ﷺ فر صفوان هاربا من مكة الى جدة ليركب منها البحر الى اليمن ، فجاء عمير الى النبي ﷺ يخبره بذلك ، فأعطاه النبي ﷺ الأمان لصفوان فطلب عمير من النبي ﷺ أمانة على أمان صفوان فأعطاه عمامته ، فلما لقي عمير صفوان وألح عليه بالرجوع أبدى له الخوف على نفسه فذكره عمير بما كان من النبي ﷺ لما وقع في أسر المسلمين وحدثه بما قبل عليه النبي ﷺ من كرم النفس وسعة الصدر وسجاجة الخلق وعظيم العفو ، فانقاد له صفوان وذهب الى المدينة ، فلما حضر مجلس النبي ﷺ قال له : بلغني أنك قد اعطيتني الأمان ، فهل هذا حق ؟ فأجابه ﷺ

نعم . فقال للنبي ﷺ : لست داخل بيتك حتى تمهلني شهرين ، فأجابه : لقد أمهلتك أربعة أشهر ولم تنقض تلك المدة حتى صلح حال صفوان وتغير قلبه ودخل في الاسلام .

ولما فتح رسول الله ﷺ خير معقل اليهود العظيم وحصنهم النيع .

صنعت يهودية طعاما ودعت اليه النبي ﷺ فأجاب دعوتها ، فقدمت له لحما مسموما ، فلما تناول منه أعلمه الله بذلك فأمسك يده عنه ودعا باليهودية فسألها عن الشاة المسمومة فاعترفت بجريمتها ، وقد بلغ من حلم رسول الله ﷺ أن تجاوز عنها ولم يؤاخذها على ذلك بسوء ، وبقي مدة حياته ﷺ يشعر بأثر ذلك السم .

وتقدم آنفا أن الرسول ﷺ عند منصرفه من نجد استظل في الهاجرة بشجرة وعلق فيها سيفه ثم ساوره النوم وقد ابتعد عنه الصحابة وتفرقوا لحاجاتهم ، اذ جاءه إعرابي من المشركين كان يرصده فأخذ السيف واختطفه ودنا من الرسول ، فاستيقظ ﷺ ، فقال له الاعرابي من يعصمك مني ؟ فقال له الرسول وقلبه مطمئن وحاشه رابط : الله ! فلما سمع المشرك هذا الجواب الذي لم يكن يرتقبه تأثر وأغمد السيف . وفي غضون ذلك رجع بعض الصحابة والأعرابي لا يستلم ينصرف ، فلم يتعرض له الرسول ولم يعاقبه على ما كان هم به . وكذلك وقع في أسر المسلمين اعرابي كان راصدا لقتل الرسول ، فلما أحضر اليه ﷺ ذعر الاسير ، فسكن الرسول روعه وخفف عنه وقال له : لو أردت قتلي ما قلرت عليه .

وقبض المسلمون على ثمانين من المشركين يوم فتح مكة وكانوا ممن يحرضون على قتل الرسول ، فلما بلغه أمرهم أمر بتخلية سبيلهم ولم يمسهم بسوء .

اخواني : انكم تعلمون الطائف وأهلها ، وكيف قابلوا الرسول بالشر والأذى أيام كان في مكة يعاني صنوفا من المصاعب والمعضلات . ان أهل الطائف لما عرض عليهم الرسول نفسه ليجيروه ، جبهوه وردوه أقبح رد ، ولم يصنعوا الى دعوته . وان سيد الطائف ورئيسها عبد ياليل

استهزأ به هو وعشيرته ، وأغرى به طغام أهل الطائف وسفلتها ليسخروا منه ، فلما مر بالطريق وقد اصطفوا صفين رموه بالحجارة فجرحته قدماء وسالت منها الدماء على حدائه . وكان ﷺ كلما جلس يستجم من التعب يمنونه من الجلوس وإذا مر بهم يرمونه بالحجارة . وإن ما لقيه من أذى أهل الطائف لم ينسه طوال حياته . ولقد سأله عائشة بعد ذلك بتسع سنين عن أشد ما لقيه من بلاء فأخبرها بأنه يوم الطائف . وكان بعد ذلك أن زحف المسلمون على الطائف في السنة الثامنة للهجرة وحاصروها فأطالوا حصارها واستعصى عليهم حصنها الحصين الذي قتل فيه كثيرون منهم ، فهم الرسول أن يرجع عنهم ، لكن أصحابه أبوا إلا الفتح وسألوا النبي ﷺ أن يدعو على أهل الطائف ، فرفع يديه إلى السماء يدعو فقال : اللهم اهد أهل الطائف ، اللهم ألن قلوبهم للإسلام ومكنه فيها .

هذه هي رحمة الرسول وسعة صدره وسجاجة خلقه وكرم نفسه . يدعو بالخير للملدين آذوه بالشر أشد الأذى ، وأبوا أن يجيروه حين استجار بهم ، ثم قاتلوه أشد القتال . ومع كل هذا لم يسأل الله لهم إلا أعظم ما يعلمه من الخير وهو الهدى . رأيتم رجلا آخر في الدنيا بلغت الرحمة من قلبه هذا المبلغ ؟ أجيبوني بالله عليكم ولا تقولوا إلا الصدق .

دارت رحى الحرب على المسلمين بعد أن كانت الغلبة لهم ، وذلك لأنهم خالفوا أمر الرسول ، واستهوتهم أموال المشركين فاشتغلوا بجمع الغنائم ، وحينئذ كر عليهم العدو فانهمزوا وزلزلت أقدامهم ، فأحاط المشركون بالرسول ورموه بالسهم والحجارة وقاتلوه بالسلاح فانكسرت ثيابه وشج رأسه ودخل فيه ثلاث حلقات من البيضة وتضرج بالدم . فلم يزد ﷺ في ذلك الموقف الرهيب على أن قال : « كيف تغلح أمة تقتل نبيا ؟ اللهم اهد قومي فانهم لا يعلمون ، وإذا كان المسيح عيسى بن

مريم قد قال في عظة الجبل : احبب عدوك ، فان محمدا رسول الله لم يقتصر على ارشاد الناس بلسانه بأن يحبوا أعداءهم ، بل أراهم بسيرته وعمله كيف يكون موقفهم من أعدائهم .

ان عبد ياليل - وأظنكم تذكرون اسمه - قد جبه الرسول هو وعشيرته بالكره وأذوه أذى شديدا . فلما نزل مع قومه على الرسول ﷺ في المدينة بعد ذلك أنزله في مسجده ، وضرب له قبة فيه ، وجعل يزوره بعد كل عشاء ، ويقص عليه ما كان يلقي وهو في مكة من عناء وجهده . ومن هو عبد ياليل ؟ هو الذي استقبل الرسول ﷺ في الطائف بالأذى ، ورجمه بالحجارة وسامه الخفيف . فهل عهد من أحد فيما مضى أن يحب عدوه ويعفو عنه بمثل هذه الساحة عند المقدرة ؟ ولما فتح المسلمون مكة ودخلوها أعزة ظافرين اجتمع رجال قريش وأشرافها بفناء المسجد الحرام ، وفيهم من كان قد شتم الرسول وأذاقه ضروب الأذى وفيهم من كان قد ائتمر عليه بالقتل ، وفيهم من كذب برسالة وافترى عليه ، وفيهم من قاتله وتذرع بكل وسيلة لمحو الاسلام ، وفيهم من طعن النبي بالرمح وضربه بالسيف وفيهم من آذوا فقراء المسلمين وضعفاءهم وكووا صدورهم وظهورهم بالجمر الملتهب ، كل أولئك من رجال قريش وساداتها كانوا يوم فتح مكة واقفين منكسي رؤوسهم صاغرين ، ولعلمهم كانوا يتذكرون ما سلف منهم ونحو ذكراه في ضمائهم مترقبين أن يوقع بهم الرسول جزاء ما اقترفوا ، وحق لهم أن يخافوا ، فان الذي أجلوه عن وطنه وأخرجوه من داره قد عاد اليهم فاتحا عزيزا يقود تحت راياته عشرة آلاف من الابطال الباسلين الشلحين ينتظرون أوامر سيدهم لينفذوها .

في ذلك الموقف الرهيب سالهم الرسول : ماذا ترون أني فاعل بكم ؟

قالوا : خيرا . أخ كريم وابن أخ كريم . فقال ﷺ : أقول اليوم ما قال يوسف لإخوته (لا تثريب عليكم اليوم) اذهبوا فأنتم الطلقاء .

هذه هي حجة الاعداء والعفو عنهم . وهذا ما حققه محمد رسول الله ﷺ وضرب به المثل للسماحة التي لا عهد للدنيا بمثلها ، فذلك هو العفو والصفح ، وتلك هي دماء الخلق وسعة الصدر وكرم المعدن . إنه لم يدع الناس الى فضيلة إلا بدأ بها بنفسه . لم تكن دعوته كلمات عذبة يرسلها على الناس ، ولكنها كانت عملا يتقدم به الى الانسانية ليكون لها منه أسوة وقدوة .

إن دعاة الديانات الاخرى يسمعون الناس مواظظ حلوة من أقوال أنبيائهم ومصلحيهم . أما دعاة الاسلام فيقدمون للانسانية أمثلة عملية من سنة نبيهم وهدية . ولذلك كتب الله الخلود لهذه السنة وهذا الهدى ، والدين الاسلامي كما يدعو الأمم الى كتاب الله يدعوها كذلك الى سنة نبيه الكريم : (لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة) . إن هذا يدل على أن الرسول نفسه مثال لهذه الدعوة ، وحياته حياة مثالية للبشر جميعا . وهذا من خصوصيات الاسلام ، فكما سن الاسلام للناس القوانين والاحكام ، عرض عليهم كذلك حياة النبي ﷺ لتكون مثلا لهم يقتدون بها في حياتهم . ولذلك كان يقول لهم « صلوا كما رأيتموني أصلي » . وكانوا يتداولون أخباره في آداب المعاشرة مع الأولاد والأزواج ويروون قوله ﷺ « خيركم خيركم لأهله ، وأنا خيركم لأهلي » .

ولما وقف بعرفات في حجة الوداع كان عدد أصحابه من حوله نحو مائة ألف أو يزيدون ، فبلغ رسالات ربه الأخيرة ، وأعلن فيهم أحكامه ، وأبطل بقايا رسوم الجاهلية ، وعما ما بقي عالقا من آثار مفااسدها ، واستأنصل شرها وأزال أسباب الحروب بين الأمة العربية وأبطل دواعي

الملاحم التي لم تكن قبل ذلك تنقطع . لكنه لما أعلن إبطال دواعي الجاهلية بدأ بنفسه أولا فقدم من عمله ما يدعو الناس الى أن يقتلوا به ، فخطب مائة ألف من العرب الذين شهدوا موسم الحج قائلا لهم :

« إن دماء الجاهلية موضوعة تحت قدمي ، وأول دم أضعه دم ابن ربيعة بن الحارث » .

وأبطل ربا الجاهلية ، وأول ربا أبطله ربا عمه العباس بن عبد المطلب .

وتأتي الكرامة والشرف مع النفس والمال . وإن معالجة الأمور المتعلقة بأعراض الناس وشرفهم من أشد الأمور وأعضلها وإصلاح ذلك يعد غضا من كرامات الناس ونبلا من شرفهم . لذلك قلما اجتزا المصلحون على إصلاح الرسوم الفاسدة المتمكنة من نفوس الناس والضاربة جذورها في أعماق قلوبهم حتى إنها لتجري في عروقهم مجرى الدم . أما الرسول ﷺ فإنه علم الناس المساواة بين جميع الطبقات ، ودعاهم الى الأخوة الإنسانية بأدق ما تصل اليه معانيها ، حتى إن الرقيق الذي كان في اصطلاح الجاهلية أذل الناس وأحقرهم ، دعا الاسلام الناس الى أن يعاملوه معاملة الأخ والمثل . وبدأ النبي ﷺ بنفسه فاتخذ غلامه زيدا بمنزلة الابن ، وسوى بين الرقيق والعربي الحر الكريم المحتد الشريف النجار . وكان قد بلغ الإباء والفخر والخيلاء بالعرب الى أن كانوا يراعون ذلك في الحرب أشد المراجعة ، فكانت القبائل تتفاضل في درجات الشرف والكرم ، والذي يزعم لنفسه أنه أشرف من غيره وأرفع قدوا يشمخ بأنفه مترفعا عن أن يدنس سيفه في القتال بدم من يراه دونه شرفا وكرما ومنزلة . أما رسول الله ﷺ فقد أذن في الناس أن الناس كلهم لأدم وآدم من تراب ؛ لا فضل لعربي على عجمي ، ولا لعجمي على عربي الا بالتقوى

(إن أكرمكم عند الله أتقاكم) وبهذا التعليم الجديد أعلن أن الناس كلهم
سواسية إلا بالفضائل فلا تعلو طبقة على طبقة ولا طائفة من القوم على
طائفة أخرى ، وأصبح السيد والمولى والغني والفقير سواء لا يتفاضلون
إلا بالنفوس الرضية والأعمال الصالحة . ولم يبق للنسب وزن في ميزان
الاسلام . واحتاج هذا التعليم الى عمل يؤيده ويقويه ويقيم له وزنا في
أعين الناس . وكان النبي ﷺ لما تبني زيد بن حارثة زوجه زينب بنت
جحش (وأما أميمة بنت عبد المطلب عمة النبي ﷺ) وكان النبي في
نظام الجاهلية مثل الولد من الصلب ، فكانوا يحرمون على انفسهم نكاح
حلائل من اتخذوه ابنا لهم كما يحرمون على انفسهم نكاح حلائل الابناء من
الصلب ، وقد جر هذا الحكم الجاهلي مغاسد عظيمة في حياة الاسرة عند
العرب ، فلما جاء الاسلام باصلاح رسوم الجاهلية الفاسدة أبطل بعضها
وعدل بعضها ، فلما أراد أن يبطل أحكام الجاهلية في المتبني ، مست
الحاجة الى أن يبطل هذا الحكم الفاسد بعمل من أعمال الرسول ، ولا
ينفي أن الشرف من أشد ما يحافظ عليه الناس ولا سيما العرب ، فأقدم
الرسول على ما دعا اليه من ابطال حكم التبني ، وتزوج زينب حليلة زيد
بعدها طلقها زيد ، وبذلك أنهى هذا الرسم الفاسد ولم يبق له أثر بعد
عين .

ان حياة الرسول ملأى بالامثلة ، وعامرة بالوقائع التي تدل على
أنه ﷺ قدم حياته للانسانية لتكون أسوة لابنائها ، وأما طمعا مني في
الايجاز ، ووقفا بالسامعين عند هذا الحد لكيلا يسأموا ، أمسك عن
الاطناب في هذه المحاضرة لان الوقت قصير والبحث طويل .

أخواني تأملوا حياة الانبياء من آدم الى عيسى . وتفكروا فيمن سلف
من المصلحين والذين بعثوا بهداية الخلق : من الشام الى أقصى الهند ،

فهل تعرفون واحدا منهم عمرت حياته بمثل هذه الاعمال الجليلة المتنوعة ، وبمثل هذه الافعال العظيمة الكاملة التي يرى فيها الناس أسوة لهم ومنهاجا لحياتهم الشخصية والاجتماعية ؟

واليكم الآن كلمة واحدة . ان أحد الواعظين والخطباء يذكر في مواعظه وخطبه (الحب الالهي) بكلمات عذبة وألفاظ فصيحة رائعة . ولكن - كما قيل - ان الشجرة تعرف من ثمرها . فماذا كان أثر الحب الالهي الطاهر في حياته العملية ؟ ولكن تعالوا ادرسوا سيرة هذا الرسول العربي الذي كان يحب الله ، تجذوه قائما في ظلمات الليل يصلي والناس نيام . ثم ترويه باسقاط ذراعيه الى السماء يسأل ربه اقامة الحق وتيسير الخير ، وقلبه خاشع ، وطرفه دامع ، ولسانه رطب بحمد الله وتسبيحه وتمجيده . أليست هذه هي صورة الحب الالهي في أكمل حالاتها ؟

ان نبي الله عيسى بن مريم لما قبض عليه أعداؤه وأرادوا صلبه ، انطلق لسانه مناديا : « إيلي ، إيلي ، لم سبقتني ا » أي : ربي ، ربي ، لماذا تركتني وخلتني . اما محمد رسول الله فانه لما دنا من الموت ، وأيقن أنه تارك هذه الدنيا ، وكادت روحه الطاهرة تفيض صاعدة الى ربها ، أخذ ينادي ربه قائلا : « اللهم الى الرفيق الأعلى » ، فهو في حنين شديد الى لقاء ربه ، وفي شوق عظيم الى رفيقه الأعلى . فاي الحملتين أدل على الحب الالهي ، وأيهما أصرح في الحنين الى لقاء رب العالمين عز جلاله وعظم سلطانه ؟

« اللهم صل عليه وعلى سائر اخوانه من الانبياء والمرسلين » .

المحاضرة السابعة

رسالة رسول الإسلام الى جميع الأنام

سادتي . بينت فيما سبق من المحاضرات الست أن حياة الانبياء هي التي يجدر أن تتخذ اسوة ، وان سير الرسل هي التي تستحق أن تكون قدوة لبني آدم أجمعين من بين سائر الطوائف العليا من الناس . وأن السيرة التي تستحق أن تكون أسوة لجميع الناس الى يوم القيامة من بين سير جميع الانبياء والمرسلين هي سيرة محمد ﷺ في حياته الشريفة .

ولما تبين أن سيرة الرسول العربي هي السيرة « المثالية » وفيها الاسوة الكاملة للعالم كله ، فان لسائل أن يسأل : ما هي الحياة الكاملة والسيرة الجامعة في هذا الرسول ، وأي شيء في رسالته للناس من رب العالمين ، وماذا بلغ الناس عن ربه ، وما هي الأحكام اللازمة في رسالته التي بعث لأجلها هذا النبي الذي ختم الله به رسالاته وأغناهم به عن أي نبي يأتي بعده ، وكيف أصلح خاتم الرسل برسالته الأحكام السالفة من الانبياء السابقين وأكمل ما كان ناقصا منها بسبب مقتضى البيئة وطبيعة الحال ؟

لا شك أن الله سبحانه قد بعث كثيرا من الانبياء في مختلف العصور ، وأنزل للبشر أحكاما على السنة رسله . وقد قلنا مرارا ، وأثبتنا بدلائل واضحة أن أولئك الرسل خصت رسالاتهم ببعض الأمم وبعض الأزمان ، لذلك لم تمس الحاجة الى حفظها من عوامل التصحيف والتحريف ، ولم تتعلق عناية الله بصيانتها من أيدي البلى وعيث الدهر ، فضاغت أصولها المعاصرة لأصحابها أو قرية العهد منهم ، ووجدت بعد

ضياعها تراجم دخلها كثير من التغيير والتبديل فبعدت التراجم عن أصلها كل البعد واختلقت وألحق بها وزيد فيها كثير مما لا أصل له في الصحف المنزلة . وإن ضياح تلك الأصول الأولى دليل واضح على أن تلك الرسائل كانت لزمن محدود قد مضى ولولا ذلك لاقتضت حكمة الله بقاء أصولها .

أما ما بعث الله به خاتم رسله محمدا ﷺ فقد تولى حفظه ، وسيبقى محفوظا من كل تحريف أو تصحيف الى يوم القيامة ، لأنه آخر رسالات الله ، وسيبقى للبشر ما بقي في الدنيا بشر . ولذلك أعلن الله صفة الكمال والتمام لهذه الرسالة ووعد بحفظها ، ولم يعلن مثل ذلك ولم يعد به في أي كتاب آخر من كتبه وأية رسالة من رسالاته ، بل على العكس من ذلك نجد النص في سفر التثنية من التوراة (٨ : ١٥) على أن رسالة موسى مؤقته وأن الله باعث غيره بغيرها « يقيم لك الرب إلهك نبيا من وسطك - من إخوانك - مثلي ، له تسمعون » ، وقال (١٨ : ١٨) : « أقيم لهم نبيا من وسط إخوانهم مثلك ، واجعل كلامي في فمه ، فيكلمهم بكل ما أوصيه به » . و (٣٣ : ١ - ٢) « هذه هي البركة التي بارك بها عبد الله موسى بني إسرائيل قبل موته فقال : جاء الرب من سيناء ، وأشرق لهم من سعير ، وتلألأ من جبل فاران^(١) ، وأتى من ربوات القدس ، بيمينه نار شريعة لهم » . فهذه الآيات من سفر التثنية في التوراة تدل على أن الله بعث نبيا مثل موسى في يمينه نار شريعة ملتهبة ، وأن الله يلقي في فمه كلاما فيكلم الناس بكل ما يوحيه الله اليه . وهذا أوضح دليل على أن شريعة موسى لم تكن آخر الشرائع ولا أدومها الى يوم القيامة . وهذا النبي أشعيا

(١) برية فاران هي التي سكنتها هاجروا بنها اسما عيل كما في سفر التكوين ٢١ :

يشير ببعثة نبي آخر في الاصحاح ٤٠ من السفر المنسوب اليه . وفي سفر
 ملاخي بشارة برسول من رسل الله ، وكذلك سائر أسفار بني اسرائيل
 والزبور تدل كلها على أن ما كان عندهم لم يكن آخر رسالات الله ، ولا
 اتصفت شريعتهم بالبقاء والدوام . وادرسوا الاناجيل كذلك فانكم
 تجدون في انجيل يوحنا (١٤ : ١٦) : « وأنا اطلب من الاب أن
 يعطيكم فارقليطا آخر ليبقى معكم الى الابد » . وفيه (١٦ : ١٢ - ١٣)
 « إن لي أمورا كثيرة أيضا لاقول لكم ، ولكن لا تستطيعون أن تحتملوا
 الآن ، وأما متى جاء ذلك روح الحق فهو يرشدكم الى جميع الحق ، لانه لا
 يتكلم من نفسه » . فهذه الآيات من الانجيل دالة دلالة ليس فيها إيهام
 على أن ما في الانجيل ليس آخر رسالات الله ، ولم تتم به رسالات الله ،
 بل سيأتي بعده نبي آخر تكمل به رسالة عيسى بن مريم . أما الرسالة
 المحمدية فلا تنبئ بنبي آخر يأتي بعدها ، ولا بأنها ناقصة ستكمل بشيء
 يتلوها . ان الرسالة المحمدية تنادي بأنها كاملة وأنها تامة لا نقص فيها
 (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام
 ديناً) (المائدة ٤) . ومحمد ﷺ هو القائل « ختم بي النبيون » ، « ألا لا
 نبي بعدي » ، وأنه آخر لبنة في بناء النبوة . كل هذا من الدلائل الساطعة
 على أن رسالة محمد ﷺ هي الرسالة الخالدة من رب العالمين لجميع العالمين
 الى يوم الدين . ولذلك تولى الله حفظها وصيانتها وعصمتها فقال عز من
 قائل (إنا نحن نزلنا الذكر وإنآله لحافظون) .

اخواني . بقي سؤال آخر لا بد من الجواب عليه : هل أتى نبي آخر
 غير محمد ﷺ برسالة عامة لجميع البشر ، وهل جاءت من الله رسالة غير
 الاسلام شملت دعوتها الناس جميعا ؟ ان بني اسرائيل قصروا الدنيا على
 انفسهم فجعلوها محدودة بحدود بلادهم ، بل زعموا أن إله العالمين هو

إله امتهم وحدها وخصوه تعالى بأنفسهم من دون الناس . لذلك نرى
أنبياء بني اسرائيل وأسفارهم لم تعمم دعوتها لغيرهم من الأمم ، ولا
تزال الشريعة الموسوية والدين اليهودي مقصورين على الاسرائيليين لا
يتجاوزانهم الى غيرهم ، وأسفارهم لا تخاطب غيرهم ولا ندعو إلا
أسباطهم ، بل إن عيسى المسيح لم يرفع إلا غنم بني اسرائيل الضالة ،
ولم يبلغ رسالته إلا في قراهم ، وأرضهم والمنسويين اليهم ؟ ولم يرغب
في إعطاء خبز الأولاد للكلاب .

وكذلك صحائف (ويدا) الهندية وهي الكتب المقدسة التي يدعي
الهنداك أنها منزلتة على أنبيائهم من السماء ، لا تطرق نبرات تلاوتها آذاننا
غير آذان الأمة الآرية ، وجميع الناس من غير الآريين أنجاس منكبد .
وآذان الشودر (أي الأنجاس) اذا سمعت آيات (ويدا) فليصب فيها
الرصاص المذاب !

أما الرسالة المحمدية فهي الأولى والاخيرة من رسالات الله التي
جعلها الله للناس كافة أحمرهم وأصفرهم وأبيضهم وأسودهم عربا كانوا
أو عجماء من الصين شرقا الى أقصى الجزائر البريطانية شمالا يستوي فيهم
التار والافرنج ، ذلك لأن إله رسول الله محمد ﷺ هو إله جميع الأمم
وهو رب العالمين (الحمد لله رب العالمين) فهو لاجل ذلك مرسل
للانسانية كلها (رحمة للعالمين) فرسالة الاسلام رسالة تعم جميع البشر
(إن هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ) (الانعام ١٠) ، (تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ
عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا . الَّذِي لَهُ مَلَكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)
(الفرقان : ١ - ٢) ، فمحمد ﷺ نذير الدنيا كلها ، ورسالته تعم العالم
أجمع ، وحينما يتفد حكم الله فلتكن شريعة الاسلام قائمة ورسالة محمد
نافذة . وقد جاء في سورة الاعراف (قل يا أيها الناس إني رسول الله

إليكم جميعا الذي له مُلك السماوات والأرض) ، وهذه الآية تعلن عموم الرسالة المحمدية إلى كل من يبلغه نداؤها وتصل اليه دعوتها (وأوحى إليّ هذا القرآن لأنذركم به وَمَنْ يَبْلُغْ) (الانعام ١٩) . فثبت من هذه النصوص أن الاسلام وحده هو الذي أعلن عموم دعوته للإنسانية كلها وأنه هو الدين التام الكامل الجامع للمحاسن ولن يأتي بعده دين غيره . جاء في صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال : بعث الأنبياء قبلي إلى أممهم خاصة ، وبعثت إلى الامم كلها عامة ، وهذا يؤيد دعواي ، والشاريخ يشهد لها شهادة لا ترد . وكما أن السيرة المحمدية كاملة تامة ، وفيها الاسوة لجميع البشر ، كذلك دين الاسلام الذي جاء به محمد ﷺ كامل دائم وفيه صلاح العالم ورشاده .

ولسائل أن يقول : دلوني على حقيقة الرسالة المحمدية التي أكمل الله بها الأديان ، وتمت بها نعمة الله على العالمين ، وبها بعث الله خاتم أنبيائه بالسيرة الكاملة والاسوة الشاملة لجميع البشر مدى الدهر . والجواب على ذلك أن الدين يشتمل على أمرين : أمر يتعلق بقلب الانسان ويسمى (الايمان) ، وآخر يتعلق بجوارحه وبما يملكه ويدعى (العمل) . والعمل ينقسم الى ثلاثة اقسام : أولها يتعلق بالله وهو العبادة ، والثاني يتعلق بما يتعاطاه الناس بعضهم مع بعض وهي المعاملات ومعظمها القوانين والاصول ، والثالث يتعلق بأداب النفس وأداب المجتمع وهي الاخلاق . فالدين إذن عقائد ، وعبادات ، ومعاملات ، وأخلاق ، وهذه الاقسام الاربعة اكتملت بالرسالة المحمدية وتعاليم خاتم المرسلين فبلغت الغاية التي ليس وراءها غاية .

والآن تعالوا نستعرض الكتب السماوية لنقارن ما فيها من هذه الاقسام الاربعة : أما التوراة والانجيل فالذي فيها من العقائد لا يروي

الغليل ولا يشفي العليل . نعم ، نجد فيها ذكرا لوجود الله وتوحيده ، لكننا لا نجد فيها دليلا يؤيد ذلك ولا برهانا يحمل النفوس على التصديق به ، كما لا نجد فيها ذكرا للصفات الالهية التي تزكوا بها السروح الانسانية ، وتظهر بها نفوس البشر ، وتنشأ بها محبة الله وعرفانه .

فقبل البعثة المحمدية لم يكن الناس يعرفون هذه الأمور ولا كشفت لهم الحجب عن حقيقة النبوة والرسالة والوحي والإلهام ، والصلة بين الله ورسله ، ومكانة الأنبياء ومنازلهم ، وكيف يؤمن الناس بالنبوة وما معنى الإيمان بالانبياء وما معنى عصمتهم . هذه المسائل كلها لم ينكشف أمرها ولم يقف الناس على بيانها قبل الرسالة المحمدية ، لأننا لم نر نبيا من الانبياء تصدى لذلك وأفاض فيه . أما الجزاء على الاعمال ، وأمر الجنة والنار ، والحشر والنشر ، والقيامة والحياة بعد الموت ، فكل ذلك غامض قليل الوضوح في التوراة ، ولا نقرأ عنه في الانجيل إلا فقرتين في جواب يهودي ، والجنة والنار لا نرى عنها إلا فقرتين كذلك . بينما الرسالة المحمدية هي التي افاضت في هذه الأمور بوضوح عظيم .

وإذا أردت أن تعرف الملائكة من التوراة يلتبس عليك أمرهم ، وقد يشق عليك أن تميز بين حديث التوراة عن الله وحديثها عن الملائكة (انظر سفر التكوين ١٨ : ١ و ١٩ : ١) وذكر فيها المللكان ، والتبست في الانجيل حقيقة روح القدس التباسا تاما حتى لا يتسنى للقارىء أن يميز بين الله وروح القدس ، بل يصح عنده أنه إله أو ملك . أما الرسالة المحمدية فقد أوضحت أمر الملائكة ، وكشفت عنهم الحجب ، فأصبح مدلول هذا اللفظ بيانا واضحا ومكانة الملائكة وأعمالهم معينة معلومة وأسماؤهم مذكورة ، فهو وسائط بين الله ورسله ، وينفذون إرادة الله في

تدبير العالم وتصريف الأمور في الدنيا ، كل ذلك نراه مفصلا في أي
الذكر الحكيم .

هذا في العقائد مما قد فصلته الرسالة المحمدية وأوضحت أمره . أما
في الأعمال ورأسها عبادة الله ، فإن التوراة تتوسع في ذكر القرابين وآدابها
وشرائطها ، وفيها ذكر الصوم والأدعية ، وفيها ذكر بيت إيل أو بيت
الله . ومع ذلك فإن هذه الأمور غير واضحة ولا تسترعي أنظار الناظرين
حتى أن منهم من جنى إلى إنكارها . وفيما عدا ذلك فإننا لا نجد في التوراة
أنواع العبادات وأقسامها ولا طرقها ولا آدابها ولا تعيين أوقاتها ، وليس
هنالك عناية تامة بتعليم العبادة للناس ، وقد أهمل جانب عظيم من
كيفية ذكر الله ودعائه ، فلا نرى ما يدل على تعليم دعاء خاص لرب
العالمين ، وكيف يدعو الناس ربهم ويسألونهم حاجاتهم . وترى في
الزبور أدعية كثيرة ومناجاة للرب طويلة ، لكن ليس فيه ذكر لآداب
العبادات وشرائطها وأوقاتها ، أما الانجيل فقلما ترى فيه ذكرا للعبادات ،
بل ليس فيه ذكر للعبادة البتة . نعم نجد في فقرة منه (متى ٤ : ٢) ذكرا
لتقشف المسيح وصيامه أربعين يوما . وفي الانجيل أيضا اعتراض اليهود
على المسيح بأن أصحابه لا يصومون . وفيه ذكر دعاء دعائه عيسى عليه
السلام في الليلة التي أرادوا صلبه فيها ، وفي ذلك الموضع دعاء آخر له ،
لكننا لا نجد ذكرا للعبادات أخرى .

أما الاسلام ففيه الصلاة والصوم والحج ، مفصلة آداب كل منها
وشرائطه ، وموضحة طرق عبادته وسننها . وهو يرشد الناس إلى كيفية
ذكر الله ، وبأي دعاء يدعوون ، وبأي كلمات بليغة يسألون رب العالمين .
وقد عين لهم مواقيت الصلاة والصوم والحج ، واحكام هذه العبادات
وسننها ، وكيف يسألون ربهم فيها ليستنزلوا رحمته ويستغفروا ذنوبهم ،

وكيف يتضرعون إليه ويخشعون له ويناجونه في سرهم ويلذكرونه في علانيتهم ، وكيف يتوبون اليه معترفين بزلاتهم ، منيبين اليه منها متوخين تزكية نفوسهم ، وتنزيه أرواحهم ، وتطهير قلوبهم ، والتقرب الى ربهم بكل ما ينالون به مرضاته ، لتكون روح الدين قائمة وحقيقة ملموسة .

والقسم الثاني من الأعمال : المعاملات . وتستطيع أن تسميها قوانين المملكة وأصول المعاشرة ، وهذا الضرب من الأعمال مفصل تفصيلا وافيا في رسالة موسى عليه السلام ، وأقرت الرسالة المحمدية أكثره لكنها خففت من شدة أحكامه ووسعت ما ضاق منها فجعلتها صالحة لتكون قوانين عالية . وكانت دائرة العمل بها محصورة بيني إسرائيل فلما أضاف إليها الاسلام ما نقص منها أصبحت جديرة بأن يدعو العالم كله لأن يتخذوها قوانين إنسانية عالية . ونحن لا نرى ذكرا لقوانين المملكة في الزبور ولا في الانجيل ، وقد نجد في الانجيل بعض الأحكام في الطلاق ، أما الأمور الأخرى فلا أثر لها فيه ، مع أن الدين العالمي الأبدي الذي يتكفل بحاجات المجتمع البشري يتحتم أن يشمل قوانين الدولة وأصول المعاشرة . ولما كان دين عيسى المسيح عليه السلام خاليا من هذه القوانين فقد اضطرت الأمم المسيحية الى استعارة هذه القوانين من الأمم الوثنية كالأغريق والروم . بينما الرسالة المحمدية اكتملت فيها هذه القوانين ، لأنها نظرت الى هذا الضرب من حاجات الأمم نظرا ثاقبا حكيما ، فاستوعبته من جميع نواحيه مستقصية جهاته كلها ، فلم تترك ناحية منه إلا وقد أتمتها ، فست قوانين كلية أقامتها على أصول جامعة استنبطتها الأئمة المجتهدون والأصوليون من فقهاء العلماء أحكاما لحاجات جدت ومقتضيات حدثت ، ولا يزالون يستنبطون منها . واستمر هذا العمل الفقهي في هذه القوانين ألف سنة من أعمار الدول الاسلامية البراقية ذات المدينيات الزاهرة والحضارات الزاهية . وعمل

بذلك المسلمون في مختلف بقاع الأرض وأقطارها ، ولا يعرف العالم كله الى الآن قانونا أعَدل ولا أرحم بالانسانية ولا أصلح لها من قوانين الاسلام .

والقسم الثالث من الاعمال : الاخلاق . وإننا نجد في التوراة أحكاما عديدة تتعلق بالاخلاق ، منها سبعة تعد أصولا ، وليس في هذه الأصول السبعة إلا أصل واحد إيجابي وهو الأمر بطاعة الوالدين والبر بها ، أما الستة الأخرى فكلها سلبية وهي النواهي : لا تقتل ، لا تسرق ، لا تزني ، لا تشهد على جارك شهادة زور ، لا تتحاذن حليلة جارك ، لا تطمع في مال جارك . وبعض هذه الأصول داخل في بعض ، فهي في الحقيقة أربعة .

والانجيل ردد هذه الأحكام السبعة كما هي في التوراة وزاد عليها الحث على محبة الغير ، فجاء بزيادة واحدة على ما في التوراة . أما الاسلام فقد جاء بأحكام كثيرة في المعاشرة ، وبقوانين مفصلة في المعاملات ، وأفاض فيما كان نهرا حتى جعل منه بحرا . وفي الليلة التي أسري فيها بالرسول ﷺ أعطى الله أهل الاسلام اثني عشر حكما أساسيا منها واحد في التوحيد ، وكلها مذكورة في سورة الاسراء (٢٣ - ٣٩) . وفيها خمسة إيجابية ندعوها أوامر ، وخمسة سلبية تسمى النواهي :

(وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ، وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا : إِمَّا يَبْتَغِ خَافُكَ الْكَبِيرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمْ أَوْفَ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا . وَانْخَفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذَّلَّةِ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا . رَبِّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ : إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا . وَأَتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تَبْذُرْ تَبْلِيغًا ، إِنْ الْمُبْتَذِرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ ، وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ

كفوراً . وإما تُعرضنّ عنهم ابتغاء رحمة من ربك ترجوها فقل لهنّ قولاً
ميسوراً . ولا تجعل يديك مغلولَةً إلى عنقِك ولا تبسطها كلَّ البسط فتتعدّ
ملوماً محسوراً . إن ربك يسطر الرزق لمن يشاء ويقدر ، إنه كان بعبادِهِ
خبيراً بصيراً . ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاقٍ نحن نرزقهم وإياكم ، إن
قتلهم كان خطئاً كبيراً . ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلاً . ولا
تقتلوا النفس التي حرّم الله إلا بالحق ومن قتل مظلوماً فقد جعلنا لوليه
سلطاناً فلا يُسرف في القتل إنه كان منصوراً . ولا تقربوا مال اليتيم إلا
بأنّتي هي أحسن حتى يبلغ أشده ، وأوفوا بالعهد إنّ العهد كان مسئولاً .
وأوفوا الكيل إذا كِلْتُم وزنوا بالقسطاس المستقيم ، ذلك خير وأحسن
تأويلاً . ولا تقف ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كلّ
أولئك كان عنه مسئولاً . ولا تمش في الأرض مَرِحاً ، إنك لن تحرق
الأرض ولن تبلّغ الجبال طُولاً . كلّ ذلك كان سيّئاً عند ربك مكروهاً .
ذلك مما أوحى إليك ربك من الحكمة :

١ - بر الوالدين وطاعتهما . و٢ - إيتاء كل ذي حق حقه . و٣ - الاحسان
الى اليتامى . و٤ - الوزن بالقسطاس المستقيم . و٥ - إيفاء الكيل . و٦ -
الوفاء بالوعد (هذه أمور خمسة ايجابية) .

١ - لا تقتل أولادك . و٢ - لا تقتل نفساً . و٣ - لا تقرب الزنا . و٤ -
لا تقف ما ليس لك به علم . و٥ - لا تبذر في النفقة واقتصد فيها (وهذه
امور خمسة سلبية) .

فاذا قارنتم بين ما جاء به القرآن من الاحكام الاساسية وما جاء به
الانجيل والتوراة تبين لكم حقيقة الرسالة المحمدية ويتضح لكم أنّها
أكملت ما كان ناقصاً في الرسالات السابقة التي لم تهتم بذكر الاحكام
الاساسية . ولم تقتصر رسالة الاسلام على تكميل هذا النقص ، بل

عنيت بحل معضلات المجتمع البشري في الاخلاق ، ووجهت الانسانية الى الطريق المثل في قواها ، ونهت الانسان الى تقاضيه وعيوبه وامراضه النفسية ، ووصفت له دواء من كل داء من ادواء النفوس ، واتخذت بيده الى الجادة الوسطى في الاعمال والاخلاق والمعاملات هذا ما اكملته الرسالة المحمدية من الناحية العلمية .

ولوشئنا ان نعبر عن جميع تعاليم الاسلام بأسلوب موجز ، جاز لنا ان نعبر عنها بهاتين الكلمتين الوجيزتين : الايمان ، والعمل الصالح^(١) فهاتان الكلمتان تشملان جميع ما جاءت به رسالة محمد ﷺ وتحيطان بكل ما اكملته من عقيدة ، وعمل ، وخلق ، وحسن معاملة . فهما قوام الاسلام وزبدة ما جاء به محمد رسول الله ، وهما في الواقع قوام الفلاح والنجاة وملاك السعادة . فمن آمن بالله ايمانا لا يزعمه شيء ، وأطاع الله فيما أمر به من حق وخير وعمل بذلك عملا صالحا لا يشوبه سوء ، أفلح ونجا . وقد وصف الله في كثير من الآيات شأن المؤمنين الذين يؤمنون بالله ويعملون عملا صالحا وبشرهم تارة بقوله (أولئك هم المفلحون) وتارة بأنهم (أولئك هم الفائزون) . فالفلاح البشري والفوز الانساني يرجع الى الايمان بالله والعمل الصالح بما أمر .

وقد كان بوجدنا ان تبسط القول في الايمان والعمل الصالح ونوفيها حقهما من البيان والشرح ، لولا ان هذا الموقف لا يساعد على ذلك .

(١) والايمان الاسلامي بضع وسبعون شعبة ، وقد استقصاها اعلام الاسلام فراوها تدور حول شيئين لا ثالث لهما : الحق ، والخير . وكل شعبة من شعب الايمان الاسلامي لا ريب أنها تدخل اما في باب الحق ، او في باب الخير . والعمل الصالح هو عمل المؤمن بما هو مؤمن به ، فلا يكون العمل صالحا الا اذا كان من عمل الحق او من عمل الخير وهذا هو الاسلام .

محج الدين الخطيب

والذي يعنينا الآن من الكلام على الرسالة المحمدية ناحية الكمال فيها واتمامها ما كان ناقصا في البيانات السابقة مما يرجع الى العقائد والاعمال ، فأصلحت ما كان من قبل فاسدا ، وردت البدع الطارئة ، وقمعت المفاصد العظيمة الفاشية التي شوهت وجه الانسانية ، وكانت بابا لكل شر وأصلا لكل فساد ، وبذلك سدت في أصول الدين جميع الثلمات التي تسربت منها المفاصد فكانت سببا في انحطاط الانسانية عن مستواها الكريم .

وأول مسألة عني بها الشرع المحمدي كرامة الجنس البشري ومكانته من سائر المخلوقات . وهي مسألة ترجع الى أمر التوحيد ، فالإنسان قبل الاسلام كان يرى نفسه أحط منزلة من معظم المخلوقات والموجودات . كان يهاب كل ما عظمت جثته ، ويطأطئ رأسه لكل ما يبدو له أسود حالكا أو أبيض لامعا ، ولكل ذي لبن سائغ أو لعاب قاتل . وبلغ خوفه من مظاهر الطبيعة ومن المخلوقات الضارة ، ورجاؤه من الاشياء التي يرتقب نفعها ، أن صار يعبد الحجارة الصسم والجبال الشم والبحار الزاخرة والأنهار الجارية والأشجار الخضراء والأمطار الهائلة والسيران الملتهبة والصحارى المخيفة والأفاعي السامة والأسود الزائرة والبقر الحلوب والشمس البازغة والنجوم الزاهرة والليالي المظلمة والأشباح المهيبة ، وفي الجملة كان يعبد من المخلوقات كل ما يخشى شره أو يرجو خيره ، اتقاء لضرره أو طمعا في خيراته . فلما بعث محمد برسالة الله أعلن لجميع البشر بأن هذه المخلوقات كلها إنما خلقت لهم ولم يخلقوا لها ، وأنها مسخرة لهم فلا يليق بهم أن يسجدوا لشيء منها . وقال لهم : أيها الناس ، أنتم خلقاء الله في هذا العالم ، وقد سخر لكم كل ما فيه جميعا . إن الدنيا لكم ولستم لها (وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض

خليفة (البقرة ٣٠) وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ خَلَاقَ الْأَرْضِ) - (الانعام ١٦٥) .

ولاجل استخلاف بني آدم في الارض سميت منزلتهم بين جميع المخلوقات وشرفهم الله وكرمهم (ولقد كرمنا بني آدم) (الاسراء ٧٠) فهل يجوز لخليفة الله في الارض وقد كرمه الله ان يسجد لمن هو دونه ، ويعبد ما هو اصغر منه شأنًا ؟ وكيف يسجد بنو آدم لشيء غير الله والعالم مسخر من الله لهم (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ) (الحج ٦٥) . (هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا) (البقرة ٢٩) . (والآنعام خَلَقَهَا لَكُم فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ) (النحل ٥) . (هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ يَنْبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ) (النحل ١٠ - ١١) . فلبني آدم الارض وما فيها من الشجر والخضر ومن الثمر والزهر وغيرها من المنافع والمرافق مما لا يعد كثرة ولا يحصى وفرة ، ولهم السماء وما فيها من الشمس والقمر والنجوم . (وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنَّجْمِ مَسَكِرَاتٍ بِأَمْرِهِ) . (النحل ١٢) . ولهم البحر وفيضانه ، والنهر وجريانه (وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَازِيرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلِعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) . (النحل ١٤) . والقرآن الحكيم حافل بكثير من هذه الآيات .

فدلت الرسالة المحمدية بذلك على أن موقف الانسان من هذا العالم موقف السيد الكريم مما سخر له ، وموقف المتوج بتاج الخلاقة الإلهية من كل ما هو مستخلف فيه . فالانسان مكمل بإكليل الجلال والعظمة ، لا يفوقه شيء من موجودات الكون ، والكون كله دون الانسان ، وهو نقطة

دائرة العالم وإنسان عينه والغاية من خلق العالم ولأجله جعلت الدنيا .
وبما يثير العجب أن يركع الإنسان لمخلوق أو يسجد لما هو دونه أو يعبد
شيئاً خلقه الله له ، وكيف يفعل الإنسان ذلك وقد كرمه ربه وشرفه وفضله
على جميع ما في العالم تفضيلاً .

ولما جهل الإنسان قدر نفسه جعل يرفع رجالاً من أمثاله فوق
درجاتهم ، ويحل أناساً في مكانة رفيعة لا يستحقونها ، وقد كان يبلغ الأمر
بالإنسان إلى أن يعبد الإنسان . أما رسالة محمد ﷺ فقد عرفت الناس
بأقدارهم وأنزلتهم منازلهم وأعطت كل ذي حق حقه فلم تنقص من حقه
شيئاً ولم ترفع أحداً من الناس فوق مكانته التي يستحقها ، فكما لم تحط
عزیزاً عن عزته الجدير بها لم ترفع أحداً فوق المقام اللائق به ، وبذلك
دلت الإنسان على شرفه وعلاته ، وعلمته أنه مهما كان رفيعاً وذات سلطة
ويأس فانه لن تبلغ به رفعة أن يعبد كما كان يريد الفراعنة أن يعبدوا ،
ومهما كان طاهراً عابداً متبتلاً فلا ينبغي لإنسان أن يركع له أو يرجو منه ما
لا يرجي إلا من الله أو يخشاه كخشية الله ومهما حاز من المال الكثير والثراء
العظيم فليس له أن يستعلي بذلك على إخوانه من خلق الله . إن رسالة
محمد ﷺ قد قطعت الفساد واجتث الشر من أصولها وأعلنت في الناس
بوضوح وجلاء هذه الحقيقة : (ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون
الله) (آل عمران ٦٤) وأذاعت في العالم عن الأنبياء أنفسهم وهم أسمى
مراتب البشر أنهم لا ينبغي لأحد منهم أن يقول للناس (كونوا عباداً لي من
دون الله) (آل عمران ٧٩) .

ليس في عالم الشهادة أرفع قدراً من الأنبياء ، ولا في عالم الغيب أعلى
درجة من الملائكة ، ومع ذلك لا يجوز أن يتخذ الناس أحداً من الأنبياء أو
الملائكة معبودين لهم (ولا يأمرنكم أن تَتَخِلُّوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَاباً)

(آل عمران ٨٠) فالرسالة المحمدية رفعت مكانة الانسان وقد كانت منحطة من قبل فصار لا يخضع ولا يحني رأسه لغير الله ولا يسجد إلا له ولا يمد يده سائلا غيره ، إذ لا معطي لمن منعه الله ، ولا مانع لمن أعطاه الله (وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ) (الزخرف ٨٤) . (ألا له الخلق والأمر) (الأعراف ٥٤) . (إن الحكم إلا لله) (الانعام ٥٧) . (ولم يكن له شريك في الملك) (الفرقان ٢) .

ثم تأملوا أمر التوحيد بعد علمكم بأن الرسالة المحمدية رفعت درجة الانسان وعرفته بقدر نفسه ، إن هذه الرسالة أوضحت حقيقة التوحيد ورفعت عن وجهه الحجب الكثيفة وأزاحت عنه ظلمات الشرك ، فتجرد من كل ما نسجته حوله أيدي الأوهام الباطلة والعقائد الفاسدة ، فليس في تعاليم الاسلام ما يدل على أن الله أشرك قيصر معه في الحكم وأن قيصر حاكم مثله فالاسلام محض الحكم كله لله ، ليس لأحد فيه من نصيب ، فله الحكم في السماوات والأرض وله الأمر فيهما .

سادتي . إن الانسان وقد اعتر بالخلافة الإلهية على الأرض وارتشف كأس المحبة لله وحده ، هل يعقل أن يسجد بعد ذلك لغير الله ، وهل يخامر قلب المؤمن بالله أي خوف من الظلمة أو النور ، ومن المياه والرياح . وهل يخشى ملكا عظيما ، أو يوجس في نفسه خيفة من صحاري واسعة أو جبال شامخة أو أرض رحيبة أو بحار زاخرة حتى يسجد لها أو يدعوها خوفا أو طمعا ، إن المؤمن لا يخشى إلا الله ، ولا يبالي بغير الله ، ولا يطمع في ثراء ثري ، ولا يرجو غنى إلا من الله الغني عن كل شيء . انظروا الى تعاليم الاسلام كيف بلغت بالانسان ذروة الشرف وسنام المجد . وتأملوا كيف رفعت الرسالة المحمدية المستوى البشري ووجهت المجتمع الانساني نحو الحق والخير .

وامر آخر وهو أن الرسالة المحمدية أذنت في البشر أن الانسان نزاع الى الخير ، وأن فطرته بريئة في الأصل ، ثم تطرأ عليها أعماله فتجعله آثما مذنباً أو نقياً صالحاً . فسيئاته التي يقترفها هي التي تؤثر فيه فتجعله شيطاناً مريداً ، كما أن حسناته التي تصدر عنه هي التي تجلو نفسه وتهذبها فيكون بها ملاكاً طاهراً . إن هذه لبشرى عظيمة هتف بها محمد ﷺ رسول الاسلام في بني آدم ، بعد ان كانت الأديان المنتشرة في الهند والصين من سالف الأيام تنشر الايمان بالتناسخ وبعث الارواح - بعد موت أصحابها - في أجساد أخرى أرفع منزلة مما قبلها اذا عملوا أعمالاً صالحة ، أو في أجساد أذل وأحقر مما كانت فيه من قبل اذا اجترحوا السيئات . وقد ذهب الى هذا التناسخ بعض النوكي ممن ينتمون الى حكماء الأغريق وجرّ هذا الاعتقاد الفاسد وبالا عظمياً على معتقديه ، فأصبحت حياته حياة إكراه وإجبار ولا اختيار له فيما يعمل ، فكأنه آلة صغيرة تحركها آلة كبيرة ، وأنه ولد مذنباً ، بل ولادته في الدنيا نذير له بأنه مجرم آثم .

وجاءت المسيحية فثبتت في الناس عقيدة أن كل مولود يحمل من ساعة ولادته خطيئة أبيه الأول آدم ، فالمولود يولد آثماً غلطاً وإن لم يخطيء في الواقع ، والمخطيء الآثم بجبلته يحتاج الى المغفرة من شخص آخر لم يولد آثماً ولم يخطيء بجبلته . فيفدي هذا الشخص الأخير بنفسه خطيئة بني آدم ليذهب بسيئاتهم . وهذا ما نشرته المسيحية المعروفة عند الناس داعية بني آدم الى الايمان بالفادي .

اما محمد رسول الله فقد بشر الانسان بأنه يولد غير آثم ولا مجبول على الخطيئة ، ولا مسئول عن خطيئة أبيه الأول آدم ، وأنه يعيش عيشة لا إكراه فيها ولا إجبار ، وهو خير في حياته بين أن يعمل صالحاً إن شاء فيجني ثمرة صلاحه ونزاهته ، وبين أن يعمل عملاً سيئاً فيكون بعمله

مذنباً آثماً (والتين والزيتون وطور سينين وهذا البلد الأمين ، لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم ثم رددناه أسفل سافلين ، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات) (سورة التين) . فالإسلام بشرى بني آدم بأن قوامهم أحسن ، وفطرتهم أفضل ، وجبلتهم أعدل ، وأنهم بعد هذا الإعداد الإلهي إنما يفسدون أو يصلحون بأعمالهم وبما يختارونه لأنفسهم (ونفس وما سواها ، فأنمها فجورها وتقواها . قد أفلح من زكّاها وقد خاب من دَسّاها) (سورة الشمس) .

وهل من دليل أوضح على حسن جيلة الإنسان ونزاهة فطرته وطهارة أصله من قول الله فيه (إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا . إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ : إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا) - (سورة الدهر) (يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ) (سورة الانفطار) .

وإن رسول الله الذي يتحرك لسانه بالوحي ، ويصدر منطقته عن الهام ، قد جعل الدين والفطرة بمعنى واحد ، أي إنها كلمتان لمعنى واحد . فاصل الفطرة هي الدين الذي دعى الإنسان إليه ، والإثم عارض يعرض للإنسان ولاحق يطرأ عليه ، ويقول الله عز وجل (فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ) (سورة الروم) . وقد فسر الرسول هذه الآيات فيما رواه البخاري في تفسير سورة الروم من صحيحه فقال ﷺ « ما عين مولود يؤلد إلا على الفطرة ، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه كما تنتج كل بهيمة صحيحة سليمة هل ترون فيها سكاء » . إن البشرى التي بشر بها الرسول ﷺ بني آدم هي أن كل إنسان مختار فيما يفعله غير مكره عليه ولا مجبر ، وليست حياته الحاضرة تنجية لحياته

الماضية فمن آمن بالرسول فقد تغيرت وجهة نظره الى أعماله ، فلا هو كثيب واجم ظنا منه بأنه مكره على عمل هو استمرار لحياة سالفة . فكل من آمن بالرسالة المحمدية أصبح بفضلها حرا طليقا من الاوهام الباطلة والعقائد الفاسدة التي قيدت حياة البشر وغلت أيديهم .

ان الدنيا قبل بعثة رسول الاسلام ﷺ توزعتها عقائد باطلة وأوهام سخيفة ، فكان أهل كل دين في مملكة من الممالك يحسبون أن مملكتهم هي الدنيا كلها ، فكان براهمة الهند ومتصوفوها يرون ان بلادهم هي أرض الله الممتازة وما خرج عنها لا نصيب له من رحمة الله ، لأن الله لا يريد الخير الا لقطان بلادهم . وأمر الرسالة الالهية والهداية الربانية قد اختص به بعض البيوتات من سدة المعابد لا يعدوهم أبدا . وكذلك كان زردشت يحسب أن الاله انما يعني بأمر بلاده المقدسة وحدها وبأهل وطنه الاخير ، ولا تعنيه بلاد أخرى ولا أمة أخرى . وينو اسرائيل يظنون أن رسالات الله خاصة ببعض اسباطهم وأنها حقهم الموروث .

أما الاسلام فقد وسع على الانسانية ما ضيقه الآخرون ، وأعلن أن الناس كلهم سواسية ، وأن دعوة الله غير مخصوصة ببلاد دون أخرى . فمشرق الدنيا ومغربها وشمالها وجنوبها وفلسطين وفارس والهند ، كل قد خلا فيها رسول أو نبي ، وأن الله تعالى تستوي عنده الامم واللغات في بعثة الانبياء ، فشمس النبوة أشرقت على البشر جميعا وتلألأت فيهم أنوار الرسالة (وإن من أمة إلا خلا فيها نذير) (سورة فاطر) - (ولِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ) (الرعد) (ولقد أرسلنا من قبلك رُسُلًا الى قَوْمِهِمْ) (سورة الروم) . فاليهود لا يؤمنون بنبي ليس منهم ، والنصارى لا يرجون على أنفسهم الايمان بنبي من بني اسرائيل أو غيرهم ، ولا يرون اذا لم يؤمنوا ببعض الانبياء أن ذلك يخلى بشيء من دينهم . وكذلك الهنادك لا يعتقدون

بأن الالهام الالهي والوحي الرباني نزل على بلاد غير بلادهم . وهكذا
شأن المجوس أتباع زردشت فانهم يذهبون الى أن الدنيا كلها مظلمة
سوداء فلا نور الا ببلادهم بلاد النار .

أما الرسالة المحمدية فقد أعلنت أن الدنيا كلها لله وحده ، وأن
سكانها أجمعين من خلق الله ، وأن الاقوام على اختلافها سواسية في نعمه
وآلائه ، وكلهم نالوا نصيبا من دعوته وحظاً من رحمته ، وما من بلاد
عمرتها أمة الا وقد أضاء فيها نور من هداية الله ، وبُعث فيها نبي دعاها
الى الحق وبلغها أوامر الله ونواهيه .

وقد علمت مما سلف أن الاسلام فرض على كل من دخل فيه أن يؤمن
بجميع انبياء الله ورسله وبالكتب السماوية التي أوحى الله بها من قديم
الزمان ، وليس بمسلم من لم يؤمن بالانبياء كلهم وبالكتب المنزلة على
الرسل المبعوثين من قبل ، فالرسل الذين سماهم الله في القرآن يجب على
المسلم أن يؤمن بهم إيمان تفصيل ، والذين لم تذكر أسماءهم يؤمن
المسلم بهم إيمان اجمال بأنهم كانوا صادقين هداة للبشر ، وكانوا ينابيع الخير
والحكمة . وقد وصف الله المسلمين بأنهم (الذين يؤمنون بما أنزل إليك
وما أنزل من قبلك) (البقرة) . وفي موضع آخر من البقرة (لكن البر من
آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبين) . وفي سورة البقرة
أيضا : (كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ، لا نفرق بين أحد من
رسله) . فليس للمسلم أن يؤمن ببعض الرسل ويكفر ببعض . وقد
خاطب الله المسلمين جميعا بقوله (يا أيها الذين آمنوا بالله ورسوله والكتاب
الذي نزل على رسوله والكتاب الذي أنزل من قبل) (النساء ١٣٦) .

سادتي . هل تعلمون أحدا علم مثل هذا التعليم فسوى بين الهداة
من جميع الملل والنحل في إعظامهم وإكرامهم والادب معهم والاعتراف

بجميلهم وتصديفهم فيما دعوا اليه من حق ؟ وأين ترون مثل هذه الروحانية العامة والإخاء الشامل ؟ أجيئوني بصدق : أليس رسول الاسلام رحمة للعالمين حيث علم الناس كيف يرعون شرف الهداة وعظمة حملة الرسالات الالهية ، فعمت دعوته واتسعت رحمته حتى نال كل شعب من شعوب البشر وكل أسرة من أسرهم نصيباً من ذلك . ولقد اتخذ المتدينون بجميع الديانات وسائط ووسائل بينهم وبين الله ، معتقدين أنهم لا يصلون الى الله المعبود الا ان يتوسط بينهم وبينه من زعموه أهلاً لذلك ، فكانت السدنة وخدمة المعابد وسائط الناس الى الله في قديم الزمان ، وحتى اليهود اتخذوا من سبط لاوى ومن تناسل منه شفعاء بينهم وبين ربهم ، والنصارى جعلوا بعض الخواريين وخلقاتهم من الرهبان والقسيسين وسائط يتوسلون بهم الى الله ، وقد غلوا في رفع مراتبهم حتى بلغوا بهم مبلغاً لم يبلغه مقرب عند الله فزعموا أن ما يربطه هؤلاء الشفعاء في الأرض فهو مربوط في السماء وما حلوه في الأرض فهو محلول في السماء ، وأن لهم أن يغفروا للناس خطاياهم ويسقطوا عنهم آثامهم ، وأن العبادة لا تقبل عند الله الا بوساطتهم . وكذلك براهمه الهند زعموا أنهم مخلوقون من عيين الله وأنهم الوسائط بين الخلق والخالق وأن العبادة الهندوكية لا تقبل الا بهم وعلى أيديهم . أما الاسلام فلا يعترف بطائفة خاصة من سدنة المعابد وخدام المساجد وأخبار الدين ، وليس في الاسلام خاصة من سدنة المعابد وخدام المساجد وأخبار الدين ، وليس في الاسلام رهبانية ، ولا يرضى أن تكون فيه فئة تتخذ الدين مهنة ومصدر رزق ، وليس لأحد أن يعطي أو يمنع ، وما بيد أحد شيء من أمر الحلال والعقد بل كل ذلك بيد الله فهو الذي يغفر الذنوب وحده ، وليس بين العبد ومعبوده والمخلوق وخالقه أي تدخل لأحد في عبادة الله ومنجاته ، ولكل مسلم أن يصلي بالناس وأن يؤمهم وأن يذبح أضحيته بيده وأن يعقد النكاح ويقوم

بجميع أمور الاسلام وأوامره . والاسلام يعلم أتباعه قول الله عز وجل
(ادعوني استجب لكم) وأنه يجيب دعوة الداعين مباشرة وبلا واسطة ،
فكل مسلم يدعو ربه متى شاء ويناجيه ويثب حزنه ويشكو اليه ضره بلا
أي واسطة . فالمسلم هو قسيس نفسه وهو برهميها حين يعبد ربه متحررا
من قيود البراهمة والقيسين .

لقد بعث الله رسله وأنبياءه الى البشر بالهداية واصلاح المجتمع
الانساني ، ولكن الناس أفرطوا فيهم أو فرطوا . فمنهم من غلا في
تعظيمهم فرفعهم من منزلة الرسل والأنبياء والهداية الى منزلة الإله المعبود
أو الى منزلة شبيهة بذلك ، وانك لترى في هياكل الشام وبابل ومصر تماثيل
الكهنة والاحبار تمثل الله عز وجل وتتحل بعض صفاته ، وكذلك الهنادك
جعلوا الانبياء المبعوثين فيهم بالهداية والحكمة آلهة متجسدة ، وكذلك
فعل أتباع بوذا والجنيون بصلحاء ملتهم وهداة نحتهم فالتذوهم
أربابا ، وهذا ما فعله النصارى بنبيهم عيسى بن مريم سلام الله عليه
فالتذوهم رباً ودعوه ابن الله سبحانه وتعالى عما يقولون علواً كبيراً . ذلك
ما أفرط به الناس في حق الانبياء . وآخرون قصرُوا في حقهم وفرطوا ،
كما فعل بنو اسرائيل في كل من تكهن أو تحدث عن أمر المستقبل فجعلوه
نبيا . ولا يتوقف مقام النبوة عندهم الا على أن يتحدث أحد كهانهم في أمر
المستقبل ، أو أن يتوسم أمرا فيقع ، ولا يلزمه أن يكون ممن يتقي المآثم
فضلا عن أن يكون عند الله معصوما صالحا ، لاجل ذلك ترى في صحف
بني اسرائيل أمورا منسوبة الى الانبياء تنافي النبوة وهي بين أن تكون غير
صحيحة أو يكون من وقعت منهم غير أنبياء .

فلما ظهر الاسلام وصف مكانة الانبياء اللائقة بهم ، وعين منزلتهم
عند الله ، وأعلن أنهم عبيد الله وليسوا أشباهه ولا أنداد له ، وإن الله لا

يتجسم في صورهم ، وأنهم ليسوا أبناء الله ولا أقرباءه ، ان هم الا بشر بعثوا الى بشر . وأن جميع أنبياء الله كانوا من قديم الزمان بشرا لا غير . وكذلك قال محمد خاتم النبيين ﷺ « إنما أنا بشر مثلكم » فاستغوب الكفار ذلك وقالوا « أبعث الله بشراً رسولا » فقال الاسلام « قل إنما أنا بشر مثلكم » ، « هل كُنتُ الا بشراً رسولا » . وكل هذه آيات من كتاب الله الحكيم .

ان الانبياء مع قرب منزلتهم من الله وشرفهم وعلو مكانهم عنده ، لا يملكون من تدبير العالم شيئاً ، ولا يقدرّون على ما لا يقدر عليه انسان مثلهم وكل ما صدر عنهم مما عجز عنه الآخرون فيأذن الله وأمره . وقد وصفهم الاسلام بأنهم وإن كانوا بشرا كغيرهم من البشر الا أنهم أعلى منزلة وأسمى مكاناً من سائر الناس ، فهم يكلمون الله ويوحى اليهم وقد عصمهم الله من الذنوب وطهرهم من رجس الآثام ، فكانوا أعف كرام الاخلاق لتكون على أيديهم هداية المجرمين والأثمين من الناس ، وقد يجري الله آياته وبياناته على أيديهم ، ليقوموا بتعليم الناس الصلاح والرشاد وليزكروهم ويطهروهم ، فيجب لهم على الناس ان يكرمواهم ويعظمواهم ويعملوا بهدایتهم ، لأن الله ارسلهم هداة مصلحين وشرفهم برسالته ووحيه وكلامه .

هذا ما علمه الاسلام للناس من الاقتصاد والاعتدال في أمر الانبياء وفاء بحقوقهم بلا غلو ولا تقصير ، وهذا ما كان جديراً بالاسلام لانه جاء مكمل لتوحيد رب العالمين .

انخواني : لقد طال بنا الحديث ، ومضى هزيع من الليل وبقي شيء كثير مما أريد أن أقصه عليكم ، فلنختم هذا الحفل بالصلاة والسلام على رسول الله الأمين الذي ختم به تعليمه الاخير للناس الى يوم القيامة .

المحاضرة الثامنة

سيرة محمدية من الساجية العملية

اخواني : اليوم آخر اجتماعي بكم ، بعد أن استمر شهرا . ومحاضرة اليوم آخر المحاضرات الشان . وقد حاولت في المحاضرتين الماضيتين أن ألم بكل ما يتعلق بأصول الاسلام ، وما يرجع الى مبادئه وقواعده وسننه . ولكن أنى لي أن أوفي ذلك ؟ ومن ذا الذي يستطيع ان يجمع ضوء الشمس بيده ، أو يحصي نجوم السماء ؟

ان الاديان السالفة قبل الاسلام ، التي كانت دعوتها الى توحيد الله ، قد تطرق اليها الفساد في أمر التوحيد لوجوه ثلاثة : الاول التشبيه والتمثيل ، أي أنهم قد شبهوا الله بغيره من خلقه . والثاني أنهم جعلوا صفات منفصلة عنه ومستقلة . والثالث أنهم اغتروا بكثرة المظاهر في العالم ، وخذعوا بضروب من مصنوعات الله وآثار مقدوراته ، فلما من الله على الانسانية بالاسلام أزال به الاوهام وكشف خفايا الشبهات فانجلت عن البصائر غياهب التمثيل والتشبيه .

واليكم أولا أمر التمثيل : فان اهل الملل والنحل من غير الاسلام اختاروا طرقا واتخذوا وسائل لمعرفة ما لله عز وجل من الصفات الجلية ، والصلة التي بينه وبين خلقه ، فشبهوه جل جلاله بأجسام مختلفة ، ومثلوا صفاته في ضروب من الصور والاشكال ، فلما طال عليهم الامد بقيت هذه الصور الممثل بها وزال عن قلوب الناس اسم الله الذي لم يزل ولا يزال ، فصارت المشبه بها أوثانا وأصناما وتماثيل ، وطلق الناس يعبدونها

ويسجدون لها ظناً منهم بأنها مظاهر صفات الله ومشاهد قدرته ، وتفتنوا في تصور صفات الله بهذه التماثيل المنحوتة والأوثان المصنوعة . ومن ذا الذي يشك في أن الله يحب عباده ويرأف بهم ويحن عليهم ؟ لكن الجاهلين جعلوا لحب الله عبادة ، ولرأفته بهم تمثالاً من حجر أو غيره . والأمم الآرية اتخذت تمثال المرأة رمزا للحب الإلهي فأنها عندهم مظهر الحسان والأمومة وإلهة الحب والغرام ، فعبروا عن حب الله بنوع من العبادة ، وعن حنانه عليهم بحنان الأم على ولدها ، فانقلب الإله عندهم أما حنوناً ، ونحتوا له صورة أم حنون ، وأخذوا يعبدونها ويسجدون لها .

والطوائف الأخرى من الهنالك قد أظهرت هذا الحب الإلهي لعباده وحنانه عليهم بما بين الحليمة وزوجها من المودة والمحبة ، فاختار لقيف من الرجال زي النساء وهيتهن وتأنوا ونخشوا شكلاً وإخلاقاً ، على زعم أن الله يحبهم كما يحب الزوج حليته .

وكذلك ظهر الإله عند الروم والإغريق في صورة امرأة .

أما الأمم السامية فقد تمثل الإله عندها رجلاً وأباً ، إذ كان ذكر المرأة عندها على ملأ من الناس مخالفاً للآداب السامية . وكان الأب هو رأس الأسرة وأصلها ، ويدل عليه ما استخرج من بطون الأرض في بابل وآشور وديار الشام من تماثيل تصور الإله بصور الرجال . وكذلك بنو إسرائيل يظهر أنهم في بدء أمرهم كانوا يتصورون الله بصورة الأب ويحسبونه والداً ، ويحسبون الملائكة وسائر الناس أولاداً له ، ثم ضاق نطق تفكيرهم ، فلم يبق للاله أولاد عندهم سوى بني إسرائيل . ويوجد في بعض صحف بني إسرائيل ما يدل على أن الرابطة كانت بين الإله وبني إسرائيل كالرابطة التي تكون بين الزوج وحليته ، وأن بني إسرائيل وأورشليم حلائل والإله زوجهن (تعالى الله عما يقولون ويتصورون) .

وقد أخطأ المتسبون الى المسيح عليه السلام فجعلوا ما كان بادىء بدء استعارة كأنه حقيقة ثابتة . وانقلب تشبيه الإله بالآب لحنانه على نبيه عيسى عليه السلام ورافته به فاعتبروه حقيقة ، والإله الذي لم يلد ولم يولد اعتبروه والدا وعيسى ولده .

وشبيه بذلك ما نجده عند قدماء العرب من ظنهم بالله أنه أب والملائكة بنات له ، فلما بزغت شمس الاسلام انكشفت ظلمات انتشيه والتعميل كلها ، وانجلي قتام الشرك ، وأهمل استعمال جميع الكلمات التي تفضي الى الاشرار بالله ، منذ نادى رسول الاسلام ﷺ بهذه الحقيقة (ليس كمثله شيء) ، ثم نزلت سورة من قصار سور القرآن محت الأوهام الباطلة كلها والعقائد الفاسدة التي نسجها الناس حول وجود الله ، وهي قول الله عز وجل (قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ، اللَّهُ الصَّمَدُ ، لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ) فكان الاسلام بذلك طاهرا من دنس الشرك نقيا من كل شوائبه .

إخواني وخلائي . إياكم ان تظنوا ان الرسالة المحمدية نفت شيئا مما: لله عز وجل من عظيم الرأفة وواسع الرحمة بعباده ، أو أبطلت ما لله في عباده من حنان . إنها لم تفعل ذلك ، بل وثقت حبل الله الذي يسره لعباده وزادته قوة . وإنما أبطلت ما زاد على ذلك من أوهام تفضي الى تجسيم الله أو تمثيله بشيء من خلقه ، ومحت وسائل كاذبة تهر الى الاشرار بالله مما اتخذته الأمم السالفة فضلت به ، وأضلت . وفيما عدا ذلك فالاسلام أشاد بما بين الله وعباده من رابطة هي أشد وأقوى من كل ما يمت به المخلوقون بعضهم الى بعض من نسب ورحم وأصرة ودم ، فالإنسان الذي يعيش في طاعة الله أقرب الى الله من قرابة الولد لوالده وقرابة الزوجة من زوجها .

انظروا كيف أراد الله أن يعلم الصالحين من عباده بأنه يحبهم كما يحب الأب أولاده فأمرهم أن يذكروه كما يذكرون آباءهم أو أشد ذكراً . فهو عز وجل لم يشبه نفسه بالأب ، لكنه شبه حبه بحب الأب ، واجتنب ما يدل على القرابة الواشجة والرحم الماسة ، فأبقى من هذه العلاقة ما يدل على الحب ثم زاد الحث على أن يذكروه أشد وأكثر مما يذكرون آبائهم بقوله (أو أشد ذكراً) لأن الصلة بين العبد وخالقه أشد وأسى من جميع ما يمت به المرء الى أحد من ذوي قرابته ، فقال تعالى (والذين آمنوا أشد حبا لله) . والاسلام لا يسمي الله أبا للناس ، بل يدعوهم « رب العالمين » لأن الرب أعلى مكانا من الأب ، وإن الصلة بين الابن وأبيه عارض بفسى والصلة بين المربوب وربّه أثبت وأبقى لانها مستمرة من أول نشأة المخلوق الى أن تنتهي حياته بلا انقطاع ، فالله ودود رؤوف حنان يأكثر ممسا في الرجال من الود لأودائهم ، وما في الأب من الشفقة والراقة نحو بنيّه ، وما في الأم من الحنان على أولادها ، ومع ذلك فإنه سبحانه ليس بأب ولا أم ، وهو منزّه ومقدس عن كل شائبة من سوائب البشرية .

والامر الثاني الذي أفضى بالأديان القديمة الى فساد العقائد في معنى التوحيد : مسألة الصفات الإلهية . ومنشأ ذلك أن أتباع الأديان الأخرى قد فصلوا صفات الله عن ذاته ، وجعلوها مستقلة عنه . وبذلك تعددت الآلهة وكثرت في جميع الفرق الهندوكية من الدين البرهمي . لأنهم اتخذوا من كل صفة إلهية إله ، وجسموا تلك الصفة في صورة أو صاغوها في قالب ثم وسعوا نطاق الشرك وطبقوه على جميع ما شبهت به صفات الإله من مختلف التشابيه ومتنوع التماثيل ، وصاغوا هذه الصفات وما شبهت به في صور وتماثيل وأوثان ، وبعد أن كان الله إلها واحدا لا إله غيره صار لهم ثلاثون وثلاثمائة مليون من الآلهة . وتفصيل ذلك أنهم أرادوا أن يعبروا

عن قوة الله وقدرته . وظاهر أن اليد من مظاهر القوة والبطش ، فاحتوا
الله تعالى يدين قويتين من الحجر ، بل سولت لهم أنفسهم أن ينجسوا له
كثيرا من الأيدي . وحاولوا أن يعبروا عن حكمته البالغة فجعلوا له
رأسين ، واتخذوا له وثنا ذا رأسين . وإذا تأملنا نحل الهنادك الكثيرة العدد
بدا لنا أنها لم تكثر هذه الكثرة الهائلة ولم تفرق إلى فرق كثيرة ، إلا لأجل
تجسيمهم صفات الإله . فإن الله عندهم ثلاث صفات عظيمة : الخلق ،
والقيام على المخلوق ، والإمامة . وإن شئت فقل أن تعبّر عن هذه
الصفات بالمخالقية ، والقيومية ، والإمامية . وقد جعلت الفرق من
الهنادك هذه الصفات الثلاث أشخاصا مستبدين أطلقوا عليهم أسماء :
برهما ، ووشنو ، وشيو . فبرهما رمز للمخالق ، ووشنو هو القيوم ، وشيو
هو الميت . ونجمت عن ذلك ثلاث نحل : نحلة يعبد اتباعها برهما ،
ونحلة إلهها وشنو ، ونحلة معبودها شيو . وقد انفصل بعض هذه الفرق
عن بعض . وهناك فرقة منهم تعبد فروج الرجل والمرأة لأنهم تمثلوا بها
صفة الخلق وأرادوا أن يمثلوها بجسم كما فعلوا في الصفات الأخرى
فهذا هم سوء بصيرتهم إلى أن فروج الرجال والنساء من أكبر الأسباب
للخلق في هذا الكون فاتخذوا لها صورا وأوثانا وجعلوا يسجدون لها
ويتقربون إليها .

وفي النصرانية صفات إلهية ثلاث : الحياة ، والعلم ، والارادة ،
تمثلوها ذواتا سموها الأقانيم الثلاثة : فالأب رمز للحياة ، وروح القدس
رمز للعلم ، والإبن رمز للارادة .

ونجد مثل ذلك في عالم الأصنام عند قدماء المصريين والأغريق
والروم . وإن محمدا ﷺ بعث بتنفيذ آراء الأمم في صفات الله فأظهر خطأ
تلك المذاهب وفسادها ، وبين أن الله واحد ، وأن صفاته الكثيرة ليست

أشخاصاً منفصلة عنه ، وأن من جعل الله الواحد اثنين أو أكثر مغتترا
بتعدد أسمائه الحسنی وصفاته العلیا فقد ضلّ وغوى وحاد عن سواء
السبیل . فالقرآن أعلمنا بأن الله (رب العالمین) وأن (له المثل الأعلى)
وأنه (نور السماوات والأرض) . وكان نصارى العرب يدعون الخالق
بالرحمن لاتصافه بالرحمة ، أما عامة المشركين فكانوا يدعونه « الله » ونزل
القرآن تصديقا لها (قُلْ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ ، أَيَا مَا تَدْعُوا فَلَهُ
الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى) وفي سورة الشورى (فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَى
وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) وفيها أيضا (أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ) وفي
سورة الزخرف (وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ وَهُوَ الْحَكِيمُ
الْعَلِيمُ) وفي سورة الدخان (إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ . رَبَّ السَّمَاوَاتِ
وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ . لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ
وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأُولِينَ) أما برهما بمعنى الخالق ، ووشنو بمعنى القيوم ،
وشيو بمعنى المعبود فمللول الثلاثة كلها واحد هو الله الخالق القيوم
المعبود ، والموصوف لا يتعدد مهما كثرت صفاته (فَلِلَّهِ الْحَمْدُ ، رَبِّ
السَّمَاوَاتِ ، وَرَبِّ الْأَرْضِ ، رَبِّ الْعَالَمِينَ وَلَهُ الْكِتَابُ فِي
السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ؛ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) (الجاثية ٣٦ -
٣٧) . (هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ
الرَّحِيمُ . هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ
الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ . هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ
الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يَسْبِحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ
الْحَكِيمُ) (الحشر ٢٢ - ٢٤) .

فالله واحد وإن كثرت أَسْمَاؤه وتعددت صفاته ، وهذه الكثرة ليست
في ذاته بل في صفاته ، وإنما علمنا ذاته الواحدة الموصوفة بالصفات الكثيرة

بسبب رسالة محمد ﷺ . أما الأديان الأخرى فقد جعل اتباعها الله الواحد آلهة متعددة بتعدد صفاته ، فسبحان الله عما يشركون . وقد بين الإسلام وأحسن البيان بأن القدوس والخالق والمملك والمؤمن والنجيب والعزیز والمصور والرحمن والرحيم هو الله ليس غير .

والمشأ الثالث للشرك كثرة أفعال الله وتنوع شئونه . وحين رأوا أن الله تصدر عنه ضروب من الأعمال حسبوا أنها تصدر عن مصادر متعددة وأن لها فاعلين كثيرين ، فحملهم فساد رأيهم على أن جعلوا لكل عمل عاملا مستقلا فاعتقدوا أن الذي يحيي غير الذي يميت ، ومن يحب العباد غير الذي يبغضهم ، فاتخذوا لها للعلم ، ولها للثروة والرزق ، فتعدد الواحد بذلك وصارت الآلهة بعدد الأفعال . أما الإسلام فقد أخبر بأن الأفعال وإن كانت كثيرة فإن الفاعل هو الله الواحد العزيز المتعال .

إن جميع ما في الدنيا من الأعمال ينقسم إلى قسمين : الخير ، والشر . وقد عجب السليق زاعغت بصائرهم كيف أن الواحد يفعل فعلين متضادين ، فذهبوا إلى أن من يصدر عنه الخير لا يأتي منه ضده ، فبعد اتباع زردشت إليهم اثنين أحدهما للخير والآخر للشر ، وسموا مسدي الخير (يزدان) ومصدر الشر (أهرمن) وتصوروا أن هذا العالم ساحة حرب يعترك فيها هذان القرنان المتصارعان . وما حملهم على هذا الفساد في العقيدة إلا خطأهم في فهم الخير والشر .

والحق أنه ليس في الدنيا شيء يصح أن يطلق عليه اسم الشر . فالنار لا شك أنها تحرق ، ولكن الأحراق في نفسه لا يعد خيرا ولا يسمى شرا ، فإن أوقدتها لتنضج عليها غذاءك أو لتفتس منها قبا تصطي به من البرد فإن عملك هذا هو الذي يعد إحسانا ويطلق عليه اسم الخير . وإذا أضرمت النار لتحرق مأوى يأوي إليه فقير بأثس لم يرتكب ذنبا فإن

عملك. هذا هو الذي يعد سيئة وشرًا ، بينما النار نفسها ليست بنفسها خيراً محضاً لا شرفيه أو شرّاً محضاً لا خير فيه ، وأنت الذي جعلتها بعملك خيراً أو شرّاً . والسيف القاطع لا يعد خيراً ولا شرّاً ، بل أنت الذي تتخذ منه ذريعة للخير أو الشر . والظلام لا يعد شرّاً لكنك ان تسترت به في جوف الليل لترتكب فيه السوء فالشر هو عملك لا الظلام . وان تواريت فيه لتعمل صالحاً أو أويت فيه الى الراحة والدعة فهو خير .

وقد خلق الله الارض والسماء وجعل بينهما اشياء : الريح والسحاب والماء والنار والطين ، وخلق منهن اشياء وخص كل شيء بخصيصه ، وبث فيه قوة تناسبه ، ثم خلق الانسان ووهبه الحكمة البالغة والبصيرة النافذة والاراء السديدة ، فنظر هذا المخلوق في السكون وتأمل حسن تقويمه وعجيب تنسيقه وبديع نظامه ، فملكه الاعجاب به وملاً نفسه الاستغراب منه ، فلم يتمالك أن انطلق لسانه قائلاً (فتبارك الله أحسن الخالقين) ثم نادى في خشوع وخضوع لرب العالمين (إني وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين) كما فعل ابراهيم خليل الله . وبجانب هذه الطائفة من البشر طوائف أخرى لم يكن لهم من بليغ الحكمة وسداد الرأي وثاقب الفكر ما ينقذهم من جحود الله والكفر به ، فالتبست عليهم حقائق العالم ، واشتبهت لهم خواص الاشياء والقوى المودعة فيها ، فجعلوا المادة علة العالم وسبب خلقه وقالوا (ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر) .

إن العالم لا يضل ولا يغوي ، ولا يرشد ولا يهدي ولكن الانسان هو الذي يهتدي بسليم فطرته وسديد رأيه وسلامة قلبه ، أو يضل بسوء تفكيره ويخطئ رأيه وقبح تأمله . وان شئت قلت : ان العالم يهدي من يهتدي به ويضل من يضل به . وما أنزل الله من كتبه - التوراة والانجيل

والقرآن - يهدي الذين يحسنون تدبره وتلاوته فتطمئن قلوبهم الى ما فيه من حق ويؤمنون به ، وآخرون يتلون ما أنزل الله من حق فيزدادون ريبا به ولا تسكن نفوسهم اليه فيجحدون ويكفرون ، مع أن الكلام واحد ، إلا أن تأثيره في القلوب مختلف : فيخرج هذا منه مؤمنا به ، ويخرج ذاك منه كافرا به ، وكلاهما من خلق الله الواحد . والذي يستنتج من كثرة الأفعال وتعددتها واختلافها كثرة الفاعلين فقد أخطأ ، وأن بيد الله تعالى الخير والشر والهداية والضلال ، وكل ما ترى في الكون وفي الناس من ضروب العجائب وأنواع الغرائب فهي من بديع السماوات والأرض وجميل صنعه وعظيم قدرته ، فهو الذي لا إله إلا هو وحده لا شريك له (يُضِلُّ به كثيراً ويهدي به كثيراً وما يضل به إلا الفاسقين . الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض أولئك هم الخاسرون) (البقرة ٢٦ - ٢٧) . (والله لا يهدي القوم الكافرين) .

فهذه الآيات تدل على أن الضلال والهدى يرجعان إليه عز وجل ، لكن الإنسان هو الذي يختار بادية ذي بدء ما يفضي به الى الضلال أو الهدى ، فمن فسق عن أمر ربه أو قطع الرحم وفسد في الأرض وكفر ، جاءه من الله الضلال ، والضلال لا يتقدم الفسق والقطيعة والافساد في الأرض بل هو يعقب هذه الخلال ويتلوها .

إن الله عز وجل خلق بني آدم ودلهم على الخير والشر وبصرهم بالحسن والسيئ ، ثم أمرهم بالخير ونهاهم عن الشر وهداهم الطريق المستقيم ، وحذرهم سوء العقبي اذا عصوه (إنا هديناه السبيل إما شاكرا وإما كفورا) وهو الذي قد خلق كل شيء خيره وشره (ذلكم الله ربكم خالق كل شيء لا إله إلا هو) (سورة غافر) . (والله خلقكم وما

تَعْمَلُونَ (الصافات) ثم يَنْ لَمْ الْخَيْرِ مِنَ الشَّرِّ وَالْحَسَنَ مِنَ السَّيِّئِ
(اَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى) (طه ٥٠) .

وبما تقدم تعلمون أنه لا يوجد في الدنيا خير لذاته ولا شر لذاته ، وإنما
يكون الأمر خيراً أو شراً باختيار الإنسان وبعمله ، فإذا سلك الصراط
المستقيم كان بذلك راشداً واهتدى ، وإذا سدر في الفساد والغى وآثرت
بنيات الطريق على الطريق المستقيم ضلّ وغوى . وإذا صحّ اختياره لما
ينفع ويسعد أصاب الخير وأتى بالحسن ، وإذا ارتكب الشطط في اختياره ما
يضر أصاب الشر وكان من المخطئين ، والذي يظن أن للكون إلهين اثنين
لأن في الكون خيراً وفيه شراً فقد زاغت بصيرته وأخطأ الحقيقة (إنما إلهُكُمْ
إِلَهُ وَاحِدٌ) والله وحده خالق كل شيء (هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ
السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَى تَوْفُكُونَ) (فاطر ٣) . والله قد بلغ
رسالاته وأحكامه بالسنة أنبيائه ومرسله ، فمن شاء فليؤمن ومن شاء
فليكفر (ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ
وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ إِذْنُ اللَّهِ) (فاطر ٣٢) ، (وما
أصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ) (الشورى
٣٠) ، (فَاَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ، قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَنْ
دَسَّاهَا) (الشمس) .

ما من دين خلا من العبادة لله ، لكن الأديان القديمة حسب أتباعها أن
الدين يطلبهم بإيذاء أجسامهم وتعذيبها ، وأن الغرض من العبادة إدخال
الآل على الجوارح ، وأن الجسم إذا ازدادت آلامه كان في ذلك طهارة
للروح ونزاهة للنفس .

وعن هذه العقيدة نشأ التبتل عند الهنداك والرهبانة عند النصارى ،

وابتدعوا من رياضات الجسم أنواعا عجبية أشدها على الجسم أفضلها
 عندهم وأقربها إلى الله في زعمهم : فمنهم من آلى على نفسه ألا يغتسل
 طول حياته ، ومنهم من لا يلبس إلا المسوح والثياب الخشنة ، وبعضهم
 آلى على نفسه أن يعيش عريان إلا من خرقه يستتر بها ماضيا على ذلك مهما
 أثرت فيه حمارة القيظ أو زمهرير الشتاء ، ومنهم من لزم كهفا فلا يبرحه
 أبدا ، وبعضهم اختار لنفسه أن يبقى واقفا في حر الشمس طول حياته ،
 ومنهم من يحلف ألا يقتات إلا بورق الشجر ، ومنهم من بقي ضرورة
 حصورا لا يتزوج ، ومنهم من يعد العبادة والقربة إلى الله منع التناسل ،
 وفيهم من يرفع إحدى يديه في الهواء ويبقى كذلك طول عمره حتى تبيس
 يده وتجعف ، وكان بعضهم يحبس نفسه ما استطاع وهو يحسب أن ذلك من
 العبادة ، ولا يزال في الهند من يتعلق بشجرة متكسا رأسه إلى تحت . وهذا
 كله وأمثاله مما كان عليه اتباع الأديان قبل مبعث محمد ﷺ فثانين أن
 أعمالهم هذه من أقرب الوسائل إلى الله ومن أفضل ما تزكى به النفوس
 وتطهر به الأرواح ، فأنقذ الله عز وجل الإنسانية من هذا العذاب الاليم
 والاذى الشديد بالرسالة المحمدية الكاملة ، وأرشدتهم إلى أن ما يحسبونه
 عبادة من هذا السخف والشر إنما هو من الملاهي التي يتعلل بها من زاغ
 بصره والتوى عليه الرأي فظن في الله غير الحق ، وقد أعلنت الرسالة
 المحمدية للناس هذه الحقيقة : « إِنْ اللَّهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى صُورِكُمْ ، بَلْ يَنْظُرُ
 إِلَى الْقُلُوبِ » التي في الصدور ، وما يفعل الله بتعذيبكم لأجسادكم
 وجوارحكم (لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا) وجعل الرهبانية بدعة من
 عند الناس لا من عند الله (وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ)
 (الحديد ٢٧) . وفي الحديث النبوي « لا ضرورة في الإسلام » وأنكر على
 الذين حرّموا على أنفسهم طيبات الدنيا فقال عز وجل (قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ
 اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ) (الاعراف ٣٢) ، وقد

أنكر الله على رسوله حين حرم على نفسه العسل فقال (يا أيها النبي لِمَ تَحْرِمُ ما أحلَّ الله لك) (التحريم) ، والرسالة المحمدية علمت الناس لأول مرة أن حكمة العبادة اقرار العبد لربه بأنه عبده ومطيع لأوامره (إن الذين يَسْتَكْبِرُونَ عن عبادتي سيَدْخُلُونَ جهنم ذائِرين) (غافر ٦٠) فالدين الاسلامي يعلم المسلمين خاصة وغيرهم عامة أن الله يريد منهم أن يؤمنوا به ولا يشركوا به شيئاً ، وأن يطيعوا أوامره ولا يستكبروا عليه ، فلا جرم أن تظهر طاعتهم له في صور وأساليب متعددة من العبادة . وغاية العبادة في الاسلام اعتياد التقوى والتمرن عليها (يا أيها الناس اعبُدُوا رَبَّكُم الذي خَلَقَكُمْ والذين مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ) . وثمرة الصلاة في الاسلام الكف عن الفحشاء والمنكر (إن الصلاة تُنهي عن الفحشاء والمنكر) . أما الصوم فمن الوسائل الى نيل التقوى (يا أيها الذين آمنوا كُتِبَ عليكم الصيام كما كُتِبَ على الذين مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ) (البقرة ١٨٣) . وأما الحج فمن حكمته أنه (ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله في أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الانعام) . والزكاة تزكي القلوب وتنزع منها رذيلة البخل وتسد حاجات الفقراء وتقضي ضرورات البائسين لانها تؤخذ من أغنياء الامة وترد على فقرائها. وقال الله عز وجل (الذي يُؤتي ماله يَتَزَكَّى . وما لأحد عنده من نعمة تجزى إلا ابتغاء وجوهه الأعلى) . ومن الدين عند المسلمين النكاح والزواج وقد قال لهم نبيهم « النكاح من سنتي ومن يرغب عن سنتي فليس مني » وعدّ القرآن الكريم أولاد الانسان وأزواجه قُرّة أعين له ، وأرشدهم الى أن يسألوا الله ذلك (والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قُرّة أعين) .

وكان قتل المرء نفسه مما يتقرب به الاقدمون الى الالهة ، فكانوا يندرون لاهتهم قرايين بشرية تذبح كالأضاحي استرضاء للالهة ، فاذا سفكت

دماء البشر لهذا الغرض نشرت دملقوهم على الاوثان ، وربما أحرقت لحوم الاضاحي وجمرت بها الاصنام وبخرت بدخانها ، ولأجل ذلك كان اليهود يحرقون لحوم الاضاحي . أما الاسلام فقد بين رسوله الكريم الغرض من الاضاحي وحرم ذبح الانسان وتقديمه قربانا وأحل التضحية البهائم الا أنه نهى أن يرش دم الاضاحي أو تحرق لحومها . وقد ذكر الله عز وجل ما في التضحية من منافع للعباد بقوله (وَالْبُذْنُ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ ، لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ ، فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَاطْعَمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ ، كَذَلِكَ سَخَرْنَاهَا لَكُمْ ، لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ، لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومُهَا وَلَا دِمَافُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ كَذَلِكَ سَخَرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَيَشْرَ الْمُحْسِنِينَ) (الحج ٣٧) أما العقيدة الفاسدة في التضحية فقد حملت الناس على أن يحسبوا أنهم يملكون حياتهم في التضحية فقد حملت أولادهم على حياتهم ، وزعموا أنهم يملكون أزواجهم ، حياتهم وموتهم . وهذه العقيدة الفاسدة قد جرّت شرا عظيما وفسادا كبيرا في الحياة الاجتماعية . فأباحوا لانفسهم الانتحار وقتل الاولاد وواد البنات وذبح الابناء على النصب والاولثان ، وانتحار الخلائق أو احراقهن أنفسهن بعد موت أزواجهن ، وغير ذلك من المفاسد التي محاهها الاسلام واجتثها من اصولها منذ أذن في الناس أن النفوس لله هو الذي يملكها ولا يملكها أحد غيره ، ولا تقتل نفس الا بحق الله . لذلك لا يحل في الاسلام أكل لحم ذبيحة لم يذكر اسم الله عند ذبحها . والذي يتحرران الجنة محرمة عليه . أما في أوربا المتحضرة وأمريكا المتعدنة فان الانتحار لا يزال أفضل وسائل النجاة من مضائق الحياة وآلامها ، والدول تحاول عبثا أن تأخذ على أيدي المتحررين فنذهب مساعي الحكام والولاة أدراج الرياح ، لأن الناس

يزعمون أنهم يملكون أنفسهم فلهم أن يتصرفوا فيها كما يشاءون ،
والانتحار عندهم أفضل وسائل النجاة من آلام الدنيا ، ولا يرون أن بعد
هذه الحياة حياة يؤخذون فيها على الانتحار . وحتى لو أيقنوا أنهم
يعثون بعد مماتهم وينشرون تارة أخرى ، فانهم يستبعدون أن يحاسبوا
على انتحارهم وقتلهم أنفسهم . أما الاسلام فقد شدد في أمر الانتحار
وعنه جريمة عظيمة وحذر عاقبه وعلمهم أن هذه الوسيلة الذميمة لا
يركن اليها في الخلاص من آلام الحياة وشدائدها ، وأن من انتحر فقد أقدم
على ما ليس له به من حق ، لأن الحياة والموت من أمر الله ، ومن تجاوز أمر
الله استحق سخطه وغضبه وسيحل به عذاب الله في الحياة الاخرى وهو
أشد وأبقى من آلام الدنيا التي أراد المنتحر أن يخلص منها (ولا تقتلوا
النفس التي حرم الله إلا بالحق) ، (ولا تقتلوا أنفسكم ، إن الله كان يَكُفُّم
رَحِيماً ، وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ عُذْوَانًا وظلماً فسوف نُصْلِيهِ ناراً) .

كان قتل البنات ورأدهن قاشيا بين العرب ، وبين الراجبوت من أهل
الهند ، وفي كثير من الممالك . فلما ظهر الاسلام أنكر ذلك ونهى (وإذا
الموءودة سُئِلَتْ : بأيّ ذنب قتلت) . وقتل الاولاد لم يكن جريمة عند
العرب ، ولا يزال هذا المنكر باقيا في الامم المتمدة : يدفعهم الى ذلك
خشية الاملاق وضيق النفقة ، وربما يسررون ذلك بأن غلال البلاد
وحاصلاتها لا تسد حاجات العمران البشري فيقتلون اولادهم دفعاً
للأزمات الاقتصادية عن البلاد . والعرب وغيرهم لم يكونوا يرون تبعه
على من أجهضت حملها وقتلت ولدها . وكان الأغريق يتبعون كل مولود
يولد في بلادهم فيقتلون منهم الضعفاء ، والمخدجين وناقصي الخلق .
وقد يقدفونهم من قلل الجبال ، ويستحيون منهم الاقوياء وتامي الخلق .
وتحديد النسل Birth Control بجميع طرقه المعروفة في هذه الايام ليس

إلا ضرباً من ضروب قتل الأولاد وواد البنات ، وقد نادى الاسلام في الناس أنه ما من أحد يرزق أحداً وإنما الرزاق هو الله المتكفل بحاجات خلقه ، قال تعالى (وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها) وقال : (ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم ، إن قتلهم كان خطئاً كبيراً) .

ومن أكبر الجرائم التي اقترفتها الأمم ولا تزال باقية في بلاد لم تبلغها دعوة الاسلام ولم تشرق أنواره في أرضها ، أنهم جعلوا ثراء المال ونقاء الدم وشرف النسب وكرم المحتد ولون البشرة أساس الكرامة ورأس ما يتفاضلون به ويتفاخرون . وقد جعلوا لشراء المال ونقاء الدم وبياض اللون أصولاً يرجعون إليها في هذا التفاضل بين أفراد الأمة وبين الطوائف من الأمم ، وسنوا لذلك من القوانين والآداب في المعاشرة والمجتمع ما يلزم أهواءهم ومذاهبهم في النسب . أما الهند فقد عدّ الهنادك من أهلها كل من خرج عنهم من الأمم والناس أنجاساً منكيداً ، فإن لمسهم لابس من غيرهم أو صافحهم أو مس أجسامهم رأوا أنهم قد تنجسوا ووجب عليهم أن يغتسلوا لأن من سواهم رجس يجب أن يتطهروا منه . وقسم الهنادك أنفسهم أقساماً ووزعوا بين هذه الأقسام حظوظاً متفاوتة من الشرف فرفعوا بعضهم على بعض درجات لا في الفضائل والأخلاق بل في أمور المعيشة وشئون الحياة وأحكام الحكومة . فالشودر (وهم الطبقة السفلى منهم) يعدون أنجاساً وعبيداً وخداماً ، وهم أصحاب المهن الحقيرة ، ويرون أنهم لا حظ لهم من الدين أيضاً . وكذلك قدماء الفرس تفرقوا إلى أربع طوائف . وهكذا فعل أهل أوربا فخصوا أنفسهم بأمر الحكومة والسلطان على الأمم ولم يتركوا لمن سواهم إلا أن يستعبدوا ويخضعوا لحكمهم . وبنو إسرائيل عدوا أنفسهم أبناء الله (تعالى الله عما يقولون)

ومن سواهم من الالم اذلة صاغرين . ثم فرقوا بين بني إسرائيل أنفسهم فانزلوا طوائفهم منازل مختلفة وجعلوا بعضهم فوق بعض . وهذه أوربا الراقية التي تدعي دعاوى عريضة في الاخاء والمساواة والمدنية ، السنس نرى أن الرجل الابيض قد اثقل كاهله بأعباء الحكم في العالم ويرى أن غير الأوربي لا يستاهل السيادة والحكم ، فالابيض المثقف هو الذي اختص بالحضارة والاستعلاء ، أما السود (وكل من عداهم يعدونه من السود) فانهم لا يعدلونهم ولا يساومونهم ، بل إن بعض البيض يربأون بأنفسهم أن يركبوا في اسفارهم مع الآسيوي في عربة واحدة من القطار ، وترفعوا عن مجالسته ومساكنته ، وقد عزلوا الجنس الاسود Negro في افريقية الجنوبية وأمريكا المتحضرة فبنوا لهم احياء منعزلة عن البيض لانهم لا حق لهم بأن يجاوروا البيض . فالأمريكيون الذين يدعون العدالة التامة والاخاء العظيم يعاملون السود من سكان أمريكا نفسها اسوأ معاملة ويضيقون عليهم حياتهم كأنهم ليسوا من البشر او من خلق الله . وفي جنوبي افريقية وشرقها ليس للسود ولا للهنود ولا للآسيويين عامة من الحقوق المدنية والانسانية مثل ما للإنسان في بلاد أخرى . ولم يقصروا جورهم هذا على الامور الدينية فبنوا الكنائس للبيض خاصة وجعلوها بمعزل عن السود فلا يأذنون للسود بدخول تلك الكنائس . وإن الابيض يشمخ بأنفه ويربأ بنفسه ان يدخل كنيسة يغشاها السود أو الآسيويون والافريقيون ، فليس للأسود أن يركع لله مع الغربي الابيض ابداً .

أما الإسلام فقد عما هذه الفسواق والعصبيات الذميمة كلها ، وأنكر ان يكون التفاضل باللون والدم والنسب^(١) وسوى بين بني

(١) تذكر القارىء بأن الاستاذ المؤلف سيد شريف من القرية المحمدية (الناشر)

آدم كلهم ، وهدم كل ما كان يحول بين المرء وأخيه من ثراء المال ونقاء الدم ولون البشرة والجلد العريض والنسب الاصيل والمجد الاثيل . وكانت قريش تعتز بأبائها وتباهي بأنسابها ، فخطبهم النبي ﷺ يوم وقف فيهم خطيباً في فناء المسجد الحرام يوم فتح مكة فقال لهم : « يا معشر قريش ، إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء . الناس من آدم وآدم من تراب » (ابن هشام) . ثم أعلن الرسول ﷺ في جمع عظيم وحفل حافل يوم حجة الوداع أن لا فضل لعربي على عجمي ولا لعجمي على عربي إلا بالتقوى . كلكم أبناء آدم وآدم من تراب . فملك الشرف والمجد والتقوى ، والعمل هو الذي يرفع صاحبه أو يضعه . وإن الله قد أذهب عصبية الجاهلية وفخرها بالآباء ، فالمرء إما مؤمن تقى أو فاجر شقي (خطبة الوداع في جامع الترمذي وسنن أبي داود) وقد خاطب الرسول فيها عامة الناس بلسان الوحي : (يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ، إن إكرامكم عند الله اتقاكم) وقال سبحانه (وما أموالكم ولا أولادكم بالتي تقربكم عندنا زلفى ، إلا من آمن وعمل صالحاً فاولئك لهم جزاء الضعف بما عملوا) ثم آخى بين المسلمين وجعلهم إخوة فقال عز من قائل (إنما المؤمنون إخوة) وقد نادى الرسول يوم حجة الوداع في جمع من المسلمين عظيم يبلغ عددهم مائة ألف أو يزيدون : « المسلم أخو المسلم » . فهذه المساواة والمواخاة قد محت الفوارق بين الهندي والافغاني والصيني والتسركي والابراسي والاندنوسي والعربي ، وبين الشرقي والغربي ، بل ذهبنا بكل ما يفرق بين الاسود والابيض من فوارق الجنسية واللون والدم ، وأعلن الله إحسانه اليهم بقوله (فأصبحتم بنعمته إخواناً) .

إن ابواب بيوت الله مفتوحة في الاسلام لكل مسلم بلا تفریق بينهم في

المهين والاجناس والمراتب الاجتماعية ، لانهم لا يتفاضلون بالشراء ولا يتفاوتون في الآباء واختلاف المحتد . وليس في الاسلام نظام طبقات كما بين البراهمة والشودر (المنبوذين) . فلكل مسلم ان يتلو كتاب الله ، وان يؤم الناس في الصلاة ، من أي بيت كان ومن أي قوم كان . والتزواج مطلق بين طوائف المسلمين واجناسهم ، وباب العلم مفتوح لكل داخل ، بل هو نهج مقسم بين الجميع ، والناس سواء في الحقوق ، وفي احكام القصاص : الدم بالدم ، والنفس بالنفس .

إخواني الاعزاء . كان بودي أن أذكر عن رسالة محمد ﷺ كل ما أحسنت به الى الانسانية ، وأن أعدد أفضالها ونعمها على جميع طبقات البشر ، ولكن وقتنا لم يسمح بذلك ، ومثل هذا الموضوع العظيم يحتاج الى وقت أطول وأوسع من الوقت الذي تحدثت إليكم فيه . ومما كنت أحب أن أبسطه لكم فضل الرسالة المحمدية على الرقيق والمستعبدين في الأرض من بني البشر ، والحقوق الممنوحة لهم في الاسلام ، والمستوى الذي رفعهم الاسلام اليه لأول مرة .

وكننت أحسب أن ألم بما للرسالة المحمدية من جميل نحو النساء ، وما حفظت من حقوقهن وما رعت من كرامتهن .

كان بودي أن أفصل لكم جميع هذا وكثيرا غيره تفصيلا تبيّنوا منه أن أوربا التي تدعي التقدم الفكري لا تزال وراء الاسلام بمسافات طويلة ، ولن تضارعه فيما قدم للانسانية من رعاية وما أسدى اليها من حقوق .

إن من أعظم الجرائم التي عم بها الضلال وطم ، الدعوة الى التفريق بين الدين والدنيا ، حتى صار يقال : هذا من حكم السلطان ، وهذا من حكم الرحمن . وحتى صاروا يميزون بين ما يكسبون به الدنيا ، وما

يُحْسِبُونَ بِهِ الدِّينَ . وقد أفردوا لكل واحد منها طريقاً غير طريق الآخر . والرسالة المحمدية هي التي كشفت الستار عن وجه الحقيقة في ذلك فأعلنت في أعمال الدنيا التي يراد بها وجه الله والفوز في الآجلة إنما أرجاء الدنيا ما بين أمور الدين وأمور الدنيا من التلازم ، وإن هي من صميم الدين ، ومن السدين أن يقوم الناس بأمر الدنيا - من تجارة ، وزراعة ، وصناعة ، وحرفة ، وخدمة - بالطريقة السليمة التي هدى إليها الدين وأرشدت إليها تعاليمه . ومن أعظم الخطأ أن يحسب الناس أن الدين منحصر في العبادة من صلاة وصوم . وفي الفرار من الناس واعتزالهم في مغارة أو جبل للعبادة ، بزعم أن اشتغال المرء بأمر نفسه وشئون أولاده وعياله والمشاركة في مصالح أمته وبلاده وأحبابه وخلانته هو من أمور الدنيا لا من أمور الدين . كلا ، بل إن هذه العقيدة قد أعلن رسول الإسلام ﷺ فسادها وأبدى عوارها بدعوته وبلاغه من جهة ، وبحياته المثل من جهة أخرى . وقد بين بقوله وعمله أن أمور الدنيا التي تؤدي بالطريق الذي هدى إليه الدين تعد من الدين ويشيب الله عليها كما يشيب على العبادات وغيرها مما هو من صميم الدين .

ألا إن ملاك النجاة للإنسان في الإسلام الإيمان والعمل الصالح . أما الإيمان فهو الايقان بالله وحده ، والايقان بأن رسوله إنما بعثوا لهداية البشر ودلائهم على طريق الله ، والايقان بالملائكة الذين هم رسل الله بينه وبين من أرسل إليهم من البشر ، وبالكاتب التي أنزلت على الرسل وفيها أحكام الله من الأوامر والنواهي ، والايقان بأن الله يحاسب الإنسان على أعماله ويميزه خيراً عما يعمل من خير أو شراً عما يصدر عنه من شر . فهذه الخمسة هي أساس الإيمان وملاكه ، والإيمان أساس العمل ، ومن لا إيمان له لا ينتظر منه الإخلاص فيما يصدر عنه من عمل .

والمراد بالعمل أن تكون تصرفات الإنسان صالحة . وللأعمال ثلاثة ضروب كما ذكرت في المحاضرة السابقة من هذا الكتاب^(١) : الضرب الأول (العبادات) ، وهي عبارة عن تعظيم الإنسان لإلهه الذي خلقه ، وعن خشوعه له وخضوعه لأوامره وإظهار افتقاره له . الضرب الثاني (المعاملات) وهي ما يتعاطاه الناس فيما بينهم لتبادل مصالحهم واستعمال مرافقهم ، ومنها أحكام الدولة وقوانينها التي يراعيها الإنسان ويتقيد بها ليسود الأمن ويعم السلام في البلاد . فلا يقع فيها الفساد والفوضى التي تنتهي إلى المرح والمرج والهلاك والدمار . والضرب الثالث (الأخلاق) وهي القيود التي توجب الآداب التقيد بها وإن لم تفرض على الناس بالتشريع وأحكامه القانونية ، وبتابعها تظهر القلوب وتزكو النفوس ويرتفع مستوى المجتمع البشري ويتقدم في إنسانيته : وهذه الأربعة - الإيمان ، والعبادات ، والمعاملات ، والأخلاق - هي التي تهدي للمجتمع أسباب النجاة .

سادتي وإخواني ، ساعوني إذا قلت لكم أن التبتل في الدنيا والعزلة عن المجتمع وحب الخلوة عن الناس ولولذكر الله ليست مما يجتبه الإسلام ويدعو إليه . والإسلام نشاط دائم وجهاد طويل ، لذلك تراه يبحث المسلمين على أن يكونوا دائما في عمل وسعي ونشاط ، وذلك ينافي السكون الدائم والانصراف عن الحركة والعمل (وأن ليس للإنسان إلا ما سعى) ، (كل نفس بما كسبت رهينة) فالعزلة عن الناس ليست من الإسلام ، بل من الإسلام الأقدام في معترك الحياة واقتحام حلبة الحركة والزحام لنشر دعوة الحق والخير واصلاح البشر . وبين أيديكم التماسي برسول الله ﷺ وما كان عليه أصحابه ، فإذا عملتم كما عملوا وجاهدتم

كما جاهدوا وثابروا على إقامة الحق كما ثابروا كنتم مسلمين حقا كما كانوا
وكتب الله لكم مثل الذي كتب لهم من الفلاح في الدنيا والنجاة في
الآخرة .

إن محمداً ﷺ لم يدع إلى مثل ما دعا إليه (بوذا) من هجر الدنيا
ومعارضة الفطرة بقمع الشهوات ومحاولة انتزاعها من النفوس ، بل دعا
إلى تعديلها وتسكين ثورتها والجد من شططها والاسراف فيها .

ولم يدع إلى مثل ما يقال عن دعوة المسيح من احتقار الثروة والقوة ،
بل دعا إلى تحريي الطرق الصالحة في الحصول عليهما وفي حسن
استعمالهما .

إما الاسلام إيمان بالحق وعمل به ، ولذلك تفاصيل وفروع ومساح
متنوعة وجهاد عظيم وكفاح متواصل . فترك العمل عكس ما جاء به
الاسلام ، والدين الذي يأمر بالفرائض لا يعقل أن يرضى بالإعراض
عنها . وإن شتمت تفاصيل ذلك فاقرأوا سيرة الرسول وأدرسوا تراجم
أصحابه . أليس الله عز وجل قد وصف نبيه ﷺ بقوله : (مُحَمَّدٌ رَسُولُ
اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكْعًا سَجْدًا يَبْتَغُونَ
فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا) .

كان في جهاد عظيم وكفاح مستمر ، وما برح طوّل حياته الشريفة
مختلطا بالناس متحدثا إلى أصحابه يحالّسهم ويساكنهم ويواكلهم
ويشاربهم ويلقاهم بوجه طلق وقلب نقي سليم متعلق بالله وبما يرضى به
الله ، وقد تراه راكعا ساجدا لله ، كما قد تراه ساعيا يبتغي الفضل من الله
ويكسب رزقه بعمله مع تعلق قلبه بربه لا يلهمه عن ذلك شيء (رِجَالٌ لَا
تُلْهِهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ) فهو إذا ذكر الله لا يحمله ذلك على ترك

الدنيا والعمل فيها وهجر أهله وعياله ، وإذا قام بعمل الدنيا لا ينقطع مع ذلك عن ذكر الله بقلبه وتحري مرضاته في كل ما يعمله .

ألم يأتكم نبي المسلمين وهم يقاتلون الروم في بلاد الشام ؟ إن العدو أرسل عيوناً يتجسسون له أحوال المسلمين في معسكرهم ولما عادوا إلى قائدهم قالوا : لقد رأينا عجبا ، إنهم بالليل رهبان ، وفي النهار فرسان . إخواني . اليوم آخر عهدي بكم في هذه المحاضرات . وكنت أحسبني قادرا على أن أصف لكم رسول الإسلام ورسالته وصفا كاملا ، وإني سأوفيهما حقهما مبينا سيرة الرسول الطاهرة ومناحيها المختلفة في هذه المحاضرات الثمان . وما هي ذي المحاضرة الثامنة قد انتهت وفرغت الآن من القائها ، ولكن الرسالة المحمدية قد بقيت منها نواح لم أوفها حقها من البيان .

اللهم صل على محمد وآله وصحبه وسلم
وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

فهرس تحليلي

<u>الصفحة</u>	<u>الموضوع</u>
٥	ترجمة حياة المؤلف للسيد مسعود الندوي رحمها الله تعالى . .
١٥	مقدمة المؤلف
١٧	المحاضرة الاولى : في أن سيرة الانبياء هي الاسوة الحسنة للبشر
	خصائص النبات أكثر من خصائص الجهاد فواجباته أكثر ،
	وخصائص الحيوان أكثر من خصائص النبات فواجباته أكثر ،
	ومدارك الانسان أرقى فواجباته اعظم
	مسئولية الانسان بقدر مواهبه
	حكمة ارسال الله الرسل للبشر
	الفرق بين دعوة الرسل ودعاوى غيرهم
	خلود دعوة الرسل واضمحلال دعاوى غيرهم
	ما من طائفة من الناس أصلحت فساد المجتمع الا الانبياء . .
	ان الهداية والدعوة لا تثمر ولا تبقى الا بالقُدوة والاسوة . . .
٣٩	المحاضرة الثانية : في أن السيرة المحمدية هي العامة الخالدة .
	امتياز محمد ﷺ بأنه كان شاهدا ومبشرا ونذيرا
	السيرة المحمدية هي السيرة التاريخية
	سيرة متبوعي الهنادك ليست تاريخية
	سيرة زردشت وبوذا ليست تاريخية
	الذي نعلمه عن كونفوشيوس اقل من الذي نعلمه عن بوذا .

شكوك العلماء المحققين في كثير من سير انبياء اسرائيل
الكلام على الاناجيل من ناحية التاريخ
ليس في اصحاب الدعوات من يمكن التأسي به الا محمد ﷺ . .
ما يمكن معرفته من أسفار التوراة عن موسى
شئون حياة المسيح انخفى من غيره وأغمض
يشترط الكمال والتمام والجمع في سيرة من يقتدى به ، ولا يتوفر
هذا الا في السيرة المحمدية ، وبيان البراهين على ذلك
الحياة المثالية هي التي يبدأ صاحب دعوتها بنفسه فيعمل بما
يدعو اليه
الحسنات السلبية والحسنات الايجابية
اشتراط ان تكون سيرة المتبوع تاريخية ، وجامعة ، وكاملة ،
وعملية

المحاضرة الثالثة : السيرة المحمدية من الناحية التاريخية . . . ٢١
امتياز الاسلام بحفظ السيرة النبوية وتراجم الصحابة والتابعين
والائمة المتبوعين
عناية الصحابة بحفظ الحديث النبوي وعناية التابعين بتراجم
الصحابة
الكلام على التابعين ، وأسائرتهم من الصحابة
المستشرقون وتشكيكهم في رواية الحديث ، والكلام على الحفظ
والكتابة
كتابة الحديث في العهد النبوي
التابعون الذين دونوا الحديث تبدأ ولادتهم من سنة ١١ . . .
جمع الحديث له ثلاثة اطوار
علم نقد الحديث من جهة الدراية والفهم

ستة مصادر لسيرة النبي ﷺ وهديه
 كتب السيرة المحمدية تعد بالآلاف
 مرجليوث أشد المستشرقين تحاملا على الاسلام
 اعترافات جون ديون بورت وريوند باسورث سميت
 السيرة النبوية أوثق رواية وأكثر صحة من كل ما كتب في سيرة
 النبيين
 المحاضرة الرابعة : السيرة المحمدية من ناحية كمالها وتمامها
 وشمولها
 لا تكون حياة أحد كاملة الا اذا كانت معلومة للناس . وحياة
 محمد ﷺ من ميلاده الى ساعة وفاته معلومة التفاصيل بجميع
 دقائقها
 مثال من كتب الشرائع لتفاصيل ما يعرفه التاريخ عن محمد ﷺ
 من جليل ودقيق
 كلمتا كين وباسورث عما يعرفه التاريخ من دخائل محمد ﷺ
 تفاصيل اخرى عما يعرفه التاريخ عنه ﷺ
 ما استقصاه ابن القيم في زاد المعاد من احوال النبي الخاصة
 وشئونه اليومية
 إباحة النبي ﷺ لأصحابه ان يذكروا عنه كل ما يعرفونه بلا
 تحفظ
 كان الرسول ﷺ معروف الدخائل لأعدائه أيضا ، فلم ينقلوا
 عنه الا خيرا
 شهادة أبي سفيان قبل اسلامه للنبي ﷺ عند هرقل
 رجاحة عقول العرب تجعلهم لا يتخذون في أمر الرسول
 فاتبعوه وهم على بيته

- لو كنتم الرسول شيئا لكنتم ما في القرآن من مؤاخذته
- كلمة هيجنس في المقارنة بين محمد ﷺ والذي قبله
- سنن الامم السالفة في الاخلاق بادت ولم يبق الا سنن الاسلام
- المسلمون لا يحتاجون من خارج دينهم الى اصول وضوابط لان اصولهم كاملة
- ١٠٩ المحاضرة الخامسة : السيرة المحمدية من ناحيتها الجامعة :
الاديان الاخرى تتحرى اقوال انبيائها والمسلمون يتحرون اعمال نبيهم
- حياة محمد ﷺ جمعت ما تفرق في الانبياء مما امتازوا به
- انتباه احد البراهمة لهذه الناحية من الحياة المحمدية
- ما اعطى الله الرسل جميعا متفرقين قد اوتيهم محمد ﷺ وحده
- مقارنات بين النبي ﷺ واخوانه الانبياء
- مدرسة محمد ﷺ كانت جامعة للطوائف وعامة للامم
- استعراض نماذج من تلاميذ محمد ﷺ
- إن العالم لا تتم هدايته الا بالمصلح الاخير للدنيا
- ١٣٧ المحاضرة السادسة : الناحية العملية من السيرة المحمدية :
كيف تتبع الرسول وفيم تتبعه ؟
- مقارنة بين نتائج عظة جبل الزيتون ، ونتائج دعوة جبل الصفا ما شهد به لمحمد ﷺ اقرب الناس اليه واعرفهم به
- كان ﷺ اول من يعمل بما يأمر الناس به
- مقارنة بين عظة « أحبوا اعداءكم » ومعاملة النبي ﷺ لاعدائه
- مقارنة بينه ﷺ وبين الانبياء من آدم الى عيسى
- ١٦٣ المحاضرة السابعة : رسالة رسول الاسلام الى جميع الانام

ما هي السيرة الكاملة الجامعة في الرسول ، وماذا بلغ عن ربه .	
كفالة الله لحفظ الرسالة المحمدية لانها رسالة الحاضر والمستقبل	
الاسلام أول رسالة عامة في تاريخ الانسانية	
الدين ايمان وعمل ، ولم يجتمعا الا في الاسلام	
مقارنات بين رسالة الاسلام والرسالات الاخرى	
مقارنة بين الوصايا العشر والآيات ٣٦ - ٣٩ من سورة	
الاسراء	
عناية الشرع المحمدي بكرامة الجنس البشري ومكانته من سائر	
المخلوقات	
الرسالة المحمدية عرفت الناس بأقدارهم وانزلتهم منازلهم ..	
الاسلام وحقيقة التوحيد	
فطرة الانسان في الاسلام بريئة في الاصل ولم يولد آثما ...	
الدين والفطرة كلمتان للدلول واحد	
الناس سواسية في الاسلام ، والدنيا كلها لله وحده	
الاسلام سوى بين جميع الانبياء ودعا الى الايمان بهم جميعا ..	
دين الله بين الذين غلوا في الانبياء والذين فرطوا فيهم ...	
المحاضرة الثامنة : السيرة المحمدية من الناحية العملية ...	١٨٥
فساد الاديان السابقة بسبب التشبيه وتحسيم الصفات الالهية	
فسادها بسبب فصل الصفات الالهية عن الذات	
فسادها بسبب تعديدهم الفاعل بتعدد أفعاله	
منشأ الخير والشر حسن استعمال الامور او سوء استعمالها ..	
الهدى والضلال بما كسبت أيدي الناس	
تعبد الضالين بتعذيبهم أنفسهم	
التضحية والأضاحي والقربان	

النفوس ملك لله ، فليس للانسان ان يتحرر أو يحدد النسل .
 قضاء الاسلام على نظام الطبقات ، وعلى التفاضل بالمال
 والنسب واللون
 من أعظم الجرائم فصل الدين عن الدنيا
 الاسلام ايمان بالحق وعمل به
 الفهرس ٢٠٧